جامعة مولود معمري–تيزي وزو

مخبر الممارسات اللغوية



مجلة

الممارسات اللغوية

العدد العاشر (10)

2012

ISSN : 2170-0583

مخبر الممارسات اللغوية

جامعة مولود معمري – تيزي وزو

الجزائر

الهاتف: 00 14 41 026

الناسوخ: 00 14 41 026

البريد الإلكتروني: laboling@yahoo.fr

ـ الهيكل الإداري للمجلة



كلمة هيئة التحرير:

تُواصل "مجلة الممارسات اللغوية في الجزائر" مسيرتها العلمية بإصداراتها المتتالية، التي يروم الباحثون من خلالها التطرق بالدرس والتحليل إلى القضايا اللغوية المندرجة ضمن اهتمامات مخبر "الممارسات اللغوية في الجزائر" واختصاصاته.

ويأتي العدد العاشر من هذه المجلة في هذا الإطار، متناولا أبحاثا مختلفة، مترابطة ومتكاملة، فمنها ما هو معالجة للمستويات اللغوية المختلفة(صوتية، صرفية، دلالية ونحوية)، ومنها ما هو درسٌ في فروع اللسانيات التطبيقية المختلفة، كالمعجمية، علم المصطلح، الترجمة وتعليمية اللغات. وقد عولج هذا كله بالنظر والتطبيق حسب ما تقتضيه المنهجية العلمية، إضافة إلى التطرق إلى بعض المناهج التنظيرية كالبنوية والتداولية والسيميائية.

وأتى هذا سعيا من المخبر إلى إثراء المكتبة العلمية، وتزويد الطالب والباحث بالرافد العلمي الذي يشقّ به الطريق نحو الجديد خدمةً للغة العربية وعلومها.

هيئة التحرير



الفهرس

نظرية أفعال الكلام في مفتاح العلوم للسكاكي

قانون الخبر نموذجا

أ: باديس لهويمل

جامعة بسكرة

ملخّص:

يهدف هذا المقال في جزئه الأوّل إلى النظر في قانون الخبر عند السكاكي الذي وضعه قسيما لقانون الطلب، فيقوم بتحليله على ضوء اللسانيات التداولية، ويركز على مبحث أضرب الخبر وخصوصياته البلاغية والتداولية وكذا التعبير عن الطلب بأسلوب الخبر، والتعبير عن الخبر بأسلوب الطلب ومقارنة ذلك بنظرية أفعال الكلام التداولية، لبيان نوع العلاقة المعرفية التي يمكن إقامتها بين هذا المبحث من البلاغة العربية واللسانيات التداولية.

مقدمة: تعدّ نظريّة الأفعال الكلاميّة من أهم جوانب اللسانيات التّداولية لما تحويه من أفكار ورؤى لسانية مهمة، وما تضمّه من آليات تشترك فيها مع بقية جوانب اللسانيات التّداولية (القصد، والإفادة، والحجاج،...) ولذلك لقيت اهتماما بالغا أمره في الدّراسات الحديثة، وتقوم على فرضية أساس مفادها«أنّه يقصد بالكلام تبادل المعلومات والقيام بفعل خاضع لقواعد مضبوطة في الوقت نفسه، ويهدف هذا الفعل إلى تفسير وضعية المتلقي ونظام معتقداته ومواقفه السّلوكيّة»[1].

وينقسم الفعل الكلامي إلى: الفعل اللّفظي Act locutoire والفعل الإنجازي Act illocutoire، والفعل التّأثيري Act perlocutoire أو الفعل الناتج عن القول،«ويتضمن فعل القول بدوره ثلاثة أفعال لغوية فرعية: "فعلا

صوتيا"، و"فعلا تركيبيا"، و"فعلا دلاليا"، ويشكل الفعل الصوتي التّلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معيّنة، والفعل التركيبي تأليف مفردات طبقا للقواعد التركيبيّة للغة معيّنة، والفعل الدلالي استعماله هذه المفردات حسب دلالات وإحالات معيّنة، ويواكب فعل القول بفروعه الثلاثة، فعل الإنجاز المعبِّر عن قصد المتكلِّم من تلفّظه بالعبارة،كأن يخبر أو يسأل أو يعِد أو ينذر أو يوعد، كما يواكبه فعل التّأثير الكلامي أي الأثر الذي يخلِّفه التّلفظ بالعبارة لدى المخاطب كأن يستبشر أو يرعب أو ينفعل أو يطرب أو يغضب»[2].

1 . موقع النظرية في التراث العربي: وظاهرة الأفعال الكلاميّة تندرج في التّراث العربي ضمن مباحث علم المعاني مثما أكد كثير من الدّارسين المحدثين، فتقابل ما اصطُلح عليه بمبحثي"الخبر والإنشاء"، يقول الباحث مسعود صحراوي: «وتندرج ظاهرة الأفعال الكلاميّة تحديدا، ضمن الظّاهرة الأسلوبيّة المعنونة بـ"الخبر والإنشاء" وما يتعلّق بها من قضايا وفروع وتطبيقات ولذلك تعتبر نظريّة الخبر والإنشاء عند العرب من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم الأفعال الكلاميّة»[3]. ومن هذه القضايا والفروع التي تندرج ضمنها نظرية أفعال الكلام "أضرب الخبر التي ستكون مجالا للتطبيق والتحليل في هذا المقال وكذا تحول الخبر للتعبير عن الطلب والطلب للتعبير عن الخبر وخصوصياته البلاغية والتداولية.

ويُشكّل مفهوم الخبر والإنشاء في التّراث العربي بعامة سواء عند اللّغويين أم البلاغيّين أم الأصوليّين بابا مهمّا يقف على قدم المساواة، مع ما تعرضه نظريّة أفعال الكلام "لأوستين" j.Austin التي طوّرها من بعده "جون سيرل"j.Searle فالخبر ما قبل الحكم عليه بالصّدق أو الكذب انطلاقا من مطابقته للخارج أو عدم مطابقته، والإنشاء ما لا يقبل ذلك الحكم، ويتميّز بأنّ مجرد النّطق به هو تحقيق له وإنجاز على أرض الواقع.

وهي الأفكار ذاتها التي جعلت "أوستين" يبني نظريّته للفعل الكلامي من خلال الثورة على آراء الفلاسفة الوضعيّين، ليميّز بين الأفعال التّقريرية والأفعال الإنجازية على أساس درجة تحقّقها في الخارج وموقف المتكلم منها يقول"أحمد المتوكل": «من المعلوم أنّ الفكر اللّغوي العربي القديم يتضمّن ثنائية (الخبر والإنشاء) التي تشبه إلى حد بعيد الثّنائية الأوستينيّة (الوصف/الإنجاز) كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء، فالجملة الخبرية عندهم هي الجملة التي تحتمل الصدق أو الكذب في حين أنّ الجملة الإنشائيّة هي الجملة المتوافرة فيها خاصّيتان: (أ) أنها لا تحتمل الصدق أو الكذب، و(ب) أنّ مدلولها يتحقق بمجرد النطق بها»[4]

ففحوى القول إذن في نظرية أفعال الكلام، يتمحور في "الخبر والإنشاء" أو ما اصطلح عليه السّكاكي بـ"قانوني الخبر والطّلب"، جاعلا لكلّ منهما مرجعيّة معيّنة[5] متمثلة في علاقتهما بالخارج من عدمها، فالخبر ما ارتبط بالخارج فيكون صادقا إذا طابقه ويكون كاذبا إذا خالفه ولم يطابقه، وإن لم تكن للكلام علاقة بالخارج ومرجعيّة فيه فهو إنشاء(طلب) وتصنيف السّكاكي للكلام في حد ذاته إلى قانون للخبر وآخر للطّلب يستند إلى اعتبارات نصّية وتداوليّة واضحة، إذ بعد تعريفه لعلم المعاني بكونه «تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها» [6]؛ وجعل وظيفته دراسة أساليب الكلام ومعانيه، اكتشف أنّ دراسة هذه المعاني في الكلام بمختلف تراكيبه وسياقاته وأغراضه غير ممكنة ويجب حصرها إذ لا نهاية لها، يقول: «إنّ التّعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التّعرض لتراكيبه ضرورة لكن لا يخفى عليك حال التّعرض لها منتشرة، فيجب المصير إلى إيرادها تحت الضّبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار ثم حمل ما عدا ذلك عليه شيئا فشيئا على موجب المساق، والسّابق في الاعتبار في كلام العرب شيئان: الخبر والطّلب»[7].

فالملاحظ أنّ السّكاكي وانطلاقا من ثقافته الكلاميّة وتشبّعه بالمنطق قسّم المعاني بحسب الأغراض والمقاصد(قرائن تداولية) إلى خبر وطلب(إنشاء) جاعلا لكلّ من القسمين أغراضا تواصليّة ومقاصد ذات معان خاصّة يساق إليها الكلام وتختلف التّراكيب بحسبها ثم قام بتحليل: «الاعتبارات النّصية التركيبيّة الراجعة إلى الكلام خبرا في تأليفه وظهور عناصره أو حذفها أو تقديرها، وتقديمها أو تأخيرها وتعريفها أو تنكيرها(...) وتجاوز تأليف الكلام في الجمل ليدرس جهات الوصل والفصل بينها(8) ذلك أنّ المعنى يكتمل في نظام النّص»(9) وكان تعويل السّكاكي في ذلك على دراسة بعض النصوص(10) دراسة أسلوبية ونصّية طريفة تكشف عن عمق تحليل صاحبها ودقته وإحاطته بكلّ الجوانب المرتبطة بموضوعه، ومنها الاعتبارات النّصية والتّداولية.

فللكلام بصفة عامة مسلكان ينحصر فيهما: إمّا أن يكون خبرا وإمّا إنشاء؛ أمّا الخبر فما قصد به إفادة مخاطب ما بمضمون إخباري لا علم له به، أو كان أمره مبهما لديه ويكون لهذا المضمون الإخباري وجود في الواقع الخارجي، كي يُردّ إليه، فيحكم عليه بالصدق أو الكذب، بينما يكون الإنشاء (الطلب) متجردا عن العالم الخارجي، ومحدّدا في التركيب اللّغوي لكنه لا يلقي خبرا إلى المخاطب، بل يستدعي مطلوبا لم يكن حاصلا وقت الطّلب.ومعيار التّصنيف بين الأسلوبين: بحسب قبول الحكم عليهما بالصّدق والكذب(11)، استنادا للواقع الخارجي، يُعدّ معيارا تداوليا وقرينة هامّة، ذلك أنّه يستند في دراسة الكلام إلى مدى مطابقة الواقع من عدمها(العالم الخارجي)، بمعنى يدرس مدى مطابقة الكلام للاستعمال في الخارج من عدمها كي يكون خبرا، وإلاّ فهو طلب يتحقّق بفعل لغوي يستدعي من السّامع إنجاز عمل ما؛ فالخبر«هو الخطاب التّواصلي المكتمل إفاديا والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية»(12)، في حين يكون الإنشاء، أو الطّلب بتعبير السّكاكي «هو الخطاب التّواصلي المكتمل إفاديا والذي يريد

المتكلم من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية»[13]وهذا جوهر ما تبحثه اللّسانيات التّداولية.

وإذا قابلنا تصور الخطابين الخبري والإنشائي بعامة بما جاء به "سيرل" نجد أنّ الخبر بما يحويه من أضرب، يندرج ضمن صنف "التّقريريّات" Assertifs بمعاييره، وغرضها المتضمّن في القول هو "التّقرير" ويعني «إدراج مسؤولية المتكلّم عن صحة ما يتلفظ به»[14] وشرطها امتلاك الأسس القانونية أو الأخلاقية التي تؤيد صحة محتواها[15]، أمّا الطلب فيندرج ضمن باقي الأصناف ويتوزّع عليها. وسنكتفي في هذا الجزء بقانون الخبر على أن يكون الطلب في جزء ثان للمقال.

2 ـ أبعاد النّظرية في قانون الخبر: قسّم السّكاكي علم المعاني إلى قانون للخبر وقانون للطلب، يضمّ كل قانون جملة من المباحث والقضايا فبدأ في قانون الخبر بعرض مفهوم الخبرية ومرجعها في احتمال الصّدق والكذب أي حكم المُخبر وبيان ما يتفرّع عن ذلك من فنون (فن يرجع إلى الحكم، وفن يرجع إلى المحكوم له وفن يرجع إلى المحكوم به (المسند)، ثم تعرّض لمرجع كون الخبر مفيدا أم لا بالنسبة للمخاطب (فائدة الخبر، لازم الفائدة)، لينتقل إلى بيان مفهوم مقتضى الحال في مبحث وسمه بـ"لكلّ مقام مقال" لينتقل إلى عرض ما يترتّب عن ذلك من تفصيل لفنون الخبر جاعلا إياها أربعة:

<u>الفنّ الأول</u>: في تفصيل اعتبارات الإسناد الخبري.

<u>الفن الثاني</u>: في تفصيل اعتبارات المسند إليه.

<u>الفن الثالث</u>: في تفصيل اعتبارات المسند

<u>الفن الرابع</u>: في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل والإيجاز والإطناب ثم تبيّن مراتب الكلام البليغ من خلال تحليل الآية الرّابعة من سورة مريم، وختم المبحث ببيان أسلوب القصر[16].

ومن بين ما تطرّق له السّكاكي في قانون الخبر دراسة التّراكيب اللّغوية الخبريّة المتفاوتة ضمن ما يسمّى "بأضرب الخبر"، وهي دراسة تكشف عن مظاهر تداوليّة مهمّة كشف عنها السّكاكي؛ حيث أنّ أضرب الخبر يتمّ التمييز بينها من خلال مراعاة جملة من العناصر التّداولية نحو: قصد المتكلم وحال السّامع والظروف المحيطة به، فيكون الفرق بين أضرب الخبر(الابتدائي والطلبي والإنكاري)، بمعايير سيرل، بحسب درجة الشّدّة في تحقيق الغرض المتضمن في القول.

3 ـ أضرب الخبر وأفعال الكلام: تتّضح المظاهر التّداولية لنظرية أفعال الكلام في أضرب الخبر عند السّكاكي، من خلال عرضه لرواية أبي إسحاق الكندي مع أبي العباس المبرد، حينما سأل الكندي المبرّد بأنّه يجد في كلام العرب حشوا يظهر في قولهم: "عبد الله قائمٌ"، ثم قولهم "إنّ عبدَ الله قائمٌ"، ثمّ "إنّ عبدَ الله لقائمٌ" والمعنى ،حسبه، واحد، فأجابه المبرّد وهو أديب ولغوي، بأنّ المعاني مختلفة ذلك أنّ "قولهم عبد الله قائم" إخبار عن قيامه وقولهم "إنّ عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل وقولهم "إنّ عبد الله لقائم"، جواب عن إنكار منكر لقيامه.(17)

واضح أن هذا الخبر يكشف لنا الفرق بين التصور القضوي للخطاب والتصور التخاطبي له، فسؤال الكندي يدل على أنه لا يرى في الكلام سوى معناه القضوي ممثلا في نسبة القيام لزيد، ولذلك رأى في الكلام حشوا إذ القضية المعبّر عنها واحدة، دون أن يلتفت للمعنى الإنجازي المراد بكل جملة مما سبق وهو ما كشف عنه "المبرَّد" حيث بيّن« أنّ المعنى الذي يقصده المتكلم يتّخذ له من الوسائل اللّغوية والمقاميّة ما يعين على إدراكه، فقد أدرك أن قصد المتكلم مراعى فيه حال المخاطب»(18).

فالتّصور التّخاطبي إذن لما رآه الكندي حشوا، هو أنّ الجمل الثلاث تشكّل خبرا تختلف درجاته في كلّ مرة بحسب المقام والغرض المتضمّن في

القول، وكل تغيُّر في اللّفظ فيها مؤذن بتغيّر في المعنى، واللّغة في هذه الحال تعدّ بمنظور تداولي: «أعمالا لغوية يختلف فيها توكيد الإثبات عن الإثبات ويراعي المتكلم عند إنجاز الأعمال اللغوية اعتقادات المخاطَب وافتراضاته»[19]

ولولا إدراك السّكاكي لهذه الحقيقة وأهمّيتها، بأنّ للكلام معنى قضويا محتوى فيما يحمله من أفعال لفظية، ومعنى إنجازيا خاضعا لقصد المتكلم وحال السّامع ومقامه، قلنا لولا إدراك السّكاكي ووعيه هذه الحقيقة وما فيها من مظاهر تداولية وقرائن، لما أخذها عن الجرجاني وقام بتحليلها.

فإذا كان الفعل اللفظي Locutionary act «يتكوّن من النّطق بأصوات لغوية ينتظمها تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدّد هو المعنى الحرفي أو الأصلي المفهوم من التّركيب وله مرجع يحيل إليه»[20]، والفعل الإنجازي يقصد به ما يحقّقه ذلك الفعل اللفظي أثناء استعماله(وظيفته) مثل:التّحذير، والنّصح، والأمر، فإنّ للسّكاكي نصا واضح الدّلالة على إدراكه لهما كان للباحث محمود أحمد نحلة[21]، فضل الإشارة إليه، يقول السّكاكي: «وأعني بالفهم فهم ذوي الفطرة السّليمة مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب: "إنّ زيدًا منطلقٌ" إذا سمعه العارف بصياغة الكلام، من أن يكون مقصودا به نفي الشّك أو ردّ الإنكار، أو من تركيب: "زيدٌ منطلقٌ"، من أنّه يلزم مجرّد القصد إلى الإخبار، أو من نحو "منطلقٌ" بترك المسند إليه من أنّه يلزم أن يكون المطلوب به وجه الاختصار مع إفادة لطيفة ممّا يلوِّح بها مقامها»[22].

ويظهر جليا أنّ العارف بصياغة الكلام، كما يقول السّكاكي، يدرك أنّ هذه الأمثلة:إن زيداً منطلقٌ، وزيدٌ منطلقٌ، ومنطلقٌ، تعدّ تراكيب نحوية سليمة، تدلّ على معان معيّنة، بحسب قصد المتكلِّم والمقام في كلّ منها.

وإنّ هذه التراكيب بمعايير أوستين"، و"سيرل" تشكّل أفعالا إنجازية مختلفة بحسب قصد المتكلم والمقام، ولذلك تمّ استعمالها في صيغ مختلفة فالمثال الأوّل يحوي قوّة إنجازية دالّة على رد الإنكار أو نفي الشّك لمخاطَب شاكّ

ومنكِرٍ للكلام والمثال الثاني: ورد خاليا من أدوات التّوكيد، ليدلّ على مجرّد القصد إلى الإخبار فقط فهو فعل إنجازي منوط به الإخبار عن انطلاق زيد وإثباته له، والمثال الثالث يعدّ أيضا فعلا لغويا يفيد الإخبار عن انطلاق زيد لكن حذف فيه المسند إليه (زيدٌ) مراعاة للمقام، وما الفرق بين هذه الأفعال اللّغوية سوى في درجة الشّدة بحسب الغرض المتضمّن في القول.

ثم إن راوية ابن الأنباري التي عرض فيها سؤال الكندي وجواب المبرّد له لو عجنا إليها لوجدناها تضمّ قرائن تداوليّة تستند عليها نحو استخدام أدوات معينة لتوكيد الكلام والتّدرج فيه، وكأنها تعرض سلالم حجاجية تجعل المتكلم يتدرج في الاحتجاج لكلامه بحسب حال مخاطبه ودرجة تقبّله أو إنكاره للخطاب.

مما يجعل المتلفّظ بالخطاب يفاوت في درجة شدة أفعاله اللّغوية بحسب غرضه المتضمّن في قوله، وحال مخاطبه« فكلّ صنف من المتضمّن في القول له غرض point أو هدف ذاتي internal لكونه فعلا من ذلك الصنف...فالوعود...غرضها إلزام المتكلم نفسه بعمل شيء، [و]الأوامر... لحمل النّاس على عمل شيء، وهكذا فكلّ واحد من هذه الأغراض أو الأهداف نسميّه الغرض المتضمن في القول للفعل المتعلّق به»(23) ويستدعي هذا أن يكون للمتلفظ بالخطاب ملكة تمكّنه من اختيار التّركيب الخبري المناسب عند إرادته التّلفظ بقصد ما داخله، فيراعي حال سامعه، وظروفه وعلاقاته الاجتماعية، ويستخدم أضربا مختلفة للخبر، تندرج ضمن القوى المتضمّنة في القول، وقد ميّز فيها السّكاكي على غرار باقي البلاغيين من قبله ثلاثة أضرب، وهو تمييز يقوم على أساس تداولي يستند عليه في تحديدها، بيان ذلك استناد السّكاكي إلى طبيعة العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب في تمييز أضرب الخبر. حيث يضطر المتكلم في كل مرة إلى تعديل خطابه والتّصرف فيه بحسب حال سامعه ومقامه كي يضمن لكلامه تحقيق الوظيفة التّواصلية المنوطة به

وهو ما يعرف في الفكر اللّساني المعاصر بـ"التّعالق بين البنية والوظيفة"(24) في الأنماط المقاميّة المختلفة فكانت أضرب الخبر ثلاثة:

أ- الخبرالابتدائي: يلقى لمخاطَب(متلقّ) خالي الذّهن من الحكم الذي تضمّنه فعل الإخبار(25) (الإثبات)، ولذلك يتمكن هذا الخبر في ذهن مخاطَبه ويكون بأن يفرغ المتكلّم في قالب الإفادة ما ينطق به، فيقصد في حكمه بالمسند على المسند إليه في خبره إفادة مخاطَبه،كما يقول السَكاكي: «فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عما يلقى إليه، ليحضر طرفاها عنده، وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتا أو انتفاء، كفى في ذلك الانتقاش حكمه، ويتمكن لمصادقته إياه خاليا»(26).

ففعل الإخبار في هذا المقام يلقى خاليا من أدوات التأكيد لعدم الحاجة إليها، فقد صادف متلقيا لم يسمع به من قبل، فيتمكن الخبر في ذهنه ذلك أن من طبيعة النفس تلقي الأخبار التي لا علم لها بها بالتصديق والقبول، نحو قول الشاعر:(27) **أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَادفَ قلبًا خاليًا فتمكّنا**

ونحو قوله تعالى: **(ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا)**(28)

فالمثال الأوّل "زيدٌ قائمٌ" الذي ورد في حديث المبرّد إلى المتفلسف الكندي قائم على فعل الإخبار لأن المخاطَب في هذا المقام خالي الذّهن من الخبر، ولذلك سمّي ابتدائيا.

ب- الخبر الطّلبي: يلقى لمخاطب متردد وشاك في الحكم الذي تضمنه فعل الإخبار، فيكون في حاجة إلى معرفة حقيقته وتبيّنها، لأنّه في موقف الحائر المتردّد ويسمّي السّكاكي هذه الحالة "بين بين" إذ المخاطب ليس منكِرا للحكم من جهة وغير مستعدّ لتقبّل هذا الحكم دون تقوية له وزيادة في حدّته ويستحسن في هذه الحالة أن يقوّى له الكلام، بإدخال أداة من أدوات التأكيد حتى يزول تردّد المخاطَب ويطمئن للحكم الذي تضمّنه فعل الإخبار، يقول السّكاكي: «وإذا ألقاها [يقصد الجملة الخبرية] إلى طالب متحيّر طرفاها

عنده دون الاستناد، فهو منه بين بين لينقذه عن ورطة الحيرة استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللاّم في الجملة، أو إنّ كنحو: لزيد عارف أو إن زيداً عارفٌ»[29]

ففي توظيف أداة التّأكيد، بعدّها قرينة تداولية تسهم في تقوية درجة شدّة فعل الإخبار، قطع لشكّ المخاطَب وحيرته وتحويله إلى يقين ممّا يدفعه إلى التّسليم بالحكم الذي يحمله فعل الإخبار. وما المثال الثّاني الذي رأى فيه الكندي حشواً، "إنّ زيداً قائمٌ" إلاّ من هذا القبيل ويسمى الخبر في هذه الحالة بالخبر الطّلبي.

ج- الخبر الإنكاري: يلقى لمخاطب منكر للحكم الذي تضمّنه فعل الإخبار إنكارا تاما ومعتقد فيه بخلافه، ولذلك يحتاج أن يؤكّد له الخطاب بأكثر من مؤكّد، وبتعبير سيرل يحتاج أن نزيد في درجة شدة فعل الإخبار ممّا يضمن تحقيق الغرض المتضمن فيه، ذلك أنّ المخاطب حاكم في الخبر بخلافه يقول السّكاكي: «وإذا ألقاها [الجملة الخبرية] إلى حاكم فيها بخلافه ليرده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالِفُ الإنكار في اعتقاده، كنحو "إنّي صادقٌ" لمن ينكر صدقك إنكارا، و"إنّي لصادِقٌ" لمن يبالغ في إنكار صدقك و"واللّه إني لصادقٌ" على هذا»[30].

ففي هذه الحالة ينتقل المتكلم إلى حالة التّوكيد بأكثر من أداة كي يرد مخاطَبه إلى حكمه(المتكلم)، وهو ما يمثّله في رواية ابن الأنباري المثال الثالث: "إن زيداً لقائمٌ" ففيه جواب لمن ينكر ذلك، ويسمى الخبر ابتدائيا.

فالظّاهر في الأضرب الثلاثة أن العبارة الواحدة تتشعّب إلى ثلاثة خطابات تواصلية بحسب حال السّامع ومراعاة المتكلم لها، والفرق بين هذه الخطابات الثلاثة لا يكمن في معناها القضوي وإنّما، كما بيّن سيرل، في درجة الشّدة في تحقيق الغرض المتضمن في القول، فيتدرج المتكلم في خطابه من الخبر الابتدائي إلى الإنكاري بحسب مقام سامعه وحاله بيان ذلك كما يقول السّكاكي، ما جاء في كلام ربّ العزة علت كلمته في خطاب المرسلين لأهل القرية، قال تعالى:

(إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾)[31]

واضح أنّ الآية الكريمة تضمّ جملة من المفاهيم المتعلّقة بالخبر وأضربه مما جعل السّكاكي يوظفها لتوضيح التّدرج في بناء الجملة وصولا للخبر الإنكاري في خطاب المرسلين، فكان مقام التّبليغ متجددا:[32]

المقام الأول: قال تعالى:(إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا) يقتضي أنّ الخبر كان:

–أرسلَنا الله إليكم، أو نحن مرسلان إليكم. ←—— خبر ابتدائي.

المقام الثاني: قال تعالى: (فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ) يقتضي المقام أن يعزز الرسولان بثالث وأن يؤكد الخطاب بأداة تأكيد، فكان الخبر:

–إنّا إليكم مرسلون. ←—— خبر طلبي.

المقام الثالث: قال تعالى: (قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾).

لمّا كان المقام مقام: إنكار الكافرين للرّسل: ما أنتم إلاّ بشر مثلنا، وما أنزل الرّحمان من شيء، استدعى تأكيد الخطاب بأكثر من مؤكّد:

–إنّا إليكم لمرسلون. ←——————— خبر إنكاري.

بناء على هذا، نجد أنّ الإخبار بأضربه الثّلاثة يضعنا أمام مقامات ثلاثة تخضع لحال المخاطَب« أوّلها يكون فيها المتكلم، أعرف من السامع، والسّامع لا يعرف شيئا عن موضع الخطاب وبالتالي لا يستطيع أن يصدر حكما ويكون التقبل وجهته وثانيهما، يملك فيه السامع معرفة ما، ولكنها تحتاج إلى دعم من المتكلم، أما في الحالة الثالثة فإن المقام مبني أساسا على التقابل لأن السّامع في هذه الحالة يرفض، ويسند رفضه بمجوعة من الحجج»[33]، مما يجعل المواجهة بين المخاطِب والمخاطَب تتسم بالعرض من جهة والرّفض من جهة أخرى وهذا ما يدخل الخطاب في السياق الحجاجي، وهكذا نخلص إلى القانون البلاغي التالي: إن الخطاب التواصلي البلاغي، خطاب تداولي في صميمه بخاصة في قسمه الإخباري، الذي يعلن بأن الإسناد في الجملة الإخبارية، يجب أن يكون قصد المتكلم به مطابقا لحال مخاطَبه.

- فإذا كان المخاطَب(المتلقي) خالي الذهن، فمقتضى الحال أن يأتي الخطاب خاليا من التأكيد.

- وإذا كان المخاطَبُ (المتلقي) شاكا مترددا، فمقتضى الحال تأكيد الخطاب بمؤكد واحد.

- وإذا كان المخاطب(المتلقي) منكرا للخطاب فمقتضى الحال تأكيد الخطاب بأكثر من مؤكد.

وبعبارة السّكاكي «ومرجع كون الخبر مفيدا لمخاطب، استفادة المخاطَب منه ذلك الحكم(...) فإذا كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده من مؤكّدات الحكم وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة»[34] وأمّا

بعبارة "جون سيرل"، فإنّ الفرق بين هذه الأضرب الثلاثة، يكمن في درجة الشّدة للغرض المتضمن في القول(35) ذلك أنّ فعل الإخبار يحوي معنى قضويا واحدا مع اختلاف في درجة شدّته ضعفا وقوة بحسب مقتضى حال السّامع وباستخدام أدوات لغوية نحو"إنّ" و"اللاّم"، والقسم والجمل الاسمية، فاللغة العربية تضم أدوات وصيغا عديدة تمكّن مستعملها من الدّلالة على القوة الإنجازية التي يريد تضمينها كلامه فيكتسب الخطاب حينها قيما تداولية أساسية.

فالفارق الذي تتحدّد على أساسه الأضرب الثلاثة عند السّكاكي، هوّ المظاهر التّالية: القصدIntentionnalité، والإفادة Pertinonce، والسّياق المقامي Contexte Situationnel، وهي قرائن تداوليّة مافتئ يؤكّدها علماء اللّسانيات التّداولية حديثا؛ فأمّا القصد فيراد به هنا القصد التّداولي «ويتعلّق بمختلف الشروط الإستراتيجية التي يقصد إليها المتكلّم/المتلفّظ في عملية تخاطبه مع المؤول/القارئ. والهدف منها هو مساعدة هذا الأخير وتوجيهه التّوجيه الصّحيح لفهم دلالة النّص أو تأويله تأويلا يلائم سياقه التّخاطبي.»(36) أو تحقيق فائدة يبتغيها المتكلم من خطابه، كإزالة شك أو تردد يراوده هو أم غيره ومحاربته، أو الاستخبار عن شيء ما، أو إثارة مخاطبه، أو التعبير عن اعتقاد معين.

وأمّا الإفادة فيراد بها«حصول الفائدة لدى المخاطَب من الخطاب ووصول الرّسالة الإبلاغية إليه على الوجه الذي يغلب على الظّن أن يكون هوّ مراد المتكلّم وقصده وهيّ الثّمرة التي يجنيها المخاطَب من الخطاب»(37)، وأما السّياق المقامي فيشمل كل ما يحيط بالعملية التخاطبية وأطرافها.

ولعلّ هذه السّمات التّداولية والقرائن هيّ التي تجعل مفتاح العلوم قابلا لأن يكون مَعينا ثرا في مجال الدّرس التّداولي العربي يستقي منه الباحثون ما يُعينهم في أبحاثهم السّيميائية والتّداولية العربيّة على غرار ما يفعل "أحمد المتوكّل" في أبحاثه اللّسانية الوظيفية.

4. الطرح التداولي لفعل الإخبار: إنّ إخراج الكلام في الأحوال والمقامات الثّلاث السّابقة يسمّى إخراجا على مقتضى الظّاهر، كما يقول السّكاكي «وإخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة يسمى إخراج مقتضى الظّاهر وأنّه في علم البيان يسمّى بالتّصريح»(38)، فالكلام إذا أجري في معناه الأصلي وبحسب مقتضيات الأحوال، تحقّق به فعل الإخبار(الإثبات) وهوّ في هذه الحالة لا يعدو أن يكون عملا صادرا من المتكلم، أو فعلا كلاميا مباشرا يهدف لإنشاء إثبات للخبر ولا يختلف عن باقي الأفعال الناشئة من ضروب الإنشاء المختلفة من استفهام وأمر ونهي ونداء وتمن، « فقولك مثلا هل جاء زيد؟ يكافئ قولك: جاء زيد، وما الفرق إلاّ من حيث كون الأول يمثّل عمل الاستفهام والثاني يمثل عمل الإخبار (الإثبات)...لأن الإثبات كالاستفهام تماما معنى يحدثه المتكلم وينشئ بنيته، فهو لمتأمله من كثب، إنشاء أيضا؛ أي عمل إنجازي لا ريب فيه، فكلاهما إنشاء، الأول إنشاء إثبات للخبر، والثاني إنشاء استفهام عن الخبر»(39).

ولعلّ هذا هو عينه ما أشار إليه "أوستين" بخصوص كيفيّة «ربط ضروب الإثبات أو الإسناد الحملي في الجملة الخبرية، فقولك "إن جون راكض" يدلّ على أنّك حملت أمرا على آخر وأثبته له وحكمت به كأنّك قلت: إنّي مثبت حكمي بكون جون يوجد في حالة الرّكض»(40).

ليس هناك إذن ما يدعو لفصل فعل الإخبار عن سائر ضروب الإنشاء الأخرى ما دام يتحقق به الفعل الكلامي المباشر(الإثبات)، مثلما يتحقّق فعل الأمر أو النّهي أو الاستفهام وغيرها من الأفعال الكلامية الإنشائية، « فأن تثبت هو بالضّبط أن تنجز من كلّ وجه قوّة فعل الكلام كأن تحذّر أو أن تعلن»(41)، وبيان ذلك عند "أوستين" أنّنا حينما نقول: إنّ السّماء ممطرة، فإنّنا لا نراهن أو نجادل أو نحذّر وإنّما نحن نثبت هذه الحالة كواقعة وليس شرطا أن يكون حال الإنجاز القيام بفعل فيزيائي مادّي على وجه مخصوص، وهو ما

يتّضح أكثر إذا قارنّا مثلا بين فعل الإخبار في الجملة: جاء زيد، وفعل الاستفهام في الجملة: هل جاء زيد؟ حيث نجد:[42]

1- الإخبار: متكلم + عمل (أو فعل) إثبات + قضية (خبر ذو إحالة) + نغمة مستقرة.

مثاله: Ø + Ø + جاء زيد + .

2- الاستفهام: متكلم+ عمل (أو فعل) الاستفهام + قضية (خبر ذو إحالة) + نغمة صاعدة.

مثاله: Ø + هل + جاء زيد + ؟

ويكون تقدير البنية العميقة للجملة الإخبارية هو: أنا أُثبتُ جاء زيد.

والذي يظهر من خلال هذا التّصوّر أنّ الكلام/ الخطاب هو في الحقيقة «عبارة عن أعمال إنشائية تتصل بمنشئها، ولا تختلف فيما بينها إلاّ من حيث نوع العمل المنجز الذي يحدّده القصد وفاقا لعرفية الاستعمال وإن كان إخبارا أو استفهاما أو نداء أو أمرا أو تعجبا أو رجاء أو تمنيا أو نحو ذلك»[43]. وبالتالي فإنّ جميع العبارات اللغوية هي في الحقيقة عبارات إنجازية ولا فرق بينها إلاّ من حيث كونها عبارات إنجازية صريحة فعلها الإنجازي ظاهر، أو عبارات إنجازية ضمنية فعلها الإنجازي غير ظاهر على مستوى البنية السّطحية.

فخروج الكلام، إذن، من قبل المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها على مقتضى الظّاهر مثلما أشار السّكاكي في"أضرب الخبر"، يدخل بالتّعبير التداولي الحديث ضمن إنجاز الأفعال الكلامية المباشرة.

5- أفعال الكلام غير المباشرة: لم يفت السّكاكي الإشارة لما يندرج ضمن ظاهرة الأفعال الكلامية الإنجازية غير المباشرة، حيث نجده حينما قسّم الكلام إلى خبر وطلب وضع لكلّ قانون منهما شروطا مقامية تتحكّم في إجرائهما على الأصل، بحسب مقتضى الحال بغية إنجاز أفعال متنوعة: إخبار واستفهام وأمر ونهي ونداء.

فرأى في قانون الخبر الذي يتحقق به، إذا ما أجري الكلام على أصله أفعالا كلاميّة مباشرة (إثبات أو نفي أو تأكيد)، أنه يحوي أفعالا كلامية غير مباشرة إذا أجري الكلام فيه على خلاف مقتضيات الأحوال، فيخرج عن قصد من صاحبه إلى أغراض مختلفة تستفاد من السّياق كإنزال المحيط بالخبر منزلة المنكر، أو إنزال خالي الذّهن منزلة المتردّد، وهو ما رأى فيه السّكاكي عملا لا يقوم به إلاّ أهل البلاغة والفصاحة المفلقين السّحرة، يقول:« ثم إنّك ترى المُفلقين السّحرة في هذا الفنّ ينفثون الكلام، لا على مقتضى الظّاهر كثيرا وذلك إذ أحلّوا المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها علما محلّ الخالي الذّهن عن ذلك لاعتبارات خطابية، مرجعها تجهيله بوجوه مختلفة»[44] ويكون في اللغة الإبداعية حيث يعمد المبدع إلى الخروج عن الأصل والعدول عنه، فيشكّل البنية اللّغوية لكلامه على خلاف مقتضى الظّاهر، مراعيا في ذلك أمورا اعتبارية يتطلّبها السّياق، فتنشأ جرّاء ذلك أفعال كلامية غير مباشرة تستلزم من سياقات الكلام.

ولإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر (إنجاز أفعال كلامية غير مباشرة) عدّة صور منها: أن يجعل، كما يقول السّكاكي، المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها محلّ الخالي الذّهن عن ذلك. وقد مثّل لذلك بقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[45].

حيث إنّ الله عزّ وجل في بداية الآية وصف أهل الكتاب بالعلم مع تأكيد ذلك بـ(قد ولام الابتداء) إلاّ أنّهم لم يعملوا بعلمهم ولذلك نفى عنهم سبحانه وتعالى ذلك في آخر الآية، فأفاد فعلُ الإخبار النّفي بدل الإثبات والتأكيد.

ونجد كذلك من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر كذلك إنزال خالي الذّهن منزلة السّائل الذي يطلب تأكيد الخبر له وذلك إذا

أحسّ بأنّ مخاطبه قد استشرفت نفسه وتطلعت تطلع الشّاك المستغرب المتردد في قبول الخبر. وفي هذا سمات ومظاهر تعدّ من صميم البحث التّداولي حيث إنّ المتكلّم يراعي حال مخاطَبه ومقامه بل ويستشرف تلقّيه للخطاب فيُضمّن كلامه من المؤكّدات ما يجعله يحوي قوّة إنجازية ملائمة للمقام، يقول السّكاكي: «هكذا وقد يقيمون من لا يكون سائلا مقام من يسأل، فلا يميّزون في صياغة التّركيب للكلام بينهما، وإنّما يصبّون لهما في قالب واحد إذا كانوا قدّموا إليه ما يلوح مثله للنّفس اليقظى بحكم ذلك الخبر فيتركها مستشرفة له استشراف الطّالب المتحيّر يتمثل بين إقدام للتّلويح، وإحجام لعدم التّصريح فيخرجون الجملة إليه مصدّرة بأن ويرَون سلوك هذا الأسلوب في أمثال هذه المقامات من كمال البلاغة»[46]

وقد مثّل أبو يعقوب لهذه الصورة التي يتم فيها إنزال خالي الذهن منزلة السّائل المحتاج لتأكيد الخبر بقول بشار بن برد في رائيته:[47]

بَكِّرَا صَاحِبِيَّ قَبلَ الهَجِيرِ   إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِير

حيث أراد بشار بن برد أن ينسج على منوال أئمّة البلاغة من الأعراب الخلَّص دون أقرانه من المولَّدين، ولذلك لما قدَّم فعل الإخبار بالتّبكير، رأى في نفس مخاطَبه استشرافا للسّؤال عن سبب التّبكير وأنّ مخاطبه في حاجة لتأكيد مضمون الجملة التّعليلية التي تجيب عن سؤال المخاطب الذّهني، فقال بشار: "إن ذاك النّجاح في التبكير" فجاء تعبيره مراعيا لمقتضى حال مخاطَبه وحاملا مؤكّدين "إنّ" والجملة الاسمية، ليجعل القوة الإنجازية لهذه الجملة ملائمة لمقتضى الحال، في فعلها الكلامي غير المباشر (التّأكيد)، ومن بين صور مخالفة مقتضى الظّاهر كذلك إنزال من لا ينكر ما سيقدم له من خبر منزلة من ينكره، وذلك إذا بدت عليه بعض علامات الإنكار، فينشئ المتكلّم عن قصد كلاما يتضمّن قوة إنجازية تراعي ذلك وتلائم سياق الموقف الجديد بأن تكون على خلاف مقتضى الظاهر استجابة لحال سامعه الجديدة، وهذا ما

نستشفّه من قول السّكاكي: «وكذلك قد ينزلون منزلة المنكر من لا يكون إياه إذا رأوا عليه شيئا من ملابس الإنكار، فيحوكون حبير الكلام لهما على منوال واحد، كقولك لمن تصدّى لمقاومة مكاوح أمامه غير متدبّر، مغترا بما كذبته النّفس من سهولة تأتيها له إن أمامك مكاوحا لك، ومن هذا الأسلوب قوله:

جَاءَ شقيقٌ عَارِضاً رُمْحَهُ   إنَ بَنِي عَمِّكَ فيهم رِمَاح» (48)

فهذا البيت قاله الشاعر في شأن ابن عمه الذي هو بمنزلة شقيق حيث جاء واضعا رمحه عرضا مشعرا بشجاعته وسلاحه وكأنه ينكر على أبناء عمّه حيازتهم للأسلحة والشّجاعة فاقتضى حاله تأكيد الخبر الموجّه له، وهو ما راعاه ابن عمه بقوله:« إنّ بني عمّك فيهم رماح» بمعنى في حوزتهم وملكهم رماح كثيرة، لينشئ بذلك فعلا كلاميا هو الإخبار بحيازة أبناء عمّه للأسلحة وشجاعتهم لكنّه على خلاف مقتضى الظّاهر، حيث عدل الشاعر بكلامه بحسب حال سامعه، ومقامه، فكان عدوله نابعا من سياق الحال وأنتج بذلك فعلا كلاميا غير مباشر هو الإخبار مع تأكيد الخبر بمؤكّدات تكسبه قوة إنجازية ملائمة لسياق الموقف.

ومن بين ما تعرّض له السّكاكي في إطار الأفعال الكلامية غير المباشرة دراسة الطّلب بألفاظ الخبر؛ أي العدول بألفاظ الخبر للدّلالة على الطّلب أو العكس، تضمين الخبر معنى الطّلب، وهو تحوّل دلالي على مستوى الصّيغة يفرضه المقام والحال، يقول السّكاكي: «واعلم أنّ الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضى الظّاهر، وكذلك الخبر فيذكر أحدهما في موضع الآخر ولا يصار إلى ذلك إلاّ لتوخّي نكت قلّما يتفطّن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا» (49)

والانحراف أو العدول بين الأساليب هنا يتجاوز مستوى البناء اللّغوي إلى ما يقتضيه المقام فهو إذن مستوى أوسع يتعلق باختيار الأساليب التّعبيرية لتستخدم

في غير ما وضعت له استنادا لما يقتضيه المقام «وبالتّالي فإنّ المعيار الذي يقاس عليه هذا الانحراف لا يرجع إلى مثالية المستوى المعجمي أو المستوى النحوي وإنّما إلى ما يقتضيه ظاهر المقام فإذا كان المقام مثلا يقتضي استعمال جمل خبرية تتوقف حقيقتها على مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها له فإنّ المبدع قد ينحرف بلغته عن هذا المقتضى للجمل الخبرية إلى استخدام جمل إنشائية طلبية ذات طبيعة مغايرة ليؤدّي من خلالها وظيفة أسلوبية معيّنة يعجز عن أدائها لو أجرى الكلام على مقتضى الظّاهر»(50) فالسّياق والمقام ركن أساس في تحديد وجهة الأفعال الكلامية غير المباشرة ودلالاتها، وبه يتحقق الفهم والإفهام في الخطاب، والتأثير في المتلقي .

وبناء على ذلك رأى السّكاكي أنّ الخبر كثيرا ما يوضع في موضع الطّلب ويستخدم لإنجاز أفعال كلامية تنحصر في: الدّعاء والأمر والنّهي لعدّة أسباب ومقاصد يرومها المتكلم منها:

أ- <u>قصد التّفاؤل بالوقوع:</u> يقول السّكاكي: «والجهات المحسنة لاستعمال الخبر في موضع الطلب تكثر تارة تكون قصد التّفاؤل بالوقوع كما إذا قيل في مقام الدّعاء: أعاذك الله من الشّبهة وعصمك من الحيرة، ووفّقك للتّقوى ليُتفاءل بلفظ المضي على عدّها من الأمور الحاصلة التي حقها الإخبار عنها بأفعال ماضية»(51)، فبيّنٌ أنّ المقام مقام دعاء يقتضي من المتكلّم أن يستخدم فعل الأمر ويكون حاملا لمعنى الدّعاء نحو: "اللهمّ أعذه من الشّبهة واعصمه من الحيرة ووفقه للتّقوى"، إلاّ أنّها لو جاءت بصفة الفعل الكلامي المباشر(الأمر) المناسب للمقام، لكانت درجة تأثير هذا الفعل الإنجازي في نفس المتلقي أقلّ حدّة من درجة تأثير الجملة الماضية لأن هذه الأخيرة تضمّ حمولة إنجازية أقوى من خلال فعلها الماضي الدّال على حصول الفعل وعدم الشّك في وقوعه عكس الجملة الأولى الإنشائية« لذا فإنّ استخدام الجملة الخبرية التي

فعلها ماض، في موضع الجملة الإنشائية الدّعائية، حمل معنى زائدا إلى المتلقي تمثّل في الدّعاء أوّلا وفي تحقق هذا الدّعاء ضمنا على سبيل التّفاؤل ثانيا»[52]

بمعنى أنّ تضمّن الجملة الخبرية "أعاذك اللّه من الشّبهة وعصمك من الحيرة" معنى الطّلب جعلها تحوي أفعالا كلاميّة إنجازية غير مباشرة تفيد الدّعاء مع التفاؤل بوقوع هذا الدّعاء وتحقّقه، ممّا يجعلها أكثر تأثيرا في نفس المتلقي من الخطاب المباشر، كما تنبئ الجملة الخبرية المضمَّنة معنى طلب الدّعاء، مراعاةً لحالة المتلقي النفسية حيث تم العدول عن استخدام الفعل الكلامي الأمر، إلى الإخبار لما في الأمر من استعلاء قد يثير حفيظة المتلقّي وكلّ ذلك حرصا على مشاعر المتلقّي للخطاب وتأدّبا في مخاطبته كذلك فالدّعاء هنا موجّه من الأقل درجة ومكانة إلى الأعلى(اللّه عز وجل)، وهي كلّها مظاهر تداولية في صميمها سواء في قصد المتكلم أو في مراعاة المقام وسياق الكلام بما فيه نفسية المتلقي، وهو ما عناه "سيرل" في فرضيّته جوابا للإشكال: كيف يمكن للمتلقّي أن يفهم الفعل الكلامي غير المباشر مع أنّ ما سمعه يدلّ على شيء آخر حيث يرى أنّ:« في الأفعال الكلامية غير المباشرة يستطيع المتكلّم أن يبلّغ لمتلقي أكثر ممّا يقوله بالفعل باستناده إلى معلومات خلفية لغوية أم غير لغوية مشتركة بينهما وباستناده إلى مقدرات المتلقي العقلانية والاستدلالية»[53]

ب- إظهار الحرص في وقوع الفعل المطلوب: بمعنى يكون اعتبار خروج الخبر للدلالة على وقوع الطّلب يتعلق بالمتكلّم في حدّ ذاته وقصده، حيث إن المتكلم من كثرة حرصه على وقوع ما يطلب، يجعله واقعا حقيقة فيتخيّل غير الحاصل حاصلا، وقد يغلّط نفسه من شدة طلب حصول الفعل، يقول السّكاكي، في ذلك: «تارة لإظهار الحرص في وقوعه، فالطالب متى تبالغ حرصه فيما يطلب ربما انتقشت في الخيال صورته لكثرة ما يناجي به نفسه

فيخيّل إليه غير الحاصل حاصلا حتى إذا حكم الحسّ بخلافه غلّطه تارة واستخرج له محملا آخر وعليه قول شيخ المعرّة: (54)

مَا سِرتُ إِلاّ وَطَيفٌ مِنْكِ يَصْحَبُنِي سُرًى أَمَامِي، وَتأْوِيبًا عَلَى أَثَرِي

يقول: لكثرة ما ناجيت نفسي بك انتقشت في خيالي فأعُدُّك بين يديَّ مُغَلِّطاً للبصر بعلّة الظلام إذا لم يدركك ليلا أمامي، وأعدّك خلفي إذا لم يتيسّر لي تغليطه حين لا يدركك بين يدي نهارا» (55).

فواضح أنّ الفعل الإنجازي غير المباشر المقصود بالكلام هو، تعال وصاحبني لكن الشاعر عدل عن قوله مباشرة إلى تضمينه في معنى إخباري ونظيره كذلك كما يرى السّكاكي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (56)حيث تضمّنت الجملة الخبرية فعلا كلاميا غير مباشر هو النّهي في موضع: لا تعبدوا حيث نهى الله سبحانه وتعالى إسرائيل عن عبادة غير اللهِ فجعل النّهي مضمّنا في الجملة الخبرية حرصا على وقوعه، ونظير هذا أيضا قوله تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ (57) حيث تضمّ هذه الجمل الخبرية أفعالا كلامية غير مباشرة هي الأمر في آمنوا وجاهدوا، إيذانا من الله بوجوب الامتثال لأمره وتمّ تحويلهما إلى الخبر بالجملتين: "تؤمنون بالله"، "وتجاهدون".

كما أشار السّكاكي لمواضع أخرى يتمّ فيها إيراد الطّلب في مقام الإخبار بمعنى العدول عن الخبر الذي يقتضيه المقام إلى الطّلب، وذلك لكون

الجملة الجديدة تحمل معنى قضويا تعجز الجملة الخبرية عن حمله وأدائه، يقول السّكاكي: «ومن الجهات المحسنة لإيراد الطّلب في مقام الخبر، إظهار معنى الرضا بوقوع الدّاخل تحت لفظ الطّلب إظهارا إلى درجة كأن المرضِي مطلوب قال كثير:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً»[58]

نلاحظ أنّ الأمر بالإساءة هنا معطوف عليه الأمر بضدّها (الإحسان) تأكيدا أنّ المراد ليس تخيير المخاطَب بين الفعل والتّرك وإنّما «المعنى الكامن في البنية العميقة الذي يكشف عنه ظاهر السّياق هو"إنْ أَسَأْتِ إلينَا أوْ أَحْسَنْتِ لاَ نَلُومُكِ»[59]؛ فأيّا ما اخترت الإساءة أو الإحسان فأنا راض به كلّ الرضا لذلك عامليني بما شئت منهما وانظري هل تتفاوت حالي معك في الحالين. فشدة هُيام الشّاعر بمحبوبته جعل الإحسان والإساءة عنده يتساويان فأبلغها ذلك، بفعل إنجازي طلبي هو الأمر لكنّ الجملة تحمل في مضمونها قوة إنجازية غير مباشرة هي الإخبار، وقد عدل عن استخدام فعل الإخبار مباشرة للدّلالة على المبالغة في تساوي الأمر عنده حيث نجده هو الذي يدفع محبوبته لذلك يقول السّكاكي: «كلّ ذلك لتوخي إظهار مزيد الرّضى بأي ما اختارت في حقه من الإساءة أو الإحسان أو توخي نفي أن يتفاوت جوابُهُ بتفاوُتِهِ وُقُوعًا وعدم وقوع»[60] فينفي بذلك أيّ احتمال للكذب يمكن أن يحمل عليه قوله، وكل هذه معان لا تتحقق بإنجاز أفعال كلامية مباشرة غرضها الإخبار ولذلك أخرج الشاعر كلامه لا على مقتضى الظّاهر ليتناسب مع ما يقتضيه المقام والقصد من الكلام، وترك للمتلقّي فرصة فهم غرضه من الكلام من خلال السّياق العام وهو جوهر ما أشار له جون سيرل J.Searl الذي يرى أنّ «النّموذج التّفسيري لما هو غير مباشر من الأفعال الكلامية يتضمّن نظرية الأفعال الكلامية وبعض المبادئ العامة للمشاركة في الحديث، وخلفيّة من المعلومات الواقعية الأساسية المشتركة بين

المتكلم والمتلقي كما أنّه يفترض مقدرة من المتلقي على إقامة الاستدلالات»[61].

يتبيّن لنا الآن أنّ التّعبير عن الأخبار قد يجري على مقتضى الظّاهر وقد يكون على خلاف مقتضى الظاهر، والبليغ هو الذي يعطي لكل موقف حقه، «والذكي الأريب هو القادر على وضع كل شيء في مكانه اللائق والمناسب، وهو الذي يغوص في أعماق نفس الإنسان الذي يخاطبه فيفهم ما يعتلج فيها، ويدور في حناياها وحينئذ يختار الكلمة المناسبة لهذا الإنسان وذلك مقتضى الحال»[62].

وهذا لعمري من صميم البحث التّداولي ذلك أنّه يقوم على مراعاة موقف السّامع النفسي ومقامه، مما يضطر المتكلّم إلى تعديل الكلام والتّصرف فيه بما يتلاءم مع الموقف الجديد ويجعل الكلام يؤدّي الوظيفة التّواصلية المنوطة به وهو ما يعرف بـ«التّعالق بين الوظيفة والبنية»[63].

فخروج الكلام على مقتضى الظّاهر مع مراعاة حال المخاطب يعدّ إنجازا لأفعال كلامية مباشرة، في حين يكون أداء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر إنجازا لأفعال كلامية غير مباشرة، لأنّ المتكلّم حينها يكون قد استشرف نفسيّة متلقّيه وراعى حاله غير الظّاهرة في المقام، ليصل إلى إخراج كلامه على مقتضى تلك الحال وإن كانت على خلاف مقتضى الظّاهر، وهذا ما يدلّ على مراعاة لأوضاع غير لسانية لا تظهر على مستوى البنية السّطحية للكلام وإنّما يتمّ الوصول إليها على مستوى البنية العميقة، ممّا يعني أنّ هناك علاقة متينة بين قصد المتكلّم، ومقام المتلقّي ونفسيّته ولذلك أكّد السّكاكي ضرورة مراعاة مقتضى الحال، وهو ما تركّز عليه اللّسانيات التّداولية في أبحاثها، ممّا يعني أنّ السّكاكي في حديثه عن مقتضى الظّاهر(فعل كلامي مباشر)، وخروج الكلام لا على مقتضى الظاهر (فعل كلامي غير مباشر) وما يترتّب عن ذلك من مراعاة للمقام ونفسية متلقي الخطاب، كان يحمل في

ذهنه مظاهر تداولية مهمّة تسيّر أفكاره ومباحثه، وتتجلّى بوضوح في اهتمامه بالأوضاع النّفسية والذّهنية التي تؤطّر الفعل الكلامي الإنجازي فتجعله تارة فعلا كلاميا إنجازيا مباشرا، وتارة أخرى فعلا كلاميا إنجازيا غير مباشر من خلال مراعاة حال المتلقّي ومقامه لا الظّاهرة فقط، وإنّما حتى الباطنية الكامنة في نفسه وذهنه، ممّا يجعلنا نقول إنّ الوصف اللّغوي في المفتاح جاء شاملا لجميع أوضاع اللغة ومستوياتها اللّغوية (صوت وصرف ونحو وبلاغة ودلالة)، وحتى غير اللّغوية النفسية والذهنية، ومقامات الكلام كله، وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى وصف لسانيات السّكاكي باللّسانيات الشمولية.[46]

خاتمة: ونصل من خلال هذا إلى أن قانون الخبر في مفتاح العلوم يشكل مجالا خصبا لإقامة علاقة معرفية مع معطيات الدرس اللساني الحديث، فتقف مباحثه التي اخترنا منها هنا أضرب الخبر مجالا للمقارنة، على قدم المساواة مع مجالات اللسانيات التداولية وقضاياها بخاصة نظرية أفعال الكلام، حيث وجدنا السكاكي يقوم بتحليلها استنادا لتقريب تداولي، ولعل هذا يؤكد على كون مفتاح العلوم ميدانا ثرا للمقاربة التداولية التراثية، كما أنّ إقرار السّكاكي بتحوّل الدّلالات المباشرة لأساليب التّعبير إلى دلالات غير مباشرة حينما يتم الخروج عن مقتضى الظّاهر، وفق معطيات سياقية، إنّما هو مؤشّر مهمّ لإدراكه طبيعة فعل الكلام الإنجازي غير المباشر. ولعلنا في جزء ثان للمقال نقوم بتقريب تداولي لقانون الطلب في مفتاح العلوم للسكاكي من أجل بحث مدى قابلية المفتاح للقرض والاقتراض مع نتائج الدرس اللساني الحديث والمعاصر.

الهوامش:

(1) محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التّناص)، المركز الثقافي العربي المغرب لبنان، ط3، 1992، ص139؛ وينظر: نعمان بوقرة: "نحو نظرية لسانية عربيّة للأفعال الكلاميّة" مجلة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد17، ص169، 170.

(2)أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، الرباط، (دط)، 1989 ص20؛ وينظر: ردّة الله بن ضيف الله: دلالة السياق، ص229، 230.

(3) مسعود صحراوي: التّداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1 2005، ص49؛ ومحمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، (دط)، 2002، ص85.

(4) أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص37.

(5) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 2000، ص254؛ ويلاحظ أنّ السكاكي لم يستخدم مصطلح الإنشاء واستعاض عنه بالطّلب دون أن يتعرّض للإنشاء غير الطّلبي.

(6) مفتاح العلوم، ص247.

(7) نفسه، ص251.

(8) نفسه، ص254–412.

(9) خالد ميلاد: المعنى عند البلاغيّين السّكاكي نموذجا، ضمن أعمال ندوة صناعة المعنى وتأويل النص، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، المجلد 8، 1992، ص163، 164.

(10) ينظر مثلا: تحليل السّكاكي للآية 44 من سورة هود، مفتاح العلوم، ص527–531.

(11) يتّفق السّكاكي في هذا المعيار مع تصنيف "أوستين" الأوّل حينما جعل الجمل الخبرية قسمين: جمل وصفية يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وجمل إنشائية لا تصف الكون فلا تخضع لذلك الحكم، ينظر: آن روبول، جاك موشلار التّداولية اليوم علم جديد للتّواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 2003، ص30؛ وخالد ميلاد: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، جامعة منوبة، تونس المؤسّسة العربية للتوزيع تونس، ط1، 2001، ص494.

(12) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص81، 82.

(13) نفسه، ص82.

(14) نفسه، ص82، 135.

(15) ينظر: نفسه، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التّقابل لا يخلو من عموم لأنّ هناك صنفا من التقريريّات أو الإخباريات وإن جاء خبرا فإنّه يفيد إنشاء فعل لغوي وإنجازه، وبالتالي يجب أن نخرج منها ما دل على الطلب بصيغة الخبر: نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ (البقرة:228) فدلالة الجملة الخبرية في هذا السّياق هيّ الأمر لا الإخبار، بمساعدة القرائن وبالّتالي يجب إخراج هذا الصّنف من التقريريّات (الإخباريّات).

(16) مفتاح العلوم، ص254–410.

(17) ينظر: نفسه، ص259.

(18) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص108.

(19) شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر، كلية الآداب والفنون والإنسانيات جامعة منوبة، تونس، ط1 2006، ص22.

(20) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص68.

(21) ينظر: نفسه، ص108.

(22) مفتاح العلوم، ص248.

(23) سيد هاشم الطّبطبائي: نظرية الأفعال الكلاميّة بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، (دط)، ص17.

(24) ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص95.

(25) القصد بمصطلح الإخبار ما قصد به السّكاكي ومن قَبلَه من نحاتنا وبلاغيّينا "الخبر"، لأنّنا نرى فيه مثلما أشار الدكتور "صلاح الدين ملاوي" دقة أكثر في مقابلته بـــ "الإنشاء"، ولكي يستجيب أكثر لمقتضيات الطّرح التّداولي ذلك أنّ مصطلح الخبر صفة للكلام قد توهم الباحث بكونها مفصولة عن منشئها فلا يحيل على المتكلم، بينما نجد مصطلح الإخبار يتّصل به مباشرة ويرتكز على مفهوم الفعل الكلامي. ينظر: صلاح الدين ملاوي: "نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، دار الهدى الجزائر العدد4، 2009، ص39.

(26) مفتاح العلوم، ص 258.

(27) ديك الجن: ديوان ديك الجن الحمصي، حققه وأعدّ تكملته: أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، (دط)، 1964، ص194 والسّكاكي: مفتاح العلوم، ص258.

(28) الكهف: 46.

(29) السّكاكي: مفتاح العلوم ص258.

(30) نفسه: ص258، 259.

(31) يس: 14، 16.

(32) ينظر: مفتاح بن عروس: "وجهة الخطاب في سورة المؤمنين"، مجلة اللغة والأدب، قسم اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، العدد17، جانفي 2006، ص149.

(33) مفتاح بن عروس: "وجهة الخطاب في سورة المؤمنين"، ص150.

(34) مفتاح العلوم: ص254، وص258.

(35) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص96، 97.

(36) بوشعيب شدّاق: "مقصديّة العمل الأدبي:بين التّقييد والانفتاح"، مجلّة علامات، النّادي الأدبي الثّقافي، جدة، السعودية، الجزء:54 المجلد: 14، ديسمبر 2004، ص449.

(37) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص186.

(38) مفتاح العلوم، ص259.

(39) صلاح الدين ملاوي: "نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية"، ص39، 40.

(40) جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، (دط)، 1991، ص70،71.

(41) نفسه، ص156.

(42) صلاح الدين ملاوي: "نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية"، ص40.

(43) نفسه، ص41.

(44) مفتاح العلوم، ص259.

(45) البقرة: 102.

(46) مفتاح العلوم، ص260.

(47) ديوان بشار بن برد، شرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور، راجع مخطوطته ووقف على ضبطه وتصحيحه: محمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الجزء3،(دط)، 1957، ص203.

(48) مفتاح العلوم: ص262، 263، والبيت لشاعر جاهلي يدعى حجل بن نظلة الباهلي قاله في شأن ابن عمه.

(49) مفتاح العلوم، ص431. [يقصد بنوعنا هذا: علم المعاني].

(50) محمد صلاح زكي أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السّكاكي،جامعة الأزهر، غزة، (دط) 2007، ص212.

(51) مفتاح العلوم، ص432.

(52) محمد صلاح زكي أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، ص213.

(53) علي محمود حجي الصراف: في البراغماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010 ص125.

(54) ديوان سقط الزّند، دار بيروت للطّباعة والنّشر، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان (دط)، 1957، ص56.

(55) مفتاح العلوم، ص433.

(56) البقرة: 83.

(57) الصف: 10، 11.

(58) مفتاح العلوم، ص434.

(59) محمد صلاح زكي أبو حميدة: البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، ص251.

(60) مفتاح العلوم، ص434.

(61) علي محمود حجي الصّراف: في البراغماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ص125.

(62) بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد علم المعاني، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الجزء1، ط7، ص70.

(63) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص95.

(64) ينظر: محمّد الصغير بنّاني: المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة دار الحكمة، الجزائر، (دط) 2001، ص41.

الاتساق النصي (Cohésion) مفهومه وآلياته

أ. فاتح بوزرى
جامعة بجاية

مقدمة: تعتبر اللسانيات النّصية حلقة من حلقات التطور الموضوعي والمنهجي للسانيات المعاصرة، لأنّه «فرع من فروع اللسانيات؛ يدرس النصوص المنطوقة والمكتوبة ... وهذه تؤكد الطريقة التي تنتظم بها أجزاء النص وترتبط فيما بينها لتخبر عن الكلّ المفيد [1]»، فانتقل بذلك من المجال الجملي إلى المجال النّصي الواسع «الدراسة اللغوية لبنية النصوص [2]» واتخذ لنفسه مفاهيم مركزية تؤطره، - منها ما هو لغوي شكلي ومنها ما هو غير لغوي أي تداولي سياقي لأنّ نحو الجملة لم يعد كافيا لإشباع حاجة المحلل اللغوي.

تقوم اللسانيات النصية بوصف وتحليل كيفية تماسك النصوص وتأديتها أغراضا معينة في مقامات تبليغية محددة لتمدّ الباحث برؤية شاملة ودقيقة حول النّصوص وطريقة إنتاجها وفهمها، وقد ذكر Nils أن لسانيات النص تُعنى بدراسة الأدوات اللّغوية المحققة للتماسك النّصي؛ الشكلي والدلالي [3] (الاتساق والانسجام)، مع تأكيده على أهمية السّياق، وضرورة وجود خلفية لدى المتلقي حين تحليل النص [4]، لأنّ المحلّل يفحص استعمال اللغة في السّياق؛ إذ يركّز على العلاقة بين المتحدّث والقول في مناسبة معينة.

عنيت اللسانيات النّصية أكثر بمفهومي "الاتساق" و"الانسجام"، لأنّ بناء النص وتماسكه يرتكز على مجموعة من العناصر النّصية التي تحقق تكامله وتلاحم أبنيته الجزئية، بالإضافة إلى وجود جملة من القرائن المتعددة.

أصبح المفهومان يحتلان موقعا مركزيا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب حتى «إنّنا لا نجد مؤلفا ينتمي إلى هذه المجالات، خاليا من هذين المفهومين (أو أحدهما)، أو من المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط والتعالق وما شاكلهم[5]»، إذ لا بد لكلّ نصّ من أن يتوفر فيه شرطا؛ الاتساق والانسجام كي يمكن وصفه بالنصية، بل إنّ مقاربةَ هذين الشرطين هي الخطوة الأساس في تحليل النص.

فبماذا تتحقق النصية؟ وما معنى الاتساق ؟ وما هي أدواته وآلياته ؟

1. مسألتان مهمتان:

وهنا نقطتان نودّ الوقوف عندهما محاولة منّا لتجليتهما وحصر تشعب الأقوال فيهما قبل البدء بتعريف الاتساق:

1.1. الأولى مسألة أسبقية المصطلحين: الانسجام أو الاتساق:

إذا كان مصطلحا الانسجام والاتساق يسيران معا في الدراسات اللّسانية المعاصرة، فإنّ الجانب التاريخي فيهما يضعنا أمام حقيقة مفادها أنّ الكلام عن الانسجام سابق، بحيث لم يكن مصطلح الاتساق موجودا لا مفهوما ولا مجالا للدراسة إلا بعد نهاية الستينات وبداية السبعينات، يشير jean LUC NESPLOUS (Tendances actuelles en linguistique moderne, paris) في هذا السّياق إلى أنّ عمل R. HARWEG الموسوم بـ: pronominal und textconstitution 1968 وعمل I. BELLERT الموسوم بـ: on a condition of the cohérence of text 1970 كانا منصبين على مسألة الانسجام؛ وهما يتفقان في التفريق بين نوعين أساسيين من دعائم الاستمرارية الدلالية في النص؛ أحدهما يمس الجانب اللغوي وثانيهما يمس الجانب التداولي، إلاّ أنّهما كانا يدرسانهما تحت تسمية واحدة هي الانسجام، وعادة ما كان يعبر عن الأول بالثاني، ولميشال آدم لفتة هامة في هذا التداخل في مقاله 1977. ordre du texte , ordre du discours , pratiques , METZ.

ومع مرور الزمن وتطور البحث في المجال النّصي أدّى إلى تخصص تدريجي لدراسة هذين النوعين من العلاقات، ويعتبر مؤلف HASAN و HALLIDAY الموسوم (cohesion in English) نقطة فصل بين الظاهرتين أي الانسجام والاتساق، حيث وضع هذا الإسهام الأسس النظرية والمنهجية لما يعرف اليوم بتحليل الاتساق، كما أشار سلاكتا (SLAKTA) في مقاله المهم L'ordre du texte, ELA 19 paris إلى ضرورة التفريق بين المفهومين حيث يقول: «وفي هذا الصّدد فإنه لا يمكن أن نأخذ الاتساق مرادفا للانسجام فالاتساق يتحدد لسانيا على مستوى الدالية والنص، أمّا الانسجام فيتحدد على مستوى المدلولية والخطاب باعتباره انعكاسا متباينا للظروف المادية المحددة تاريخيا التي تنتج الخطاب» [6].

2.1. الثانية مسألة الخلط بين المصطلحين واختلاف الترجمة (عند الباحثين العرب):

الاتساق: مصطلح مترجم من الكلمة الإنجليزية Cohesion وقد وقع في ترجمته بعض من الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية؛ حيث ترجمه محمد خطابي إلى الاتساق [7]، في حين ترجمه تمام حسان إلى السّبك [8] وترجمه إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد إلى التضام [9]، أما عمر عطاري فترجمه إلى الترابط [10] وترجمه عبد القادر قنيني إلى الالتئام [11]، وبسبب ذلك ينقله أحمد عفيفي مترجما إلى ثلاثة مصطلحات معطوفة بـ(أو) التنويع: السّبك أو الترابط أو التضام.

وإلى هنا قد يكون الأمر مقبولا في هذه الفوضى المصطلحية، ولكن أحمد عفيفي ينقل مصطلحا آخر هو Cohérence إلى الحبك أو التماسك أو الانسجام أو الاتساق [12]، وهنا تتداخل ترجمة المصطلحين، بل إنّ المصطلح الأوّل الذي اشتهر بالتماسك أو الاتساق قد انتقلت ترجمته إلى المصطلح الثّاني الذي لم يخل هو أيضا من الاضطرابات؛ حيث ترجمه عبد القادر قنيني إلى

الاتساق، وترجمه تمام حسان إلى الالتحام، وإلهام أبو غزالة ورفيقها يترجمانه إلى التقارن، ومحمد خطابي إلى الانسجام[13]، وهنا تتزايد الفوضى المصطلحية، ويظهر أنّ الاضطراب في ترجمة المصطلحات آخذ في الاتساع، إذ يترجم بعضهم المصطلح الأوّل إلى الترابط، والمصطلح الثّاني إلى التناغم[14] وترجم صبحي إبراهيم الفقي المصطلح الأوّل إلى التماسك الشكلي والثّاني إلى التماسك الدلالي أو المعنوي[15]، وسبقه إلى ذلك كلّ من محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي في ترجمتهما لكتاب تحليل الخطاب (براون ويول)، كما نجد سعد مصلوح قد ترجم المصطلح الأوّل إلى السّبك والثّاني إلى الحبك[16].

ويبدو من استعمال المصطلحين في الدراسات النصية غلبة الاتساق في Cohésion والانسجام في Cohérence.

2. الاتّساق (Cohésion): يقول أحمد عفيفي: «إنّ المتأمّل للّغة يراها صورة من نظام متشابك، تتوقف صلاحية هذا النظام على تكافل أركانه للوصول إلى كيفية تفيد المتلقي حيث تتكافل الأنظمة الخارجية للوصول إلى صورة ترتبط فيها المفاهيم وتتعالق الأجزاء وتتواصل الدلالة في تفاعل ومنطقية، ولهذا ينبغي توضيح صور هذا الترابط (الاتساق) الذي يصل بالمتلقي إلى هدفه[17]».

إنّ الاتساق كما حدده هاليداي هو«مجموعة الوسائل اللّغوية التي تضمن الرّبط بين العناصر الداخلية والخارجية للجمل، والتي تسمح لملفوظ مكتوب أو منطوق أن يتجلى على شكل نصّ...، وهي الضمير العائد الروابط، الاقتضاءات تتابع أزمنة الأفعال[18]»، لأنّ وصف التنظيم الذاتي الداخلي للنّصوص، من خلال الحديث عن بعض العلاقات التي تسودها، مثل علاقة الإحالة والاستبدال التكرار والحذف والترادف والعطف والتفريع والترتيب، وذكر النتيجة بعد السبب والجزء بعد الكل أو العكس، كلّها مما يقع في دائرة الترابط والاتساق النصّي، على مستوى العلاقات الشكلية والدّلالية التي تعطي لنّص خاصية النّسيج و«يبدو لنا الاتساق ناتجا عن العلاقات الموجودة بين الأشكال النّصية

أمّا المعطيات غير اللّسانية (مقامية تداولية) فلا تدخل إطلاقا في تحديده [19]»
يقول هاليداي: «إنّنا حين ندرس الاتساق فإنّنا نبحث عن الوسائل اللّغوية التي يستطيع النّص بواسطتها أن يعمل كوحدة معنوية [20]»، ليصبح بعد ذلك محتفظا بكينونته واستمراريته وقد جعله كريستا ل [21] متصلا بالبنية السطحية الشكلية للنّص.

هذه العلاقات النحوية والمعجمية بين العناصر المختلفة في النّص تكون بين جمل مختلفة أو أجزاء النّص ويمكن أن تسمى تبعية ذات طبيعة أفقية خطية [22] تظهر على مستوى تتابع الكلمات والجمل، خاصة حين يستحيل تأويل عنصر دون الاعتماد على العنصر الذي يحيل إليه*، يقول هاليداي ورقية حسن: «يتعلق الاتساق بارتباط تأويل عنصر ما بعنصر آخر [23]» فالاتساق يعبر عن العلائق المنطقية في ترابط الجمل تركيبيا ودلاليا في مركب لغوي معين، وقد بين لنا ديكرو ذلك أيضا بقوله: «يبرز الاتساق في تلك المواضع التي يتعلق فيها تأويل عنصر من العناصر بتأويل العنصر الآخر، يفترض كلّ منهما الآخر مسبقا، إذ لا يمكن أن يحلّ الثاني إلا بالرجوع إلى الأول، وعندما يحدث هذا تتأسس علاقة الاتساق [24]» فيترابط النّص من أوّله إلى آخره ممّا يسمح بتدرج الموضوع وتقدمه، إلاّ أنّ الاتساق لا يركز على ماذا يعني النّص بقدر ما يركز على كيفية تركيب النّص باعتباره صرحا دلاليا، وهذا لا يعني أن الاتساق يحدث على المستوى الدلالي فقط، بل يكون أيضا على مستويات أخرى كالنحو والمعجم (المفردات) ومن ثم يمكننا أن نتكلم عن الاتساق المعجمي والاتساق النحوي، لأنّ الاتساق «يشير إلى مجموعة من الإمكانات التي تربط بين شيئين وبما أن هذا الربط يتم من خلال علاقات معنوية (...) فإنّ ما يهمنا هو العلاقات المعنوية التي تشتغل بهذه الطريقة، أي الوسائل الموضوعة بهدف خلق النّص [25]».

وفيما يلي محاولة منّا للوقوف على بعضٍ من الوسائل الاتساقية، - إذ لا بد من وجود معالم معينة تعتبر سمة في النّصوص ولا توجد في غيرها - للتعرف

عليها بإيجاز غير مخل، نقدم من خلالها بعضا من الأمثلة الدالة على الوسيلة من النص القرآني ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

1.2.2 الاتساق النحوي (Cohésion Grammaticale): هي ظواهر اتساقية نحوية تستند في استعمالها على أقسام منتهية، كما هو الحال بالنسبة للإحالة والاستبدال والوصل، أو على البنية التركيبية كما هو الحال بالنسبة للاستبدال والحذف؛ ويرى هاليداي ورقية حسن أنّ أمرها يسهل مقارنة بالاتساق المعجمي، ففي حالة الاتساق النحوي تكون العملية واضحة نسبيا، إذ تفترض الإحالة مثلا أو الاستبدال أو الوصل بعض العناصر المماثلة.

2.2.2 الإحالة (Référence):

1.2.2.2 تعريف الإحالة: هي إحدى العلاقات التي يُعبر عنها بوسائل نحوية، إذ توجد في كلّ لغة عناصر تملك خاصّية الإحالة، وهي لا تكتفي بذاتها في تأويلها دلاليا بل تحيل على شيء آخر من أجل تأويلها، أي تدلّ على ضرورة استعادة المعلومة من مكان آخر، وهذه بعض تعريفات اللسانيين للإحالة:

يقول لاينز في سياق حديثه عن المفهوم التقليدي للإحالة بأنّ «العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل إلى المسميات[26]» ولولاها لكنّا ملزمين بإحضار ما نتحدث عنه حتى يمكننا التواصل لكن والحال هذه فإن ّالمتحدث بطريق الإحالة يتحدث عن أشياء هي في ذهن السّامع، وما على السّامع إلاّ أن يُعمل فكره ليفهم المعنى، وما عليه إلاّ أن يُشغل ذاكرته ليحدث التواصل.

وتذهب مريم فرانسيس إلى أنّ: «ما ندعوه إحالة يُعبر عنه بشكل عام في اللغة الفرنسية référence وما يوازي مرجعا في العربية[27]».

يقول جون دوبوا (Jean Dubois) «الإحالة هي خاصية يملكها الدليل اللغوي للإحالة على شيء موجود في العالم غير اللغوي، سواء أكان حقيقيا أم خياليا[28]».

وعرّف آن روبول (Anne Reboul) وجاك موشلر (Jaques Moeschler) الإحالة بقولهما: «هي فعل لغوي يستعمل فيه المتكلم تعبيرا محيلا قصد الإشارة إلى شيء ما في العالم [29]».

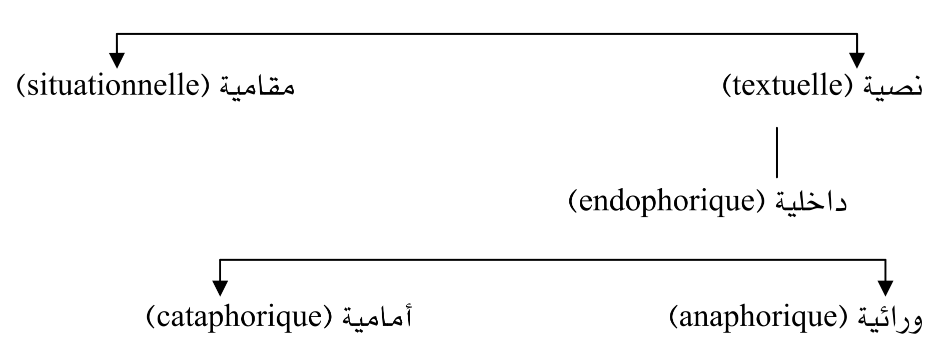
ويحدد آن روبول وجاك موشلر شرطاً لنجاح هذا الفعل اللغوي ويتمثل في «تطابق الشيء الذي يتصوره المخاطَب كمحيل عليه في التعبير الإحالي مع ما يقصده المتكلم باستعماله لهذا التعبير[30]»، فهي إذن العلاقة القائمة بين الأسماء والأشياء وهذا ما يعبّر عنه بوجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحيل عليه، وفي الوقت نفسه يعتبران أن الإحالة ظاهرة مزدوجة فهي لغوية وتداولية* في آن واحد.

يتبين لنا من خلال التعريفات السابقة أنّ الإحالة عبارة عن ألفاظ ترد في نص لغوي لا تفهم فهمًا دقيقا إلاّ بواسطة علاقتها بألفاظ أخرى داخل النّص أو بعلاقتها بالواقع الخارجي من سياق خاص أو معارف عامة ويشترط فيها وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصرين، وتتمثل في الإنجليزية في الضمائر** (Personal) وأسماء الإشارة*** (Demonstrative) وأدوات المقارنة**** (Comparaison) غير أن الإحالة في اللسانيات الغربية تتجاذبها نظريات حديثة ووجهات نظر عديدة.

2.2.2.2 أقسام الإحالة:

تقسم الإحالة إلى أنواع كثيرة انطلاقا من الزوايا العديدة التي يُنظَر منها وهذه التقسيمات هي:

الإحالةُ من حيثُ العلاقةُ بالنصِ، والإحالةُ من حيثُ سبق المرجعِ، والإحالةُ من حيثُ المدى ويمكننا أن نستعين بهذا المخطط لتبسيط الفهم أكثر:



I. فأمّا الإحالة من حيث العلاقة بالنّص فتنقسم إلى نوعين: الأولى إحالة داخل النّص ويطلق عليها أيضا إحالة داخل اللّغة، والثانية إحالة خارج النّص ويطلق عليها إحالة خارج اللّغة.

✓ **إحالة خارجية (النّص)*** (référence exophorique):

هي «التي يحيل فيها المتحدث إلى شيء غير موجود في النّص، ويمكن تسميتها بالإحالة لغير مذكور أو لمرجع متصيد مثل: الإتيان بالضمير للدلالة على أمر ما غير مذكور [31]».

ويمكن تفسيرها أو فهم مرجعها من خلال سياق الموقف؛ يقول روبرت دي بوجراند: «تعتمد الإحالة لغير مذكور في الأساس على سياق الموقف CONTEX شأنها في ذلك شأن الإحالة لمذكور سابق ANAPHORA والإحالة لمتأخر CATPHORA [32]»، ويرى هاليداي ورقية حسن أنّ هذه الإحالة تساعد في تكوين النّص، لكونها تربط اللّغة بسياق الموقف بحيث تكتمل بعض الجوانب الناقصة في نصية النّص التي لا يمكن فهمها إلا بواسطة التداول [33].

✓ **إحالة داخلية (النّص)** (référence endophorique) :

هي «إحالة على العناصر اللغوية الواردة في الملفوظ [34]» ولهذه الإحالة أنواع مختلفة، ينظر إليها من زوايا عدّيدة، فإذا نظرنا إلى السّابق أهو العنصر المحال أم العنصر المحال عليه قسمت إلى إحالة سابقة وإحالة لاحقة «لأنّ العلاقات

الداخلية بدورها تنقسم إلى قسمين بعضها يلتفت إلى الوراء أي إلى ما سبق في النّص وبعضها يلتفت إلى الأمام أي إلى ما يلحق في النّص [35]».

II. وأمّا من حيث سبق المرجع: فهي نوعان: **إحالة على السّابق أو إحالة بالعودة**

✓ **إحالة ورائية (référence anaphorique) /أي على السابق:**

يكون الكلام فيها متصلا بجزء من الخطاب قد مرّ سابقا أي أنّ العنصر الإحالي يشير إلى ما تقدمه من العناصر اللّغوية المختلفة، فالإحالة على السابقِ «تعود على مفسرٍ سبق التلفظ به[36]» وتسمى أيضا: الإحالةُ إلى الوراءِ[37]، وهي من أكثر الإحالات شيوعا في النّص اللّغوي.

✓ **إحالة أمامية (Référence cataphorique) /أي على اللاحق:**

وتسمى الإحالة إلى الأمام وهي عناصر لغوية تشير إلى معلومات تالية في داخل سياق القول، وذلك حينما يحيل فيها المخاطب مستمعه إلى مقصود يُذْكَر بعد ذكرِ الضمير.

III. وأمّا من حيث المدى: فأحمد عفيفي ذكر تعريف جون لاينز وقسّم الإحالة الداخلية باعتبار المدى (المسافة) الذي يفصل بين العنصر المحيل والعنصر المحيل عليه إلى قسمين:

الإحالة ذات المدى القريب **(إحالة قريبة)**: وتكون على مستوى الجملة الواحدة حيث تجمع بين المحيل والمحيل عليه، والإحالة ذات المدى البعيد **(إحالة بعيدة)**: وتكون بين الجمل المتصلة أو الجمل المتباعدة في فضاء النّص.

3.1.1.2.2 الأمثلة عن الإحالة:

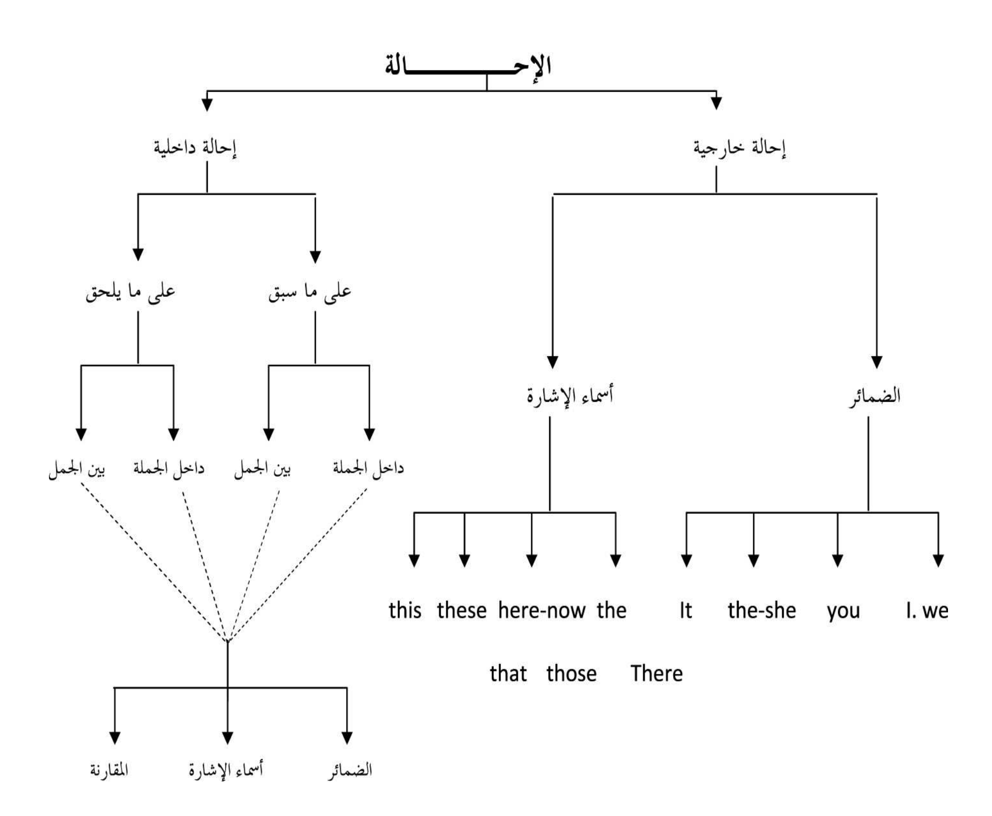
وهذه بعض الأمثلة على الإحالة من القرآن الكريم:

قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا

تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ * لَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) [السجدة من4 إلى 9] المتأمل في هذا النّص القرآني يجد أنّ لفظ الجلالة (اللّه) في أوّل الآية هو المحال عليه، ارتبط أول النّص بمجموعة من الإحالات المتنوعة أوّلها وأكثرها الضمائر - ظاهرة أو مستترة - كما في (خلق/ استوى/ دونه/ يدبر/ أحسن/ خلقه/ بدأ/ جعل/ سواه/ نفخ)، ثانيها: اسم الإشارة في (ذلك عالم الغيب) إشارة إلى اللّه، ومن هنا اشتملت الآية على قدر كبير من التماسك عن طريق هذه الإحالات.

وقال تعالى: (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) [الحاقة من 38 إلى 52]، إنّ قارئ هذه الآيات يستطيع القول بأنّ تحديد المحال إليه في الضمائر الواردة يحتاج إلى النّظر خارج النّص القرآني نفسه والتحديد يكون من المقام أو السّياق أو المعارف السّابقة كما يلي: إنّه أي القرآن الكريم –وما هو أي القرآن نفسه- ولو تَقوّل أي محمد صلى اللّه عليه وسلم، على رأي بعض المفسرين فما منكم، أي الذين يعرضون [38].

ويمكن في نهاية هذا القسم المتعلق بالإحالة أن نقدم شكلا بيانيا لمختلف العناصر التي تحقق هذا الإجراء المحقق بدوره للاتساق، عند هاليداي ورقية حسن، نقلا عن مفتاح بن عروس [39].



ملاحظات

- تكون إحالة I وyou نصية في سياق الخطاب المباشر والغالب فيها الإحالة الخارجية.
- يغلب على ضمير الغائب الإحالة الداخلية وتتميز فيه الوحدة it بقدرتها على حوصلة سياقات. أو مقاطع كبيرة من النص.
- تلتقي أسماء الإشارة .... مع it في هذه الإحالة الداخلية والموسعة.
- كل إحالة داخلية تتم داخل الجملة الواحدة لا تلعب دورا في الاتساق

2.1.2.2 الاستبدال (substitution):

1.2.1.2.2 تعريف الاستبدال: الاستبدال «تعويض عنصر في النّص بعنصر آخر [40]»، وهو عملية معجمية نحوية يظهر على المستوى الشكلي للجمل داخل النّص يقول هاليداي ورقية حسن: «أمّا الاستبدال فإنّه علاقة داخل النّص ويستعمل عوض تكرار بعض الوحدات الخاصّة [41]»، حينما يستبدل المتحدث لفظا بلفظ آخر له المدلول نفسه، وعادة ما يكون العنصر المستبدل سابقا على العنصر المستبدل منه، وهو ركيزة مهمّة في بناء أيّ نصّ على المستوى اللساني إذ يؤدي إلى الاستمرارية، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: استبدال اسمي، وفعلي وقولي، وهنا تفصيل ذلك:

2.2.1.2.2 أنواع الاستبدال:

I. **استبدال اسمي**(substitution nominale): ويتم باستعمال عناصر لغوية اسمية مثل: آخر/ آخرين نفس...(**فأسي** جدّ، مثلومة يجب أن أقتني **أخرى**).

II. **استبدال فعلي**(substitution verbale): ويتم باستعمال الفعل (هل تعتقد أن مصطفى لا **يصارحك بالحقيقة** ؟ اعتقد أن كل شخص **يفعل**).

III. **استبدال جملي** (clausal substitution): فهذا الأخير يأتي على كلّ الجملة أي كلّ عناصر الجملة بما في ذلك الفاعل يقول هاليداي ورقية حسن: «يوجد نوع آخر من الاستبدال حيث لا يكون المفترض من العناصر هو عنصر من الجملة ولكن الجملة كلّها [42]»، ويستعمل فيه أدوات مثل: كذلك، أيضا لا، نعم، أجل حيث تعوض تلك المفردات عن جملة أو جمل كاملة، ويلفت هاليداي ورقية حسن الانتباه إلى أنّ هذا النوع من الاستبدال يتمّ في ثلاثة أنواع من الجمل: الخطاب المنقول*، الجمل الشرطية**، والجمل الموجهة***.

3.2.1.2.2 الأمثلة على الاستبدال: وهذه أمثلة من القرآن للتمثيل على الاستبدال قال تعالى: (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آَثَارِهِمَا قَصَصًا)[الكهف 64] فكلمة (ذلك) جاءت بدلا من الآية السابقة عليها مباشرة (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) [الكهف 63] وكقولهم (فريد **حضر الدرس باكرا**، وعبد الله **كذلك**).

ومن نماذج الاستبدال في القرآن الكريم قوله تعالى: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آَيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) [آل عمران 13] فقد تم استبدال كلمة (أخرى) بكلمة (فئة) أي فئة.

3.1.2.2 **الحذف** ellipsis:

1.3.1.2.2. تعريف الحذف: الحذف علاقة داخل النّص[43]، وهو استبدال بالصفر (العنصر المبدل به هو الصفر)، أي إنّ الحذف ظاهرة لغوية مرتبطة بسلسلة التراكيب المكونة للنّص فقط التي لا تترك أثرا، إذ لا يحلّ محل المحذوف أيّ شيء، ومن ثم نجد في الجملة الثانية فراغا بنويا يهتدي القارئ أو السّامع إلى ملئه اعتمادا على ما ورد في الجملة أو النص السّابق، وذلك لا يتم إلاّ إذا كان الباقي في النّص بعد الحذف مغنيا في الدلالة كافيا في أداء المعنى لوجود قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدلّ عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره** وهذا ما جعل روبرت دي بوجراند يقول عن الحذف إنّه «استبعاد العبارات السطحية لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسع أو أن يعدل بواسطة العبارات الناقصة[44]»، فيعطي للقارئ مهلة يستطيع من خلالها أن يكتشف العنصر المقصود، لأنّ هذه الجمل المحذوفة تصنع ربطا وتماسكا بين أجزاء النّص، فهي مرتبطة بالسّابقة عليها وما بعدها يعد إجابة أو استكمالا أو تفسيرا مما يؤدي إلى الرّبط.

ويعتمد الحذف في أدائه للتماسك على عنصرين مهمين من عناصر التماسك النّصي وهما: التكرار والإحالة ويظهر هذان العنصران عندما نحاول إظهار النّص كاملا، فإعادة المحذوف ينتج تكرارا بين غير المحذوف وبين ما أعدنا، كما أن الدّليل الذي سبق الحديث عنه يمثل نوعا من الإحالة بين الجمل أي داخل النّص، ويساعد منشئ النّص على الاختصار، وعدم الإطالة، بذكر معلومات فائضة، ومحاذرة شعور القارئ أو المستمع بالملل وذلك حينما يَعْدِل المتكلم عن ذكر عنصر أو أكثر من الكلام ويمكن فهمها من السّياق وتتنوع المحذوفات بين حذف للأسماء وحذف للأفعال وحذف للجمل.

2.3.1.2.2 أنواع الحذف:

الحذف الاسمي (ellipsis nominale): حذف اسم داخل المركب الاسمي أيّ قميص ستشتري ؟ هذا هو الأفضل أي هذا القميص.

الحذف الفعلي (ellipsis verbale): المحذوف يكون عنصرا فعليا مثل: ماذا كنت تنوي ؟ السّفر الذي يمتعنا برؤية مشاهد جديدة والتقدير: أنوي السّفر.

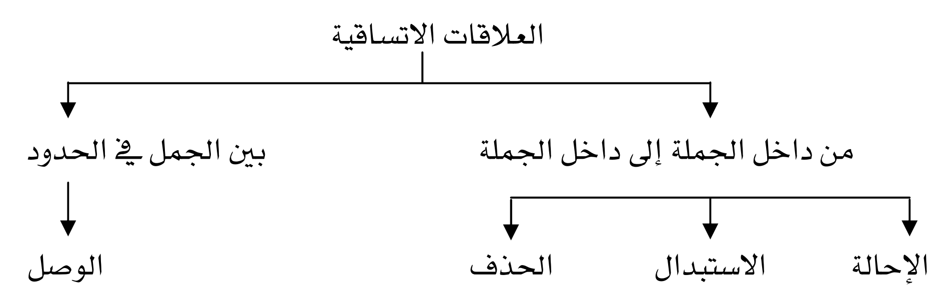
الحذف الجملي (ellipsis clausal): كم ثمن هذا القميص ؟ خمسة جنيهات.

«يتضح من خلال الأمثلة السّابقة أنّ الحذف يقوم بدور معين في اتساق النّص، وإن كان هذا الدور مختلفا من حيث الكيف عن الاتساق بالاستبدال أو الإحالة، وهو عدم وجود أثر عن المحذوف فيما يلحق من النّص [5] [4]».

4.1.2.2 الوصل (conjunction):

1.4.1.2.2 تعريف الوصل: تتمّ عملية الوصل، في تحديد ما يربط الجمل في الحدود، لا من داخلها إلى داخلها، وتختلف عن الإحالة والاستبدال والحذف من حيث إنّه لا يحتوي على إشارة موجهة نحو البحث عن المفترض فيما تقدم أو ما سيلحق، كما هو شأن العلاقات الاتساقية السّابقة، ولكنّها تحتوي هي

ذاتها على معنى وهذا المعنى هو الذي يحدد طبيعة العلاقة، لأنّه «تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السّابق بشكل منظم[46]»، من حيث إنّه علاقة شكلية (relation formelle) تحصر عادة في العطف ويقابل غياب هذه العلاقة الشكلية علاقة دلالية تعوض هذا الغياب وهي التي يجسدها مفهوم **الفصل**، ويمكن تمثيل ذلك كما يلي:



ولكي تدرك كوحدة متماسكة أو مجموعة من الجمل أو المتواليات المتعاقبة (خطي Linéaire) تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النّص تفرض كلّ منها طبيعة العلاقة بين الجمل، ولمّا كانت وسائل الربط في إطار الوصل متنوعة فقد فرّع الباحثان - هاليداي ورقية حسن- هذا المظهر إلى إضافي وعكسي وسببي وزمني.

2.4.1.2.2 طرق الربط عن طريق الوصل:

✓ يتمّ **الربط بالوصل الإضافي** (additive relation) بواسطة الأداتين "و"و"أو" وتندرج ضمن المقولة العامّة للوصل الإضافي علاقات أخر، مثل التماثل الدلالي المتحقق في الربط بين الجمل بواسطة تعبير من نوع: "بالمثل" وعلاقة الشرح، وتتم بتعابير: "مثل: أعني، بتعبير آخر"، وعلاقة التمثيل، المتجسدة في تعابير: "مثلا/ نحو...".

مثال: «أدلى موكلي بأنّه لا يعرف هذا الشاهد، بالإضافة **(إلى ذلك)** هو ينفي أن يكون قد رآه أو كلّمه».

✓ **علاقة التقابل** (relation adversative) الذي يعني "على عكس ما هو متوقع" مثال: "هي فشلت ومع ذلك ستبذل جهدها".

✓ أما **الوصل السببي** (relation causale) فيمكّننا من إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر وتندرج ضمنه علاقات خاصة كالنتيجة والسبب والشرط، وهي علاقات منطقية ذات علاقة وثيقة بعلاقة عامة هي السبب والنتيجة.

مثال: «أنت لم تغادر؛ أنت هنا؟ لأنّ لدي شيئًا أقوله لك».

✓ ويجسد **الوصل الزمني** (relation temporelle) علاقة بين أطروحتي جملتين متتابعتين زمنيا: "قبل ذلك/ بعد ذلك/ ثم/ إثر ذلك...".

مثال: «خلال اليوم كلّه تسلق مرحلة الجبل الجانبي من دون توقف، ثم حينما حلّ الظلام، جلس ليستريح».

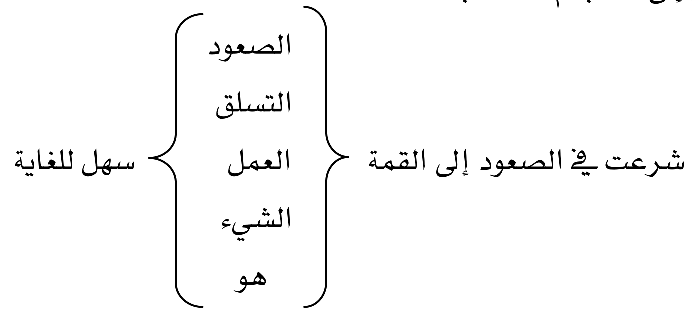
فإذا كانت وظيفة هذه الأنواع المختلفة من الوصل متماثلة (وظيفة الربط بين المتواليات المشكلة للنّص) فإنّ معانيها داخل النّص مختلفة، فقد يعني الوصل تارة معلومات سابقة أو معلومات مغايرة للسّابقة أو معلومات (نتيجة) مترتبة عن (السبب) إلى غير ذلك من المعاني، ولأنّ وظيفة الوصل هي تقوية الأسباب بين الجمل وجعل المتواليات مترابطة متماسكة فإنّه لا محالة يعبر عن علاقة اتساقية أساسية في النّص.

2.2.2 الاتساق المعجمي (Cohésion lexicale): إنّ الاتساق المعجمي يتجاوز حدود التعامل مع مجموعة محدودة من العناصر مثل الوحدات اللّغوية التي تتسم بالانتهاء وتشكل قوائم منتهية: كالضمائر وأسماء الإشارة والموصولات وأسماء الاستفهام وحروف الرّبط متجاوزا ذلك إلى كلّ المعجم الذي يكون قابلا للاستعمال؛ فهو يتميز بخاصية الانفتاح والتنوع والاتّساع ولا يتحكم فيه إلا ما يختاره المتكلم.

أنواع الاتساق المعجمي: للاتساق المعجمي طريقتان: الأولى **التكرار (Réitération)** والثانية **التلازم (collocation)**.

1.2.2.2 التكرار (Réitération): يتم التكرار عن طريق إعادة عنصر معجمي[*]، أو مرادف له أو (شبه الترادف)[**]، أو اسم الشامل[**] [47] [*] (Hyperonyme) أو عنصر مطلق أو اسم عام[48] **(general noun)** أي اعتمادا على ما يوفره معجم اللغة من إمكانات لترابط الوحدات المعجمية فيما بينها كالترادف والاحتواء والعموم.

التمثيل للتكرار ونكتفي بما أورده محمد خطابي في كتابه لسانيات مدخل إلى انسجام الخطاب.



«فالكلمة (الصعود) تعتبر إعادة لنفس الكلمة الواردة في الجملة الأولى و(التسلق) مرادف (للصعود) و(العمل) اسم مطلق أو اسم عام يمكن أن يدرج فيه الصعود أو مسألة الصعود، و(الشيء) كلمة عامة تندرج ضمنها أيضا (الصعود)[49]».

2.2.2.2 التلازم (Collocation): هو وجود توجه بعض الكلمات نحو التجاور والتصاحب مع كلمات أخر في النّصوص، فذكر أحدهما يستدعي ذكر الآخر لوجود علاقة بين اللفظين، ومن ثم لا يأتيان إلا معا، ويختلف عن التكرار من حيث إنّه لا يتأسس على الاتساق المعجمي، ولكن على انتماء الوحدات المعجمية إلى حقول دلالية أو فضاءات دلالية مشتركة فهو بهذا ذو طابع تآلفي، ويتمّ ترابط هذه الوحدات بعلاقات دلالية مختلفة، ولا يرتبط التلازم

بالطبيعة الدقيقة للعلاقة بين الوحدات، ولكن بمسألة انتماء الوحدات المعجمية إلى الفضاء الخطابي نفسه، ويمكن أن تتحقق بين فعل واسم أو بين فعلين أو بين اسمين، لأنّ تعاليق هذه الوحدات متأت من انتمائها إلى الفضاء الخطابي نفسه فقط، ونشير إلى البعض منها:

- ✓ **التضاد بجميع درجاته: سواء أكان بين الكلمتين تضاد كامل مثل (ولد/ بنت)، أم كان بينهما تخالف أم تناقض مثل** (فارغ)، (ممتلئ) ـ (جاف) (مبلل).
- ✓ **التكامل:** (اجلس)، (قم) ـ (بنت)، (ولد).
- ✓ **العلاقات الاتفاقية:** (طاعة)، (أمر)ـ (بيع)، (شراء) (صيف) (خريف).
- ✓ **الانتماء إلى المجموعة نفسها أو سلسلة مرتبة:**(السبت)، (الخميس) (الثلاثاء) ـ (الجنوب)، (الشمال) (الشرق)، (الغرب).
- ✓ **الانتماء إلى نفس القسم (الأدوات مثلا):** (طاولة)، (كرسي).
- ✓ **العلاقة كلّ - جزء:** مثل (البيت/النافذة/الباب)، (مكبح/ سيارة) ـ (أنف/ ذقن/ فم).

هذه أدوات الاتساق التي تعتمدها النّصوص في تماسكها جملة جملة مقطعا مقطعا، نصا نصا، وهي وسائل لها صلة مباشرة بالنّص وعالمه الداخلي ما دام النّص متسقا في ذاته.

الهوامش:

1- Jack Richards, PLAT JOHN AND WEBER HEIDI Longman Dictionary of Appied Linguistiscs.Longman.London (1987). P292.

2 -David Crystal The Cambridge Encyclopedia of language. Cambridge UNIVERSITY PRESS. Cambridge .(1987) P116/432.

3 -Nils Erik Enkvist Text Linguistics for the Applier An orientation.AN ORIENTATION.LONDON. (1987) p 26.

4 -Ibid p 25/26.

5- محمد خطابي لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ط1، 1991م، ص 5.

6- نقلا عن مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، جامعة الجزائر 2008/2007م، ص ص15/14، بتصرف.

7- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص ص 6/5.

8- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1 1998م، ص 103.

9- إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص (تطبيقات لنظرية روبرت ديبو جراند وولفانج دريسلر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1999م، ص 11.

10- باسل حاتم وأيان ميسون، الخطاب والمترجم، تر عمر فايز عطاري، جامعة الملك سعود الرياض، ط1، 1998م، ص 332.

11- فان دايك، النص والسياق، (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، بيروت 2000م، ص 197.

12- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1 2001م، ص 90.

13- أشرف عبد البديع عبد الكريم، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن، دار فرحة المنيا القاهرة، مصر: 2003م، ص 108.

14- جورج يول، معرفة اللغة، تر محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، ط1، 2000م، ص ص 145/ 146.

15- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، بين النظرية والتطبيق، (دراسة تطبيقية على السور المكية)، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م، ج1، ص 96.

16- سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري (دراسة في قصيدة جاهلية)، فصول، المجلد العاشر، العدد الأول والثاني، يوليو – أغسطس 1991م/ أبريل يونيو 1999م، ص 234.

17- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص ص 102/ 103.

18- P. Charaudeau, D. Maingueneau, D. (sous la dir), *Dictionnaire d'analyse du discours*, Editions du Seuil, Paris. (2002) p. 99

19- Carter Thomas Shirley. La Cohérence textuelle pour une nouvelle pédagogie de l'écrit. L'harmattan.paris . 2000. P 37.

20- HALLIDAY . M.A.K .Cohesion In English. London . Longman 1983 .p28.

21 – David Crystal The Cambridge Encyclopedia of language. Cambridge University press Cambridge P119/417.

22- Dominique Maingueneau. Les clés de l'analyse du discours. Ed Seuil. 1996.p16.

* يشير فان دايك إلى أنّ الاتساق "خاصية سيمانطقية (دلالية) للخطاب، قائمة على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى"، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 137.

23 - HALLIDAY . M.A.K Cohesion In English. P5.

24– إزوالد ديكرو، جان ماري ستشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، ط2، 2007م، ص 540.

25- HALLIDAY . M.A.K Cohesion In English. P10.

26–ج براون وج يول، تحليل الخطاب، تر محمد لطفي الزليطي، ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود 1997م ص 36.

27 – مريم فرنسيس، في بناء النص ودلالته (محاور الإحالة الكلامية)، وزارة الثقافة، سوريا 1998م، ج1، ص 13، ينظر :محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية العربية، سلسلة اللسانيات، جامعة منونة تونس، و المؤسسة العربية للتوزيع بيروت، ط1، 2001م، ج1، ص125.

28 –Jean Dubois. Dictionnaire de linguistique. P 404.

29 - Anne Reboul et Jaques Moeschler. Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique. P 362.

30 -Ibid. P 362.

* وهذا ما تشير إليه نظرية النحو الوظيفي في تعريفها للإحالة بأنها عملية ذات طبيعة تداولية تقوم بين المتكلم والمخاطب في موقف تواصلي معين يحيل فيه المتكلم المخاطب على ذات معيّنة أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ص 134.

** تمس إحالة الضمائر ثلاثة أنواع من الوحدات هي: ضمائر الشخص، ومحددات الملكية (les determinants possessifs) وضمائر الملكية (les pronoms possessifs)، وقد تكون الإحالة في الضمائر خارجية وقد تكون داخلية.

*** هناك عدة إمكانات لتصنيفها: إما حسب الظرفية الزمان (الآن، غدا)، والمكان (هنا، هناك) أو حسب الحياد (The)، أو الانتقاء (هذا هؤلاء)، أو حسب البعد (ذاك تلك)، والقرب (هذه هذا).

**** تختلف المقارنة [comparaison] في خاصية الإحالة الضميرية والإحالة الإشارية من حيث إنها لا تعمل انطلاقا من تحديد العنصر المحيل والعنصر الذي يحيل عليه ولكن انطلاقا من مقارنة صريحة مع العنصر المحيـــل عليه، وقد تكون إحالتها إلى عنصر سابق أو إلى عنصر لاحق.

* ومن أبرز العناصر الإحالية التي تشير إلى خارج النص: ضمير المتكلم، وضمير المخاطب والاسم العلم، حيث يعود ضمير المتكلم في الغالب إلى المرسل أما ضمير المخاطب، فيعود إلى المستقبل، وقد يعود الاسم العلم إلى المخاطب أو إلى مرجع آخر يفهم من السياق، أما العناصر الإشارية فقد تشير إلى المقام وقد تشير إلى داخل النص.

31- دي بوجراند روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة الطبعة الأولى، 1998م. ص301.

32- المرجع نفسه، ص 332.

33- يقول ج براون وج يول في كتاب تحليل الخطاب"ولهذا ففي تحليل الخطاب ينظر للإحالة على كونها عملا يقوم به المتكلم/الكاتب"، ص 36.

34- الأزهر الزناد، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993م ص118. ينظر: فتحي رزق الخوالدة، تحليل الخطاب الشعري، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط1، 2006م، ص58 .

35- ج ب براون و ج يول، تحليل الخطاب، ص230.

36- الأزهر الزناد ، نسيج النص، ص118 .

37- ج ب براون و ج بول، تحليل الخطاب، ص230 .

38- ينظر إحالات هذه الضمائر عند الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، ج 29، ص 52، وعند ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المكتبة القيمة، القاهرة، 1993م، ج4، ص 418/417.

39 – الاتساق والانسجام في القرآن جامعة الجزائر، 2008/2007م، ص229.

40- HALLIDAY . M.A.K Cohesion in English. P 88.

41 -Ibid. P 89 / 90 نقلا عن مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، ص 230.

42- Ibid.P 130 نقلا عن مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، ص237.

* مثال ذلك قوله: "قال الملك بصوت منخفض: «التجربة لن تتم» ثم أعاد بصوت قوي وهو ينظر إلى (أليس): «حتى أعضاء لجنة التحكيم رجعوا كلهم إلى أماكنهم».

** مثال ذلك قوله: "كل واحد يفكر في أنه مذنب. إن كان ذلك فلا شكّ أنه سيقدم استقالته".

*** مثال ذلك قوله: "أتحب القطط لو كنتَ أنـــا؟ «حسنا، من الممكن أن لا أحبها» قال أليس (ذلك) في صوت رخيم.

43 - HALLIDAY . M.A.K Cohesion in English. P144.

** إلى ذلك أشار عبد القاهر الجرجاني في كتابه الإعجاز حيث قال: « باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر **أفصح** من الذكر والصمت عن الإفادة **أزيد** للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن» عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2000م، ص177
ويستدل على الحذف عند الجرجاني إما بما **سبق من الكلام** أو **بدليل الحال**؛ لنتأمل هذا السياق الذي يعالج فيه مسألة حذف المفعول: «وهذا نوع آخر منه وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قصده. قد علم أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعولا سواه، **بدليل الحال** أو **ما سبق من الكلام** إلا أنك تطرحه وتتناساه وتدعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذي مضى وذلك الغرض أن تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتتصرف بجملتها وكما هي إليه» ص186.

44- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 301.

45- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 22.

46 - HALLIDAY . M.A.K Cohesion in English. P227.

* تكرار الكلمة من دون أن يحدث فيه تغيير أو يحدث فيها تغيير جزئي في الصيغة مع الاحتفاظ بالجذر اللغوي، وكان البلاغيون العرب يسمونها هذا التكرار الذي يغير فيه بعض الكلمة بالاشتقاق أو الترديد، ينظر العمري محمد، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، إفريقيا الشرق الدار البيضاء، بيروت، 2001م. ص 205.

** ويقصد بالترادف اتفاق اللفظين في المعنى واختلافهما في الشكل.

*** يقصد بالاسم الشامل مجموعة محدودة من الأسماء تشمل عدة أسماء، ويكون ذلك الاسم الشامل أساسا مشتركا لها، وتشمل الجنس البشري وأسماء الأمكنة العامة، وأسماء الحقائق وما شابهها، ويدخل في الاسم الشامل ما يسمى في العربية باسم الجنس واسم الجمع واسم الجمعي.

47- هي كلمات أكثر شمولا من الاسم الشامل كـ(الفكرة، والعمل، والمكان،...إلخ).

48- هي كلمات أكثر شمولا من الاسم الشامل كـ(الفكرة، والعمل، والمكان،...إلخ).

49- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص، ص25/24.

التداولية وعلاقتها بعلم الدلالة والسيميائية

أ. بوقرومة حكيمة

جامعة المسيلة

تعتبر التداولية آخر مولود للسانيات، وهي تسعى إلى الإحاطة بالدلالة الكامنة في النص وفي نفس منتجه ومتلقيه، وفي عناصر السياق المختلفة المحيطة بعملية إنجازه وأدائه، والتداولية اللسانية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدت انتباه الدارسين والباحثين لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة، مما يستدعي ضرورة الوقوف على هذا المفهوم، بخصوص نشأته وعلاقته بالعلوم والمعارف المختلفة.

لقد عرف مصطلح التداولية "pragmatique" مدلولات عديدة تقلب بينها منذ ظهوره لأول مرة، فقد ظهر لأول مرّة انطلاقا من الأصل اليوناني "pragma" الذي يعني العمل "Action"، ومنه اشتقت الصفة اليونانية ""pragmatikos الذي يحيل على كل ما يتعلق بمعاني العمل "Action"[1].

وقد استعمل المصطلح بعد ذلك لأول مرة في القرون الوسطى في فرنسا في مجال الدراسات القانونية في عبارات، مثل: "pragmatique sanction" و"pragmatica sanctio"، وابتداء من القرن 17م، انتقل المصطلح إلى الميدان العلمي، فصارت "pragmatique" تعني كل بحث أو اكتشاف من شأنه أن يفضي إلى تطبيقات ذات ثمار عملية، وقد شاع المصطلح في الوقت الحالي فأصبح يدرج في عبارات في الاستعمال الجاري، مثل " c’est un esprit pragmatique" و"c’est un pragmatique" لوصف شخص ما له القدرة على إيجاد حلول عملية وحقيقية لمشكل ما[2].

وفي المجال الفلسفي استعمل المصطلح لوصف كل فكرة أو ظاهرة لا تتجلى إلاّ من خلال تطبيقاتها العملية، أي نتائجها المنعكسة على الواقع[3].

أما في الدراسات اللسانية، فتعني التداولية ذلك الاهتمام المنصب على مستوى لساني خاص، يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق المرجعي لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التواصلية[4]، ويرجع أول استعمال لمصطلح "اللسانيات التداولية" "pragmatique linguistique" إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles W.Morris ويقصد بها كلّ ما يتعلّق بمظاهر استعمال اللغة وخصائصها، أي الحوافز النفسية للمتكلمين وكذا النماذج الاجتماعية وموضوع الخطاب وغير ذلك، في مقابل المظهر التركيبي الذي يعنى بالعلاقات التركيبية الشكلية، والمظهر الدلالي الذي يعنى بالعلاقات القائمة بين مدلول الوحدات اللغوية والواقع[5].

ويعود الفصل في وضع مصطلح التداولية الموافق لـ "pragmatique" الأجنبية إلى الأستاذ المنطقي والفيلسوف المغربي الدكتور "طه عبد الرحمن" منذ سنة 1970، أي بعد حوالي اثنين وثلاثين سنة من أول تعريف لها في الغرب على يد "شارل موريس" سنة 1938م، وقد حظي مصطلح "التداولية" بالإجماع والتدوال، ولفظة التداول تعني الممارسة المعبر عنها بالبراكسيس (la praxis) وفي هذا المجال تؤكد "فرانسواز أرمينكو" معنى "البراكسيس" عند البعض فتقول: «على التداولية أن تعين مهمتها في إدماج السلوك اللغوي داخل نظرية الفعل، ويدركها البعض الآخر كمهتمة أساسا بالتواصل، بل وبكل أنواع التفاعل بين الأعضاء الحيّة، بينما عليها بنظر آخرين أن تعالج استعمال العلامات أساسا، وهذا هو منظور أحد المؤسسين، ويدعى موريس»[6].

كما تفيد أيضا لفظة التداول، التفاعل، بالإضافة إلى أنّها من نفس مادة الدلالة التي تتقاطع معها[7].

وقد تناول "طه عبد الرحمن" هذا المفهوم لتقديم منهج التقريب التداولي للتراث الإسلامي، مقترحا مفهوم "المجال التداولي" لينتهي إلى أنّ "تداول" تعني التواصل، وقد عدّه أداة من أدوات تقويم التراث، مؤكدا أنّ الباحثين تلقوه بالقبول، سواء منهم الذين يشتغلون بالتراث، أو أولئك الذين يتعاطون الدراسات اللّغوية(8). وأصبح مصطلح التداولية متداولا بين الباحثين رغم وجود بعض المصطلحات التي يسعى البعض من خلالها إلى جعلها مقابلا لمصطلح "Pragmatique" مثل: النفعية، الذرائعية، المقامية، علم التخاطب، ...

2- مهام التداولية: تهتم التداولية بجميع شروط الخطاب، وتعتمد أسلوبا ما في فهمه وإدراكه، وتهتم بكيفية استخدام اللّغة، وبيان الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلاّ بالاستعمال(9).

- شرح سياق الحال والمقام الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم، إذ ينصب اهتمامها أساسا على المتكلم انطلاقا من سياق الملفوظات التي يؤديها إلى جانب تحليل الأفعال الكلامية، ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عمليات الاتصال(10).

- لقد حمل كتاب "المقاربة التداولية" لفرانسواز أرمينكو" جملة من الأسئلة تحدد مهام التداولية، وتشرح وظيفتها في تحليل الخطاب، ويمكن اعتبارها إشكالات جوهرية في تحليل الخطاب الأدبي من جهة، ومن جهة أخرى دراسة اللغة أساسا، ومن هذه الأسئلة: «ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدّنا بكذا، بينما يظهر واضحا أنّ في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ ماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر، غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟ أي مقياس يحدّد قدرة الواقع الإنساني اللّغوية؟»(11).

– تهتم كذلك التداولية بدراسة العلاقة بين المتكلم والمتلقي وشروطها المختلفة، «حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللّغوية وعمليات الاتصال والتفاعل وتستند إلى علم اللّغة النّفسي وعلم اللّغة الاجتماعي، وتعالج قيود صلاحية منطوقات لغوية (أو أفعال كلامية) وقواعدها بالنسبة إلى السياق»(12)، لذلك يمكن القول إنّ موضوع التداولية هو التواصل البشري الذي يعتمد على دراسة المقام والشروط المناسبة لأداء الكلام.

– من جهة أخرى، تبحث التداولية في مقاصد المتكلّم، وأغراض كلامه، ذلك أنّ المعنى يفهم من السياق، ومن هنا اعتبرها البعض بأنّها « تشرح وضعية التواصل وسياقه، وتفتح أبواب دراسة ما لم يقل، ودراسة الضمني في الحديث»(13).

– فالتداولية إذن تهتم بدراسة استعمال اللغة في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلاما صادرا من متكلم وموجها إلى متلق معين في مقام تواصلي محدّد لتحقيق غرض تواصلي ما.

– تهتم كذلك بشرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.

– بيان أسباب أسبقية الإستراتيجية غير المباشرة وأفضليتها على الاستراتيجية المباشرة.

– لقد أصبح مفهوم الفعل الكلامي نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، ومعناه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، كما يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية (actes locutoires) إلى تحقيق أغراض إنجازية (actes illocutoires) كالطلب والأمر والوعد والوعيد،... وغايات تأثيرية (actes perlocutoires) تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول(14).

– وبعد أن استوت التداولية في موضوع الأفعال الكلامية، ظهرت أهميتها في تحليل الحجاج، وخاصة عند اللسانيين الفرنسيين، مثل "ديكرو" و"أوركيوني" وغيرهما.

– بالإضافة إلى أنّ التداولية في حقيقتها لم تعرف بماهيتها، بل بإجراءاتها في تحليل الخطاب، وبأنّها تقوم على التفكير اللّغوي وما يتعلق بفعالية الخطاب.

3- علاقة التداولية بعلم الدلالة:

تشهد التداولية توسعا على جميع الصُعُد، فهي مسخرة لوصف ظواهر التناسق النصي، كما يتم تسخير أحد مكوناتها لإدماجه في التحليل النّصي وتنفتح على إشكالات وتخصصات عدة مجاورة لها كعلم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الدلالة والسيميائية وغيرها.

فعلم الدلالة فرع من فروع علم اللسان الحديث، لذلك كانت علاقة علم الدلالة بالتداولية وثيقة تماما كما أنّ علاقتها باللسانيات وثيقة، ومن جهة أخرى يعود التداخل الموجود بين التداولية وعلم الدلالة إلى أنّ كلا منهما يتناول المعنى، ولكنهما يختلفان في تحديد مستوياته، ومن الدارسين من يعتبر التداولية امتدادا لعلم الدلالة، ولعل الفضل الكبير في التمييز بين هذين العلمين يعود إلى المحاضرات التي ألقاها "أوستين".

لقد ميز "أوستين" بينهما من خلال فكرة الكفاءة والأداء، حيث يصنف علماء اللّغة، علم الدلالة ضمن القدرة (معرفة اللّغة)، أمّا التداولية فتصنف ضمن الأداء والإنجاز واستخدام اللّغة(15)، وبناء على ذلك تقوم التداولية على التبعية لعلم الدلالة الذي يعرّف شروط المعنى وحقيقتها، وتهتم التداولية بدراسة هذه الشروط بربط المعنى بالاستخدام، وتحدّد ما يسمح بنجاح الملفوظ أو إخفاقه(16).

إنّ المقولات التداولية تبنى على المقولات الدلالية، وكذلك لا يمكن أن نحصر علم الدلالة في دراسة المعنى بعيدا عن المقام.

فعلم الدلالة يعالج معنى الجملة في إطار أدنى من الإشارة إلى المقام، بينما تتولى التداولية المعنى ضمن إطار المقام المحدّد المعالم والمقاصد[17].

إنّ التداولية وعلم الدّلالة كلاهما يكمل الأخر، حيث تعنى الدلالة بتفسير الملفوظات وفق شروطها وقيودها النظامية، وتحدّد المعاني الحرفية لها والإشارة إلى أدنى مقاماتها، وفي ذلك خدمة للنظام اللّغوي، وليس لمقاصد المتكلمين، وتصف الكلمات ومعاني الجمل، وتربطها بالصدق والكذب أحيانا، أمّا التداولية فتعنى بما وراء ذلك فتربط مقاصد المتكلم بالبحث عن المقام المناسب، والشروط التي تضمن نجاح العبارة أو الشروط التي تسمح بنجاحها، ولا تهتم بصدقها أو كذبها وتربط بين النص وسياقه، وتكون بين نوعين من المعاني: معنى يستقى من الجمل فيما بينها، ومعنى يستقى من الوحدة الكلامية كاملة (مجال التداولية)[18].

وقد يستقر التحليل التداولي في فك رموز رسالة المتكلم من المحتوى المراد، حتى وإن كانت الرموز مشتركة بين علم الدلالة والتداولية، لأنها قد تحتوي على الضمني والمسكوت عنه، اعتمادا على ما يزودها به السياق من فرضيات حول قصد المتكلم.

وهناك اتجاهات عديدة في البحث التداولي، من بينها: الاتجاه الدلالي الاتجاه التداولي، والاتجاه التكاملي[19]، فالاتجاه الدلالي هو تيار يختزل التداولية في الدلالة ويجعلها بمنزلة الجزء الذي لا انفصال له ولا استقلال له عن الكل، بينما يذهب التيار التداولي إلى اعتبار الدلالة جزءا من التداولية حسب رأي "سيرل" (searle)، بالإضافة إلى الاتجاه التوليدي، وهو تطعيم لدلالة التوليدية بمفاهيم خاصة من فلسفة اللغة العادية، ويمكن إجمال أهم مبادئه فيما يلي:

- الاهتمام بالمستوى التداولي الاستعمالي باعتباره أهم من المستوى الصوري للغة.
- تفاعل البعد التداولي للغة مع البعدين الدلالي والتركيبي.
- تعليق فهم جوانب من اللغة بالإحالة على البعد التداولي.

ومن خلال ما سبق، يمكن الوصول إلى أن التداولية وعلم الدلالة يتضمنان الكثير من الخصائص المشتركة التي تبين بشكل عملي مدى ارتباط هذين المجالين، انطلاقا من المسلّمة التي تقول بأنّ كلّ خطاب دلالي مرتبط على وجه الاطراد بالفعل التواصلي.

4- التداولية وعلاقتها بالسيميائية: تعتبر السيميائية إحدى الحقول المهمة التي نشأت في أحضانها التداولية، ففي تعريف "تشارلز موريس" للتداولية أكد أنّها جزء من السيميائية وتمثل إحدى مكوناتها تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات، وبين مستعمليها أو مفسريها (متكلم، سامع، قارئ كاتب،...) وتحديد ما يترتب عن هذه العلامات، حيث حدد أبعاد السيميائية في ثلاثة أمور هي: (20)

- علاقة العلامات بالموضوعات المعبّر عنها، وذلك بعد دلالي يهتم به علم الدلالة.
- علاقة العلامات بالناطقين بها، وبالمتلقي، وبالظواهر النفسية والاجتماعية المرافقة لاستعمال العلامات وتوظيفها، وذلك هو البعد التداولي الذي تهتم به التداولية.
- علاقة العلامات فيما بينها، وذلك بعد تركيبي، يهتم به علم التراكيب.
- إنّ الحديث عن السيميائية والتداولية يطرح على الدارس جملة من التساؤلات، تستدعي رصد التيارات اللسانية التي تقف وراء البرامج العلمية الكفيلة بفهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات السيميائية التي يعبئها

المتكلم لإقامة التواصل مع المتلقي، ومن هذا المنطلق تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية بهدف التأثير في الآخرين(21)، وكذا بهدف تحقيق مقاصدهم التواصلية وفي إطار هذا التوجه العام للتداولية تعددت زوايا النظر واختلف أصحابها في مسألة الاقتراب من الفعل الكلامي.

ويهتم "غرايس" بالتأثير الذي يمارسه المتكلم على المتلقي، بغرض حمله على تنفيذ ما طلب منه بشكل ضمني، إذ يعمل "غرايس" في هذه الحالة على إبراز الروابط التي تربط الكلام بالفعل، دون أن يركز في الوقت نفسه على المتكلم (اللافظ) والمتلقي (الملفوظ له) والموضوع السيميائي بوصفهم الأطراف الأساسية في العملية التواصلية التي تسعى إلى تحقيق الفعل التواصلي، فمن هذه المنطلقات ينبغي أن نستعين بالأداوت الإجرائية السيميائية الكفيلة بتقديم إضاءات بخصوص البعد التداولي في الاقتراب من المواضيع السيميائية(22).

ولا شك أن التداولية ستغزو المجالات السيميائية المتعددة، وأنّه بإمكاننا أن نستشف في كل علامة دالة على كون سيميائيات السينما وسيميائيات المسرح، قد أصبحت تعنى الآن بالتدابير التي يسخرها القول والحوار، والضمانة لموضوعة المتفرج أكثر من اعتنائها بالتحليل الداخلي للمحتويات الفيلمية والمسرحية(23).

إنّ الموضوع السيميائي يهتم بالفعل التلفظي، ويبرّر وجود هيئتين هما: اللافظ والملفوظ له، وإذا كان التلفظ هيئة لسانية وسيميائية يفترضها منطقيا الملفوظ وتظهر آثارها في الخطابات، فإنّ الموضوع السيميائي يستعمل للدّلالة على كلّ مجموعة دالة، كيفما كان نوعها (جملة، خطاب سياسي، رواية، لوحة صورة فوتوغرافية،....) وكيفما كانت أشكال التعبير أو أنواع التجلي (سمعية بصرية، ذوقية، شمية، لمسية،...) والتي قد تتوحد في سيميائيات تسمى "تأليفية" على نحو ما نلحظ ذلك في السينما التي تشتغل على البصري والسمعي(24).

من جهة أخرى، يدين الدرس التداولي كثيرا لـ "بيرس" (Pierce) وهو من الأوائل الذين اهتموا بدراسة العلامة انطلاقا من مفاهيمها، ويعدّها أساس النشاط السيميائي، حيث اعتبرها أوسع من المجال اللّغوي، وقد عدّت الأسس السيميائية التي أرساها أسسا فلسفية تأملية، وهو يربط فهم اللغة بحال التواصل، ويربط المعنى بظروف الاستعمال(25).

إنّ مصطلح التداولية هو من إجراءات القراءة التحليلية السيميائية للملافظ التي هي الوحدات الصغرى للنص، ويعدّ هذا الإجراء لاحقا وملازما للقراءة القائمة على دلالة المعاني في النص، فتذهب في تحليل عناصر ذلك بعيدا فتلتمس كل الاحتمالات التي يمكن أن يشع بها الملفوظ.

إنّ التداولية هي جزء من السيميائية التي تشكل توسعة كل من النّظم وعلم الدلالة مع الأخذ بعين الاعتبار العلاقة التي تربط بين المتكلم والألفاظ التي ينطق بها، فهو يضع النقط على حروف السياق الوارد في التلفيظ.

إنّ التداولية تسعى إلى إزالة الغموض من عناصر التواصل اللّغوي، وتشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات، فهي على وشك أن تكون مرحلة وسطى بين المعارف اللّغوية المختلفة والمعارف الموسوعية، وتستمد حقيقتها من رافدين مهمين هما: الرافد المعرفي كما تقدّمه بعض المباحث في علم النفس المعرفي، بما في ذلك الاستدلالات والاعتقادات، وغير ذلك، أما الرافد الثاني فهو الرافد التواصلي، المتمثل في أغراض المتكلمين واهتماماتهم، ورغباتهم،... كما تمتاز التداولية بتنوعها المعرفي، وهو السبب الذي جعلها تتفاعل مع علوم مختلفة كعلم الدلالة والسيميائية التي هي علوم يجمعها قبل كل شيء الاهتمام بالمعنى الذي يسعى المتكلم إلى إبلاغه وإفهامه للمتلقي، وإن اختلفت طريقة ذلك بين هذه العلوم.

الهوامش

1- ينظر: الطاهر لوصيف، «التداولية اللسانية»، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، العدد17، جانفي2006، ص9.

2- ينظر: م ن، ص ص:6-7

3 -Voir : Jean Michel, La pragmatique outil pour l'analyse littéraire , Armand colin, Paris,1998, p4.

4- Voir : Maxidico, Dictionnaire encyclopédique de la langue française, édition de la connaissance, 1997, p876

5- ينظر: الطاهر لوصيف، «التداولية اللسانية»، مجلة اللّغة والأدب، ع17، ص8.

6- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة : سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت ص11.

7- ينظر: إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2006، ص262، نقلا عن: طه عبد الرحمن في ندوة: الدلاليات والتداوليات، أشكال الحدود، منشورة ضمن البحث اللساني والسيميائي، ص299.

8- ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص ص 243-244.

9- ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص8.

10- ينظر: فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق، محمد سعيد البحري، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط1، 2001، ص114.

11- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص7.

12- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2009، ص70.

13 -Gilles Siouffi et Dan Van Raemdonck, 100 fiches pour comprendre la linguistique, Breal, Rosny, Novembre 1999, p51.

14- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1429هـ/2008م، ص ص 54-55.

15- ينظر: جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: بوئيل عزيز، سلسلة المائة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق ط1، 1987، ص ص 31-32.

16- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص128.

17 -Voir : Dominique Mainguenau, pragmatique pour le discours littéraire, collection lettres, SUP, Dunod, Paris, 1997, p129.

18- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص ص 129-130.

19- ينظر: إدريس مقبول، الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص ص 267-269.

20- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص ص 67-68.

21 -Voir : Oswald Ducrot et Tezfetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Points, Paris, 1972, p423.

22- ينظر: رشيد بن مالك، «السيميائية والتداولية»، مجلة اللّغة والأدب، ع17، ص ص 206-207.

23- ينظر: حفناوي بعلي، «التداولية... البراغماتية الجديدة خطاب ما بعد الحداثة»، مجلة اللغة والأدب، ع17، ص70.

24- ينظر: رشيد بن مالك، المرجع السابق، ص211.

25- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص55.



ملامح من الدراسة الصوتية عند ابن حزم الأندلسي

(ت456هـ)

أ/ بن عيسى مهدية
جامعة تلمسان

تتجه الأعناق إلى النّحاة واللّغويين في كل مرة يذكر فيها البحث الصوتي غير أن هذه المجال كان رحبا لاحتضان علماء آخرين له. صُنّفوا في إطارات مختلفة من بينها الإطار الفلسفي، حيث ولج بعض الفلاسفة العرب المسلمين المجال الصوتي هم أيضا. ومن بينهم ابن حزم الأندلسي(ت456هـ)[1] الذي يُعدُّ من الشخصيات البارزة في الحضارة الإسلامية بعامة والأندلسية بخاصة ذلك أنه كان يحمل رؤية متميزة لقضايا عصره فرض نفسه بها على صفحات التاريخ لما تركه من أراء ومواقف وآثار علمية لم يختلف اثنان في أهميتها، منها ما ورد في هذا البحث المتواضع حول بعض القضايا الصوتية التي أشار إليها في طيّات كتبه الكثيرة ذلك أنه لم يكن مختصا في مجال اللّغة بالتحديد، بل كان صاحب مدرسة من أهم المدارس العربية مُلّما بمختلف العلوم من منطق وفلسفة ودين ....

1- ماهية الصوت وعلاقته بفاعلـه:

لقد عني العلماء العرب - كغيرهم من علماء الأمم الأخرى- بالدّرس الصوتي وهذا في سياق دراسة لغة القرآن الكريم وحمايتها من اللّحن الذي طال اللّسان العربي الفصيح. وقد جاءت نتائجهم في هذا المجال تضاهي ما جاء به

الدّرس الصوتي الحديث، بل "قد سبقوا المحدثين بنتائج مهمة لا يمكن إغفالها"[2] وفي هذا السياق تتنزل قراءتنا لبعض آراء بن حزم الصوتية.

فالصوت عنده "هواء مندفع من الحلق والصدر والحنك واللسان والأسنان والشفتين إلى آذان السامعين"[3]. فهو يقدم وصفا علميّا مبنيّا على الملاحظة المباشرة للصوت بوصفه حدثا فيزيائيا، حيث يشير إلى النّاحيتين النطقية والسمعية حينما يُقرّأنّ الصوت هواء يندفع من المخرج إلى الأذن، فنكون بذلك أمام النقطة الثانية في الدراسة الصوتية الطبيعية، وهي دور الهواء في نقل الأصوات من مكان خروجها إلى أذن السامع.[4]

وفي الحقيقة فإن هذا التعريف الذي قدّمه ابن حزم ينحو إلى إبراز عناصر عملية التصويت المتمثل في الهواء وأعضاء جهاز التصويت، وهي الصدر والحلق والحنك، اللسان الأسنان والشفتين، وكذا الطرفين المعنيين بالبثّ والاستّقبال (المرسل والمرسل إليه أو المتكلم و السامع) .

كما نجده يستعمل مصطلح الحرف عندما يتحدث عن الكلام؛ أي الصوت الإنساني، كما جاء في قوله: ".... إذ هو إيقاع كلمات مؤلفات من حروف مقطّعات، مَكَّنَ الحكيم القادر له المخارج من الصدر والحلق. وأنابيب الرئة وهيّأ لها الهواء المندفع يقرع اللسان إلى صماخ الآذان ".[5]

والقرع أو القلع أو المصاكّة هو السّبب الرئيسي لإحداث الصوت سواء كان لغويًّا أو طبيعيًّا، الأمر الذي أجمع عليه الفلاسفة المسلمون حين ضبطوا مفاهيمهم بمجموعة من المصطلحات الفلسفية والطبيعية .[6]

وبالعودة إلى كلام ابن حزم الذي يمكن أن يكون دليلا على إدراكه العلاقة الكائنة بين اللّغة وصاحبها، وبعبارة أخرى بين الكلام وفاعله، بوصفه مجموع الأصوات التي يصدرها جهاز نطق إنساني يؤلف بينها لقصد محدد. فالهواء المندفع بالتحريك يكون مُحرّكا، والنّاطق هوا لمحرّك له.[7] فالمتكلم لا

يتسنى له صياغة الكلام إلّا إذا كان مدركا لمحتواه الدلالي قاصدا منه إفهام الغير.

2 – اللفـظ :

تتداخل الأحداث الصوتية المنطوق بها وفق مبدأ المواضعة والاصطلاح لتتشكل الألفاظ والكلمات، ومن ثمّ الكلام المعبّر المفيد. وحدّ اللّفظ عنده هو "كلّ ما حرّك به اللّسان ثم هو هواء مندفع من الشفتين والأضراس والحنك والحلق والرئة على تأليف محدود، وهذا هو الكلام نفسه".[8] فهو لا ينظر إلى الحدث الصوتي من حيث هو حدث سلبي، بل من حيث هو جزء أساس في بنية أكبر، لها وظيفتها هي الكلام الذي هو محصلة جهد يبذله المتكلّم وتشارك فيه أعضاء جهاز التصويت يخرج الهواء في أثناء الزفير من الرئتين اللتين تدفعانه إلى الخارج.[9] وكلّما لامس نقطة معينة حدث صوت معين، ففي الحلق الهاء والحاء والعين وفي الشفتين الفاء والباء والميم...الخ.

والملاحظ من تعريفه هذا أنه خصّ مفهوم الصوت وكيفية حدوثه باللفظ،أما اللّغة عنده فهي "ألفاظ يُعبَّر بها عن المسمّيات وعن المعاني المراد إفهامها ".[10]

3- الصوت و الدلالة:

يُفصح بن حزم عن نوع من العلاقات تربط الصوت بالدلالة، وهذا على أساس مبدأين متعارضين هما الطبع والقصد. أو العرف والاصطلاح فهو يرى أن "الصوت الذي يدل على معنى إما أن يدلّ بالطبع كصوت الديك الذي يدل في الأغلب على السحر وكأصوات الطير الدّالة على نحو ذلك كالبلارج والإوز وأصوات الحيوان بالليل كالكلاب في نباحها تدل على رؤيتها لشخص وكأصوات السنانير في دعائها أولادها وسؤالها عند طلبها السقاء، وإما أن يدل الصوت بالقصد وذلك من خصوصيات اللّغة الإنسانية. ومن المتعارف عليه أنّه لادلالة للصوّت اللّغوي مفردا إلا إذا اِلتأم مع غيره في بنية لغوية دالة بالوضع".[11]

يشير في قوله إلى ظاهرة يطلق عليها الدرس الصوتي الحديث اسم onomatopée أو نظرية الحكاية الصوتية، وهي تلك التي يحاكي فيها صوت اللّفظ معناه [12]. وخير من تبنى هذا المذهب من لغويي العرب القدامى العلاّمة بن جني (339هـ) الّذي قال في هذا المجال: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللّغات كلها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الرّيح، وحنين الرّعد وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك. ثم ولدت اللّغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل".[13] لقد ربط بين أصوات الطبيعة حينا وبين أصوات الحيوانات حينا أخر فهو يعزو نشأة اللّغة الإنسانية إلى محاكاة أصوات الطبيعة عند بعض الشعوب،ثمّ تفرّعت اللّغات بعد ذلك.

أمّا بن حزم فقد جعل الصّوت ومعناه نوعين: صوت دال على معنى بالطبع كأصوات الحيوانات، وصوت دال بالقصد والاصطلاح وهذا في اللّغة الإنسانية. كما أكد أنه لا قيمة للصّوت مفردا، وإنّما تظهر دلالته متكاملة مع غيره من الأصوات في اللفظة، أو في مجموعة من الألفاظ بحيث تكون العلاقة بينها وبين معانيها اِصطلاحية لا عرفية.

كما تطرّق إلى تعريف الدلالة وأركانها فهي عنده فعل الدّال. أمّا الدّال فهو المعرف بحقيقة الشيء والدليل اسم يعرف به المسمى، وعبارة يتبين بها المراد[14]. والحديث عن علم المعنى – الدلالة – الذي هو أحد المكونات الأساسية لعلم اللّغة، وعن ركنيه قد يطول بنا في هذا المقام، فمن المأثور عن دي سوسير اعتباطية العلاقة بين الدّال والمدلول. حيث أن الدّال هو الصورة الصوتية التي تنطبع في ذهن السامع أما المدلول فهو الفكرة التي تقترن به .[15]

3- سلامة الجهاز السمعي:

إن حاسة السمع مهمة جدّا في العملية الصوتية، فبغيابها لا يمكن للمستمع من التقاط رسالة المرسل، وفي هذا يقول ابن حزم: "إنّ ما تدركه

النّفس بالعقل والعلم وبتوسّط الصوت مثل تأليف اللّحون وتركيب النّغم ومعاني الكلمات المسموعة، وما أشبه ذلك، إذا إنما تؤدَّى بحاسة السمع وتوسطها "[16].
فالصوت يقطع الأماكن وينتقل فيها ويندفع في الهواء الذي هو" جسم طويل عريض عميق ، فهو محتمل الانقسام ضرورة فذلك الهواء هو الحرف "[17].

الهواء على هذا جسمٌ، ومادام على ذلك فإنه يخضع لما يخضع له الجسم كالحركة من حيث نقله من المكان وزواله عنه، فبمروره في أعضاء جهاز التصويت يؤدي إلى انجاز الحرف نطقيا. فالهواء نتيجة لتحركه يقوم بالنقل ولذلك يعد أسهل سبيل لانتقال الموجات الصوتية بشكل سليم حتى تلتقطها أُذن المرسل إليه.[18]

4- **<u>الاستغراق الزمني للأصوات الطبيعية:</u>** بعد أن ينشأ الصوت الطبيعي والذي يندرج الصوت الإنساني ضمنه سواء بسبب قرع أو قلع. تنتقل الموجات الصوتية في الهواء إلى الأذن لكن هذه الأصوات تتفاوت فيما بينها من حيث المدة الزمنية التي تبقاها قائمة، فتتوالي الحروف المكونة للكلام المتتابع بتتابع الزمن المتجدد إثر كل انقضاء إذ "ينقضي الأول فالأول من الزمان وكلما تقضى منه فهو فان معدوم "[19] فكذلك إجراء القول، إذا تكلمت عن حروفه ونظمه ومعانيه، فإن كل ما تكلمت به من ذلك فقد فني وعُدمَ، وما لم يُتَكَلَمْ به من ذلك فمعدوم لم يحدث بعد، والذي أنت فيه من كلّ ذلك لا قدرة لك على إثباته، ولا أمساكه، ولا إقراره أيضا. أصلا بوجه من الوجوه، لكن ينقضي أوّلا فأوّل بلا مهلة.[20]

إذن فالصوت من الأمور أو الأفعال غير المستقرّة فهي تفنَى وتعدم لمجرد التلفظ بها.

5- **<u>تطور اللهجات</u>**: يقول ابن حزم في هذا الشأن، أنّ تطوّر اللّهجات مع مرور الزّمن ينتهي بقيام لغة جديدة، أصلها كان لهجة، ويسجل لنا تعريفات شاعت لدى المتكلمين باللّغة العربية من العوام أو من الأجانب المتعرّبين.[21] فهو

يلاحظ أنّ " العامّة قد بدّلت الألفاظ في اللّغة العربية تبديلا، وهو في البُعْدِ عن أصل الكلمة كلمة أخرى ولا فرق. فنجدهم يقولون في العِنَب: العَيْنِبْ وفي السوط، أسطوط، وفي ثلاثة دنانير: ثِلثِدا وإذا تعَرَّب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال: السجرة، وإذا تعرّب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءاً فيقول "مُهمدَا " إذا أراد أن يقول: مُحمدا".[22]

من كلامه نلاحظ أنّ اللّحن دخل اللغة العربية في بلاد الأندلس، نتيجة اختلاط العرب بالأعاجم، الّذين استعصى عليهم نطق بعض الأصوات العربية خاصة العين والحاء التي أبدلوها بأصوات من نفس مخرجها الصوتي مثل الهاء. ففي (محمداً) قالوا (مهمدا) والسبب في ذلك أن الهاء عندهم أسهل في النطق من الحاء والعين، فهي خفية تُسمع من نفوذ الهواء بقوة في جسم لا يعترض طريقه شيء، فهي كالهواء نفسه ولذالك نعتها ابن جني بالصوت المهتوت.[23]

كما كانوا ينبرون المقطع الأول من الكلمة في كثير من الأحيان ويُطيلون الصائت القصير في بعض الكلمات[24] في مثل: عنب يقولون عنيب.

خاتمـــة:

بعد هذه الدراسة البسيطة المتواضعة لما جادت به قريحة عالمنا الجليل ابن حزم في مجال اللغة، خاصة في الدرس الصوتي العربي خَلُصت إلى ما يلي:

- قِلَّة موروثه الصوتي، ذلك كونه أديبا وفقيها أكثر منه نحويا لغويا.
- لقد تناول الصوت وعرّفه على أنّه هواء متصاعد من الرئة مارا بأعضاء النطق ليصل إلى الشفتين.
- عَدَّ أعضاء النطق من خلال تطرقه للصوت وماهيته؛ وهي عنده الرئة (الصدر) الحلق، الحنك، اللّسان، الأسنان، والشفتان.
- عملية التصويت هي محصلة جهد يبذله المتكلّم تشارك فيه الأعضاء المذكورة آنفا.

- سلامة جهاز السمع عنده مهمة جدّا فلولاها لما تمكّن المستمع من التقاط رسالة المرسل .

- الأصوات الطبيعية تتفاوت من حيث المدة الزمنية التي تبقاها قائمة.

- تطرق لظاهرة الإبدال عند بعض العوام في بلاد الأندلس الّذين استعصى عليهم نطق بعض الأصوات.

الهوامش :

1- هو الفقيه المجتهد أبو محمد بن حزم، ولد بقرطبة من بلاد الأندلس في آخر يوم من شهر رمضان سنة 384 هـ – 994م نشأ في نعمة سابغة وجاه عريض إذ كان أبوه وزيرا جليلا كبير الشأن. كان ابن حزم حافظا لعلوم الحديث والفقه، والمنطق كثير التأليف، درس في أول أمره فقه المالكية ثم درس مذهب الشافعي ثم انتقل بعد ذلك إلى مذهب الظاهرية. من بين مؤلفاته نذكر: الإحكام في أصول الأحكام، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه، طوق الحمامة..... توفي رحمه الله في بلاد الأندلس أواخر شعبان سنة 465 هـ –ينظر وفيات الأعيان. ابن خلكان 340/1 .

2- النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم الأندلسي، نعمان بوقرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، دط 2004، ص: 26.

3- الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ابن حزم الأندلسي تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة. دار الجيل بيروت، دط، 1985، ص: 9.8/3

4- ينظر الدرس الصوتي عند الفلاسفة العرب المسلمين. رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغة، من إعداد الطالبة أمينة طبيبي، جامعة جيلا لي اليابس سيدي بلعباس، ص52 .

5- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي، تحقيق محمود حامد عثمان دار الحديث القاهرة، ط1، 2005، ص1:/30.

6- لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع المتمثل في مصطلحات الدراسة الصوتية الخاصة بالفلاسفة المسلمين يمكن الرجوع إلى الدرس الصوتي عند الفلاسفة العرب المسلمين رسالة دكتوراه أمينة طيبي.

7- ينظر الفصل في الملل والأهواء والنحل: 33/5 .

8- الإحكام في أصول الإحكام: 46/1 .

9- ينظر ، النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم: ص29، والتفكير اللساني في الحضارة العربية عبد السّلام المسدي، الدار العربية للكتاب ليبيا وتونس دط، 1981: ص255 .

10- الإحكام في أصول الإحكام ص 61.

11- التقريب لحد المنطق والمدخل بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية. ابن حزم الأندلسي تحقيق إحسان عباس، منشورات مكتبة الحياة بيروت لبنان، دط، 1959، ص12.

12- ينظر دلالة الألفاظ. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2،1963، ص 86. واللغة بين ثنائية التوقيف والمواضعة. عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء الأردن، ط1،1997، ص71.

13- الخصائص. ابن جني، تحقيق علي النجار، دار الكتاب العربي لبنان، ط2 1987: /146 هـ-47 .

14- الإحكام في أصول الإحكام، ابن حزم: 1/ 53-54.

15- ينظر، محاضرات في الألسنية العامة فاردينند دي سوسير، ترجمة يوسف غازي ومجيد الخضر دار النعمان للثقافة لبنان، دط، 1984، ص89، 90 .

16- ينظر التقريب لحد المنطق ص 57 .

17- الفصل في الملل والأهواء والنحل: 82/1 .

18- ينظر الدرس الصوتي عند الفلاسفة العرب المسلمين: ص65 .

19- التقريب لحد المنطق: ص50.

20- ينظر: نفسه الصفحة نفسها.

21- ينظر: نظرات في اللغة عند بن حزم الأندلسي. سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت لبنان ط2، 1389هـ -1969 م: ص26.

22- الإحكام في أصول الأحكام: 47/1.

23- ينظر: سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان ابن جني، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، سورية، ط1، 1405 هـ -1985 م: ص 64/1. وينظر المقتضب، محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب لبنان، د ط، د ت: 155/1.

24- التطور اللّغوي مظاهر وعلله وقوانينه، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة، ط2 1410 هـ-1990م : ص129.

العلة النحوية عند ابن مضاء القرطبي

أ. محمّد حرّاث

جامعة تيزي وزو

المقدِّمة: ممّا لا يُختلَف فيه تلك الأهمِّيَّةُ الّتي أولاها العربُ الأوائل للّغة العربيّة، وما بذلوهُ من جهودٍ مُضْنيةٍ في سبيلِ تَعلُّمِها، وتسويرِها بما يمنعُ اللّحنَ عنها، ويحفظُها من الشّوائبِ والمَعَايبِ، حَفِظوها وحافظوا عليها من بابِ همْ عَرَبٌ وبابِ همْ مسلمون؛ عربٌ تمنعُهُم عروبَتُهم وفحولتُهمْ أنْ ينتزعوها من ألسِنَتِهم، أو ينـزَعُوا إلى غيرِها، أو يرتَضوها هجينَةً بغيرِها، ومسلمون يحفَظُون بها القرآن ويحفَظها القرآن لهم، ويَلِجونَ بها عَوالِمَ العِباداتِ، ويكفيهم شَرَفًا أنْ تَكَلَّمَ بها ربُّهم، وسارتْ على لسانِ نبيّهم، وهي التِّرْكُ الثَّمينُ النَّفيسُ الّذي وَرِثُوهُ عن أسلافِهم.

وما زالت العربيّة منذ طفولَتِها النّحويّة تَدْلِفُ إلى عوالِم التّطوّر بعد عوالِم النّشُوء، وإلى عوالِم النّبوغ والنّضج بعد عوالِم التّطوّر، وما تزال إذْ ذاكَ مباحثها تَتَفَتَّقُ في نَتَاجِ عُلَمائِها جيلاً بعد جيل، ورَدْحًا بعد ردْح، وما إنْ اقتَرَنَتْ القرون الخمسة الأوائل وانصَرَمتْ أمَاراتُها، وما إنْ رَسَخَتْ للمصطلحاتِ النّحويّةِ ومفاهيمها ومباحثها على صرْحِ الحقيقة واليقينِ والعِلْميَّةِ أقدامُها، وغاصتْ إلى أغوارِ اللّغة وأعماقِ مفاهيمِها أدلَّتُها، وثَبَتَ بما يَبْتُرُ حبال الشَّكِّ ويَصْرِمُ خيوط الظَّنِّ تأويلُها، جاء مَن رامَ تقويضَ بعض ما رآهُ من شوائبِها وأبصَرَهُ من مبالَغاتِها، فقد رأى في بعض تلك المصطلحات ومباحِثِها الصَّنْعَةَ باديةً، والتَّزَيُّدَ بما لا يُفيدُ في شتَّى استعمالاتِها.

ذلك هو ابن مَضَاء، القرطُبِيُّ مولِدًا ومَنْشَأً، الإشبيليُّ وفاةً، الظّاهريُّ فِقْهًا ونحوًا، إذْ ثارَتْ ثائِرَتُهُ ضدَّ كلِّ ما رآه ذيلاً في جسم النّحو، وسرابًا بين صور حقائِقه، أمْعَنَ في غايةِ النّحو، فوَجَدَها حِفْظَ كلام العربِ من اللَّحن والخَطأ، فطرَحَ من النّحو ما رآهُ لا يحقّقُ هاتيك الغاية، وجعَلَهُ من تَكَلُّفِ النّحاة، الّذي أدّى بهم إلى ما يُشبِهُ كُتُبَ الفلسفة والمنطق، وذاعَ صِيتُهُ حينذاك ببقاعِ الأندلس والمغرب العربيّ أيَّما ذيوع، وما ذيوعُهُ هذا إلاّ بذيوع صِيتِ سيِّدِهِ الثّائِرِ على الفقه والفِكر المشرقِيَيْن. ثمَّ ما انفَكَّ الذُّيوعُ المَضَائِيُّ يَغْبرُ عبر الأيَّام ويتلاشى مع الأعوام، لينْفُضَ عنه الغبارَ ويحملَ رايتَهُ جيلٌ من الباحثِين والدّارسين، الّذين رأوا عُسْرَ تعلُّمِ النَّحوِ على النَّاشِئَةِ والمتعلِّمين، فعزَّزوا ما رآهُ ابن مَضَاء وحوَّلوا اتِّهامهم إلى النّحو، رائين فيه السَّبب والعِلَّةَ، مُلْبِسينَهُ ثوبَ التُّهمةِ، مقتبِسينَ من آراء ابن مَضَاء ما يرتكزون عليه، كيما يُؤَسِّسُونَ لنظريَّاتهم، ويُقَعِّدون لتطبيقاتهم. كلُّ هذا وغيرُهُ أذكى فينا حماسَ البحث والتَّطلُّع لمعرِفةِ آراء هذا العَلَم، الّذي ما برِح المترجمون له ينعتونه بالجهْبذِ النِّحرير والفهَّامةِ الكبير، لنُحيطَ ولو يسيرًا ببعضِ آرائِهِ في العلّة النّحويّة يحدونا الأملُ إلى أنْ نَغْرِفَ من مَعِينِ الأوَّلين والآخِرين، ونجِدَها فرصَةً سنحَتْ ولحظةً أُتيحتْ للإفادةِ من مجموع الكُتُب والمؤلَّفاتِ الثَّمينَةِ الفائِدة، الّتي كانت لنا مِعْوانًا في هذا البحث المتواضِع الموسوم بـ **(العلّة النّحويّة عند ابن مَضَاء القرطبيّ)**.

1/- ابن مضاء: حياته وأعماله:

أ/- اسمه، ومولده، ونشأته: هو أحمد بن عبد الرّحمن بن محمّد بن سعيد بن حُريث بن عاصم بن مَضَاء بن مهنّد بن عُمير اللَّخْمِيّ، يكنىّ أبا العبّاس [1] وأبا جعفر الجيّانيّ القرطبيّ، قاضي الجماعة [2] أصله من قرى شَذُونَة [3]، جاء في بغية الوعاة: "ابن مَضَاء" [4] بفتح الميم لا بضمّها. وكان مولده بقرطبة يوم عيد الفطر في السّنة العاشرة بعد المئة الخامسة للهجرة (510هـ)

وقال ابن الطيلسان: ليلة عيد الفطر من سنة ثلاث عشرة وخمسمئة (513هـ) [5] وكذلك جاء في بغية الوعاة [6]، كما روي أيضا أنّه ولد في سنة اثنتي عشرة وخمسمئة (512هـ) [7]. وقد نشأ في قرطبة في بيت حَسَبٍ محبًّا للعلم [8]، وكان أحد من خُتِمَتْ به المئة السّادسة من أفراد العلماء [9]، كان جميل السّيرة، كريم الخُلق، أديبا، له حظّ من الكتابة والشّعر، مشاركا في فنون شتىّ [10]، وكان مقرئا مجوّدا، محدِّثا، مُكْثِرا، قديمَ السّماع، واسع الرّواية، عارفا بالأصول والكلام، والطّبّ، والحساب، والهندسة، ثاقب الذّهن، متوقّد الذّكاء شاعرا بارعا، كاتبا، حتّى صار رِحلةً في الرّواية، وعُمدةً في الدِّراية [11].

تولىّ القضاء في فاس وفي بجاية [12]، وفي عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن (ت1184م) من دولة الموحّدين [13] تمّ تعيينه قاضي الجماعة بمرّاكش بعد وفاة القاضي أبي موسى بن عمران (ت578هـ) [14]. وقاضي الجماعة هو رئيس القضاة، وله الحقّ أنْ يأمر بالقتل على من استحقّ القتل، دون الرّجوع إلى السّلطان، وهو الّذي يقيم الحدود الشّرعيّة [15]، وكان ابن مَضَاء يقضي بين النّاس بالمذهب الظّاهريّ [16]. وقد شهد ابن مضاء عصرين من عصور الأندلس؛ هما: عصر المرابطين [493هـ- 541هـ] وعصر الموحّدين [541-668هـ] فأمّا عصر المرابطين - وهو الّذي أظلّ ابنَ مضاء في مرحلة الطّلب والتّلمذة- فقد اتّسم - عموما- بالجمود الفكريّ، وكادت تخلو فيه الأندلس من الحياة الفكريّة المنطلقة الّتي عاشتها في ظلال أمراء الطّوائف ويُعزى ذلك إلى سيطرة فقهاء المالكيّة الّذين كانت معارفهم لا تعدو فروع مذهبهم، وأمّا في عصر الموحّدين فقد عادت الأندلس لتنطلق في حياتها الفكريّة والأدبيّة، وعادت صورتها الزّاهية الّتي كانت في عهد أمراء الطوائف [17].

ب/- شيوخه وتلامذته: أخذ عن ابن الرَّمَّاك (ت541هـ) كتاب سيبويه تَفَهُّما، وسمع عليه وعلى غيره من الكتب النّحويّة واللّغويّة ما لا يحصى [18] ومنهم: أبو عبد الله بن أصبع، وعرض عليه الموطّأ، وأبو جعفر أحمد بن عبد

العزيز، وابن عمّه أبو بكر، وأبو جعفر البطروجيّ، وابن أبي الخصال، وأبو الطاهر التّميميّ، وابن سرّة، وأبو بكر بن مدير، وأبو القاسم بن رضيّ، وأخذ عنه القراءات، وغيرهم. وأخذ العربيّة والآداب عن أبي بكر بن سمجون، وأبي العبّاس بن خصيب، ورحل إلى إشبيليّة وأخذ عن شريح قراءتي نافع وابن كثير ولازم أبا القاسم بن الرَّمَّاك لتعلّم العربيّة، وسمع منهما ومن أبي بكر بن العربي (ت543هـ) بعد سماعه منه بقرطبة، ولقي بالمَرِّيَةِ أبا محمّد عبد الحقّ بن عطيّة وأبا عبد الله بن وضّاح، وأبا الحجّاج بن القُضَاعِيّ، وأبا عبد الله محمّد بن أحمد الحمزيّ، وأبا الفضل بن عِيَاض وأجاز له ابن مَوْهِب، وابن قَنْدَلَة، وأبو مروان البَاجيّ، وأبو العبّاس بن ثعبان وغيرهم [19].

وجاء أيضا أنّ من أساتذته في الفقه بعد ابن العربي نجد البطروجيّ والرّشاطيّ، وأبا محمّد بن المناصف، ومن أساتذته من علماء العربية أيضا نجد أبا بكر ابن سليمان بن سحنون، وابن بَشْكَوَال وقد تتلمذ له خلائق لا يحصرون كثرة من جِلَّة أهل عصره؛ منهم: أبو بكر بن الشّرّاط، وأبو محمّد البلويّ، وعمر بن محمّد الشّلّوبين [20].

ت/- وفاته ومؤلّفاته: تُوُفِّيَ بإشبيليّة مصروفا عن القضاء: يوم الخميس السّابع والعشرين من جمادى الأولى، من سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة (592هـ) وقال ابن حوط الله: تُوُفِّي في سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة (593هـ) وحكى غيره: إنّه توفّي قبل صلاة العصر من يوم الخميس المذكور قبلُ، إلا أنّه قال: الثّاني والعشرين من جمادى الآخرة، ودُفن بعد صلاة الجمعة، فكانت مدّة عمره سبْعا وسبعين سنة غير ثلاثة أشهر وسبعة أيّام [21]. وقيل إنّه توفّي يوم السّابع عشر من جمادى الأولى، وقيل في الثّاني عشر من جمادى الآخرة من سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة (592هـ) [22] وفي التّأريخ الميلاديّ توفّي في سنة خمسٍ وتسعين ومئة وألف (1195م) [23].

له في العربيّة تأليف مفيد سمّاه: (المشرق في النّحو) وكتاب (تَنْزِيه القرآن عمّا لا يليق من البيان) وقد ناقضه أبو الحسن بن خروف، وردّ عليه في هذا التّأليف بكتاب سمّاه: (تَنْزِيه أئمّة النّحو عمّا نُسِب إليهم من الخطأ والسّهو) ولما بلغه ذلك قال- أي ابن مَضَاء- : "نحن لا نبالي بالكباش النّطّاحة وتعارضنا أبناء الخرفان" [24]، وله كتاب ثالث وهو المعروف بكتاب: (الرّدّ على النّحاة) أو (الرّدّ على النّحويّين) ولم يصلنا من آثار ابن مضاء إلاّ كتابه الأخير.

❖ **الكتاب الأوّل (المشرق في النّحو):** يذكر في بعض كتب التّراجم باسم: (المشرق في إصلاح المنطق) ثمّ يُذيّل بعبارة: (وهو لُبَاب كتاب سيبويه) فقد كان أوّل مُؤَلّف نحويّ باقٍ إلى الآن، وقد اتّبع طريقة صحيحة - إلى حدٍّ كبير- في البعد عن التّعقيد والمنطق اللّذين مُنِيَ بهما النّحو فيما بعد، فلعلّ المقصود بهذه العبارة أنّ ابن مَضاء قد أفاد من كتاب سيبويه في كتابه (المشرق) واقتبس منه عرض النّصوص اللّغوية وتناولها [25].

يقول ابن مضاء في كتابه الرّدّ على النّحاة - في بابي التّنازع والاشتغال- : "فإن قيل: أنت قد أبطلتَ أنْ يكون في الكلام عامل ومعمول فأرنا كيف يتأتّى ذلك مع الوصول إلى غاية النّحو، قلتُ أورد هذا في أبواب تدلّ على ما سواها بالأحرى، وقد شرعت في كتاب يشتمل على أبواب النّحو كلّها فإنْ قضى الله – تعالى- بإكماله انتفع به من لم يَعِقْهُ عنه التّقليد، وإلاّ فيستدلُّ بهذه الأبواب على غيرها" [26]، ويبدو أنّ المقصود بمؤَلّفه الذي يشتمل على أبواب النّحو كلّها هو: (المشرق) وأنّه كان تطبيقا للأصول الّتي كانت في كتابه: (الرّدّ على النّحاة). وجاء أنّ كتابه (المشرق) ورد بالفتح (المَشرق) ليدلّ على جهة الشّرق؛ أي أنّ هذا الكتاب أُلِّفَ ضدّ المشرق، وجاء أيضا في بعض المصادر بالضّمّ (المُشرق) بمعنى النّحو المُضيء الصّافي الخالي من التّعقيدات والجدل [27].

❖ **الكتاب الثّاني (تنْزيه القرآن عمّا لا يليق بالبيان)**: لم يُعثر عليه إلى الآن، ولا يمكن القطع إنْ كان من كتب الفقه أو من كتب العربية، فابن مضاء فقيه ظاهريّ المذهب، وللظّاهرية موقف خاصّ من النّصوص، وربمّا ألّفه في نصوص القرآن تنزيها لها عن التّأويل والتّكلّف كما صنع الإمام ابن حزم (ت456هـ) في كتابه: (الإحكام في أصول الأحكام) [28].

ث/- ظاهريّة ابن مَضاء: في القرن الهجريّ الثّالث - بعد أنْ فرضت المذاهب الفقهيّة الأربعة سلطانها على العقول والقلوب- وُجد في بغداد عالم جليل ينادي بمذهب جديد هو: داود بن علي الأصفهانيّ (ت270هـ) الّذي أخذ بالكتاب والسنّة، وألغى ما سوى ذلك من رأي وقياس [29]. لكنّ هذا المذهب لم ينل ما يستحقّه من الشّهرة والنّفوذ، مع أنّ أئمّة الظّاهريّة قد تتابعوا بعد ذلك وأنّ المذهب قد لاقى نجاحا في العراق وفارس وخراسان وبلاد الشام، ووصل هذا المذهب إلى الأندلس في القرن الخامس، وتلقّفه ابن حزم الأندلسيّ الّذي وطّد أركان هذا المذهب، لتأتي دولة الموحّدين الّتي طبقت منهجه، وتبنّت آراءه [30].

كلّ ذلك وغيره جعل ابن مضاء يتأثّر بالمذهب ويعتنقه، حتّى أنّه صار حجّة في المذهب الظّاهريّ، فبعد أنْ ولاّه الموحّدون قضاء فاس ثمّ ولّوه قضاء الجماعة، كان طبيعيّا أنْ يحمل حملتهم على أصحاب المذاهب الفقهيّة، لِمَا ملأوا به كتبهم من فروع، بل لقد تحوّلوا بحملتهم إلى ما يشبه ثورة عنيفة، فإذا هم يأمرون بإحراق كثير من تلك الكتب، وحَمْل النّاس في دولتهم بالمغرب والأندلس على المذهب الظّاهريّ الّذي يرفض القياس وما يتّصل به من علل، ويكتفي بالظّاهر من القرآن العظيم والحديث النّبويّ الشّريف، وقد استلهم ابن مضاء هذه الثّورة لا في حملةٍ على الفقه والفقهاء، وإنمّا في حملة على النّحو والنّحاة، إذْ وجد مادّة العربيّة تتضخّم بتقديراتٍ وتأويلات وأقيسة وفروع وآراء لا حصر لها، ولا غنَاء حقيقيّا في تتبّعها، أو –على الأقلّ- في تتبّع الكثير منها

فمضى يهاجمها في كتبه الثّلاثة [31]، إذن فابن مضاء كان ظاهريّا في النّحو [32].

وقد تبعه في بعض آرائه النّحويّة كثير من الدّارسين المحدثين على غرار عبّاس حسن وشوقي ضيف، هذا الأخير الّذي تحدّث –في تقديمه لكتاب الرّدّ على النّحاة- عن بعض الأفكار والأسس الجديدة في النّحو، حيث رسم تصنيفا جديدا للنّحو على ضوء آراء ابن مضاء، يقوم على ثلاثة أسس:

- تنسيق أبواب النّحو؛ بحيث يُستغنى عن طائفة منها بردّها إلى أبواب أخرى؛

- إلغاء الإعراب التّقديريّ في الجمل، وكذلك في المفردات مقصورةً ومنقوصةً ومبنيّة؛

- أنْ لا تُعرَب كلمة لا يفيد إعرابها شيئا في تصحيح الكلام، والنّطق به نطقا سليما [33].

وقد لقيَ موضوع إصلاح النّحو وتيسيره على النّاشئة والمتعلّمين اهتمامًا كبيرًا وواسعًا في العقود الأخيرة، لاسيما بعد النّتائج الإيجابيّة الّتي حقّقتها الدّراسات اللّغويّة الحديثة، على صعيد البحث اللّساني النّظريّ والتّطبيقيّ ولاسيما أيضا أنّنا نعيشُ عصرًا يتلقّى فيه التّلميذ العربيّ الفصحى صناعةً وتعلُّمًا، لا طبْعًا واكتسابًا، وهي فكرةٌ –فكرة تجديد النّحو– تضمّنتْها أعمالُ ومؤلّفاتُ عددٍ من الباحثين واللّغويّين والتّربويّين، من بينها كتاب (إحياء النّحو) لإبراهيم مصطفى، وكتاب (مناهج التّجديد في النّحو والبلاغة والتّفسير والأدب) لأمين الخولي، وكتاب (اللّغة العربيّة، معناها ومبناها) لتمّام حسّان وكتابي (في النّحو العربيّ، نقدٌ وتوجيه) و(في النّحو العربيّ، قواعدٌ وتطبيق) لمهدي المخزوميّ. كما عُقِدت من أجله العديد من المؤتمرات والنّدوات واللّقاءات في مختلف أنحاء العالم العربيّ؛ من أهمّها: ندوة تيسير تعليم النّحو؛ نظّمها إتّحاد

المجامع اللّغويّة العلميّة العربيّة في عام 1976م، وندوة تيسير النّحو المنعقدة في أفريل 2001م، نظّمها المجلس الأعلى للّغة العربيّة بالجزائر [34].

وهناك من يقول إنّ ابن مضاء كان ظاهريّا في الفقه لا في النّحو، فلما أراد أنْ ينصر مذهبه الظاهريّ ويدعم ثورة الموحّدين على مذاهب الفقه، تصدّى إلى النّحو العربيّ بكتابه (الرّدّ على النّحاة) رغبةً في هدم النّحو المشرقيّ –وإن لم يقصد هدم النّحو لذاته- وإنمّا كان يهدف إلى هدمه باعتباره وسيلةً لفهم الفقه المشرقيّ، وحجّةُ ذلك أنّه كان يقضي بين النّاس بالمذهب الظاهريّ. كما أنّه كان ينفي من النّحو كلَّ ما لا يستقيمُ ومذهبَه الظّاهريّ، فينفي من النّحو العللَ الثّواني والثّوالث، مثلما تنفي الظّاهريّةُ العللَ من الشّرعِ الحنيفِ، فالفقيهُ في المذهبِ الظّاهريّ لا يحتاجُ إلى تعليلِ ما حُرِّمَ بالنَّصِّ. ولأنّ المذهب الظّاهري لا يعتدّ بالقياس في الفقه، فقد دعا ابنُ مَضَاءٍ إلى إلغاءِ القياسِ من النّحو أيضا وأمثلةٌ أخرى كثيرة.

2/- كتاب الرّدّ على النّحاة:

أ- عصر الكتاب: أُلّف كتاب (الرّدّ على النّحاة) في عصر الموحّدين وهو من أزهى العصور الّتي مرّت على الأندلس والمغرب، من حيث ازدهار الحياة العلميّة والفلسفيّة، ويكفي في تشخيص ذلك وتصويره ،أنّه أظَلَّ ابن طفيل وابن زهر، وابن رشد (520- 590 هـ) وكانت الدّولة - حينئذٍ - تعمل على إيقاظ عقل الشّعب، وأن يكون عقلا مستقلا ؛ ثائرا في كلّ ما يُعتنق من مذاهب وآراء [35]. وهو عصر ثورة على المشرق وأوضاعه في الفقه وفروعه، وقد كانت دولة الموحّدين - وبخاصّة في عهد يعقوب بن يوسف (ت1213م) - تدعو إلى هذه الثّورة، وتأمر بحرق كتب المذاهب الأربعة، وقد تبع ابن مضاء هذه الثّورة من يعقوب بن يوسف، وألّف كتابه "الرّدّ على النّحاة" يريد أن يردّ به نحو المشرق على المشرق، أو - بعبارة أدقّ - يريد أن يردّ بعض أصول هذا النّحو [36].

لقد كانت الأندلس على عهد الموحّدين عامرة بالمدارس المتناثرة في قواعدها، وكان النّحو يشغل الدّارسين، ويستنفد كثيرا من جهدهم، ووقتهم وكانت حملة النّقّاد - من أمثال ابن مضاء ومن تقدّمه - ترجع إلى أنّ النّحاة - في دراستهم - التزموا ما لا يلزمهم، وأصبح عملهم حافلا بأمور تجافيها طَبَعِيَّة العلم [37].

ب- التّعريف بالكتاب: كتاب الرّدّ على النّحاة هو نسخة مخطوطة محفوظة في المكتبة التّيْموريّة بدار الكتب المصريّة رقمها (365 نحو) وقد نُسخت في سنة ألف وثلاثمئة وثمانية عشر هجريّة (1318هـ) فهي نسخة حديثة العهد [38]، حقّقها شوقي ضيف في عام 1947م، وهناك نسخة أخرى موجودة بمعهد المخطوطات العربيّة المصوَّرة عن المكتبة الخليليّة بالقدس، وتقع في (35/ق) برقم (30 من 668) [39]. وبعد ثلاثين عاما من تحقيق شوقي ضيف للكتاب، حقّقه ونشره محمّد إبراهيم البنّا. ليطبع بدار الاعتصام عام 1979م وقد اعتمد على النّسختين؛ النّسخة الأولى الّتي اعتمدها شوقي ضيف، والنّسخة الثّانية الّتي تبدو قديمة العهد جدّا، قريبة من عصر المؤلف [40]. ليردف التّحقيقين تحقيقٌ ثالث لمحمّد حسن محمّد حسن إسماعيل، طبعته دار الكتب العلميّة ببيروت في سنة 2007م معتمدا فيه النّسخةَ الثّانية.

ت- دوافع تأليفه: اهتمّ الدّارسون بهذا الكتاب ليس لأنّ فيه نحوا جديدا، وإنمّا لأنّ ابن مضاء وعد بأنْ يخلّص النّحو من أثقاله [41]، وما جاء فيه من أقوال جديدة - نوعا ما- إنمّا هو امتداد لما عُرِف عن بعض النّحاة في مجالسهم في المشرق والمغرب، فمن قبله هاجم ابن حزم الظّاهريّ العلل النّحويّة وكان في المشرق –حينئذ- ابن سنان الخفّاجيّ (466هـ) له الرّأي نفسه في العلل، وقد حكى عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) ما أنكره معاصروه في النّحو ومنها: العلل [42]، ويبدو أنّ أبا الوليد بن رشد - قرين ابن مضاء ومعاصره- قد شغله أمرُ النّحو والنّحاة، وما رآه من استغراقهم في مسائله

وتوسّعهم في بحوثه وصرفهم الجهودَ إلى درسه، حتىّ صار لكلّ شيخ مذهب ينافح عنه، ويُعنى بتكوين من يقوم به من التّلاميذ، كلّ ذلك جعله يصنّف كتابه (الضّروريّ في النّحو) وهو عنوان دالٌّ على مضمونه [43].

لقد حاول ابن مضاء وضع نَمَوْذَجٍ جديد لوصف اللّغة العربيّة والتّقْعِيدِ لها وفْقَ أصول ومبادئ فكريّة وفلسفيّة، تختلف اختلافا جذريّا عن تلك الّتي وضعتها البصرة، وذلك مع اعترافه بقيمتها والهدف من وضعها، يقول: "وإنيّ رأيتُ النّحويّين- رحمة الله عليهم- قد وضعوا صناعة النّحو لحفظ كلام العرب من اللّحن، وصيانته عن التّغيير، فبلغوا من ذلك إلى الغاية الّتي أَمّوا وانتهوا إلى المطلوب الّذي ابتغوا" [44]. إلاّ أنه وجد النّحاة قد تزيّدوا في النّحو على صورة تأباها طَبعيَّة الدّراسة فيه ورأى أنّه وقع بينهم من الخلاف فيه - وفي كثير من أصوله- ما يوشك أن يباعد بينهم وبين مصادره الأولى، بل يوشك أن يضعفَه ويوهنه، يقول: "إلاّ أنهّم التزموا مالا يلزمهم، وتجاوزوا فيها القدْرَ الكافي فيما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها، ووهنت مبانيها، وانحطّت عن رتبة الإقناع حججها" [45]. ثمّ يردف قائلا: "على أنّها إذا أخذت [أي دراسات النّحاة الأقدمين] المأخذَ المبرّأ من الفضول، المجرّد عن المحاكاة والتّخييل، كانت من أوضح العلوم برهانا، وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانا، ولم تشتمل إلاّ على يقين، أو ما قاربه من الظّنّون" [46].

ثمّ يبيّن ابن مضاء أهمّيّة كتابه - مُقَارِنًا بينه وبين ما سبقه من مصنَّفات الأوّلين- : "ومثل هذا المكتوب وكتب النّحويين، كمثل رجال ذوي أموال عندهم الياقوت الرّائق، والزّبرجد الفائق والذّهب الإبريز، والورق التي بَرَزَتْ في الخلوص كل التّبريز، وقد خالطها من الزّجاج الّذي صفا حتىّ ظُنَّ زبرجدا والنّحاس الّذي عولج حتىّ حُسِبَ عسجدا، ما هو أبهى منظرا، وأعظم في مرأى العين خطرا وأكثر عدّة، وأجدّ جدّة، حتّى صاروا بهما أَلْهَجْ، وظنّوا أنهم إليها أحوج، فأتاح الله لهم رجلا ناصحا وناقدا بصيرا، فأظهروه على ما لديهم من

تلك الذّخائر النّفيسة المُونِقَة [47]، فقال لهم:.هذا الّذي اتّخذتموه عدّةً للدّهر وظننتموه أمانا من الفقر، بعضه مال، وبعضه لمع آلْ [48]" [49].

ثمّ يحدّد الهدف والغاية الّتي جعلته يَضع كتابه هذا قائلا: " قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النّحو ما يستغني النّحويّ عنه، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه" [50]. يبيّن أنّه لا يقصد الإتيان بنحو جديد، أو اختراع مسائل لم تكن فيه من قبل، بل إنمّا انحصرت مَهمّته في تعديل ما اعوجَّ وتقويم ما مال والاعتدال فيما لحقته المبالغة، والتّنبيه إلى ما أصابه الخطأ مسترشدا –كما قال- بحديث رسول الله ﷺ: {الدِّينُ النَّصِيحَةُ} [51].

ث- منهجيّة الكتاب وموضوعاته: الكتاب يبدأ بمقدِّمة تليها خمسة فصول، تحدّث ابن مضاء في المقدِّمة عن الغرض الّذي جعله يؤلّف مؤلَّفه هذا ذاكرا بعض الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتي دفعته إلى ذلك، ثمّ ينصح القارئ لهذا الكتاب أن يأخذ منه ما يراه نافعا ناجعا، ويَذَرَ غيره، ثمّ يتكلّم عن أهمّيّة هذا الكتاب وتفرُّدِه عمّا سبقه، وتميّزه بآرائه ومسائله عمّا ورد في نَتَاجات الأوّلين، ثمّ يردّ بعد ذلك على بعض من قد يستهزؤون بآرائه، أو يستصغرون دعوته، أو يصعّبون عليه مَهمّة الرّدّ على جماعة النّحاة، ويبيّن لهم فضله وأحقّيّته وجدارته بهذه الآراء وتلك المهمّة.

ثمّ عَنْوَنَ الفصول الخمسة بالآتي: (فصلٌ عن إلغاء العوامل، فصل عن النّحو من غير عامل ومعمول، إسقاط العلل الثّواني والثّوالث، إسقاط التّمارين) وهذه الفصول الثلاثة في مجملها أثارت ثلاث قضايا رئيسة: العامل، العلل الثواني والثّوالث، والتّمارين غير العمليّة، وكان الفصلان الثّاني والثّالث تابعين في المضمون للفصل الأول، فقد طبّق ابن مضاء في إلغاء العوامل على باب التّنازع في الفصل الثّاني، وطبّقه في الفصل الثّالث على باب الاشتغال.

في هذا الكتاب بدأ ابن مَضَاء بنظريّة العامل والمعمولات يبتغي نقضَها ونقضَ كلّ ما جرّت إليه من عوامل لفظيّة ومعنويّة، ومن معمولات مذكورة

ومضمرة ومحذوفة، حيث يهاجم نظريّة العامل الّتي عقّدت النّحو وأكثرت فيه من التّقديرات، والمباحث الّتي لا طائل من ورائها في رأيه ويفصّل القول فيما أدخلته هذه النّظريّة على النّحو من عقد التّقديرات - على نحو ما هو معروف في العوامل المحذوفة- ممّا يُبعد الصِّيَغ عن وجهها الطبيعي، ويدفع إلى تمحُّلاتٍ لا داعي لها؛ كتقدير أنّ الظّرف والجارّ والمجرور إذا وقعا أخبارا أو صلات أو أحوالا يتعلّقان بعامل محذوف، ولا حذف هناك ولا عامل - في رأيه- ولا عمل [52].

ويذهب إلى أنّ ضمائر التّثنية والجمع ليست ضمائر، بل هي علامات تدلّ على التّثنية والجمع، ودرس باب التّنازع دراسةً مفصَّلة؛ موضِّحا ما جلبه فيه النّحاة من صيغ معقّدة عسرة، لم ينطق بها العرب، ولا وقعت في أذهانهم. وبالصّورة نفسِها درس باب الاشتغال؛ إذْ وزّع النّحاة الصّيغ فيه إلى ما يجب رفعه وما يجب نصبه، وما يترجّح فيه الرّفع أو النّصب، وما يجوز فيه الأمران مقدِّرين- في أكثر الصيغ- عوامل محذوفة لا دليل عليها في الكلام، وذكر ابن مضاء أنّه لا داعي لكلّ هذه التّقديرات وما يطوى عليها من أقسام [53].

ثم درس باب فاء السّببيّة وواو المعيّة، اللّتين يُنصب بعدهما المضارع مصوِّرا تعسُّف النّحاة في التّأويل والتّقدير، مستلهما مذهبَه الظّاهريّ الّذي يرفض ما وراء ظاهر النّصوص من تقديرات وتأويلات، ويتّسع في استلهام هذا المذهب. فإذا هو يهاجم – مستضيئا بابن جنّي في إنكاره علّة العلّة- العللَ الثّواني والثّوالث؛ كالتّعليل لعمل (إنّ) النّصبَ والرّفعَ، ولماذا لم تنصب الثّاني وترفع الأوّل كالفعل، ممّا ليس فيه نفع ولا فائدة في ضبط اللّسان [54]. كما يهاجم الأقيسة النّحويّة وما حُشد منها في جميع أبواب النّحو، ممّا يبعد تصوّره ويصعّب فهمه، ولا يفيد في النّطق السّليم بالعربيّة أيّ فائدة في رأيه، وبالمِثل يهاجم القياس ملاحظا تارة ضعفه، وتارة فساده، كما يهاجم التّمارين غير العملية؛ لأنّ ذلك –في رأيه- فضول ينبغي أن يبرّأ منه النّحو، ويُخَلَّصَ تخليصا

حتىّ لا يكون فيه عسر ولا صعوبة [55]. ويوردُ أثناء حديثه عن التّمارين غير العمليّة آراء النّحاة فيها، وشدّة اختلافهم في مسائلها وكيف أنّها تشغل النّحاة بوجوهٍ وعِلَلٍ لا حاجة لنا بها، فقد قالوا –مثلا- : ابْنِ من (البيع) على مثال (فُعْل) فقال قومٌ: هي (بَوْع) وقال آخرون: بل هي (بيْع) واحتجَّ كلٌّ لرأيه، فماذا تفيدُنا –كما يرى ابن مضاء– صيغَةُ (بوع أو بيع) الّتي لم تأتِ عن العرب، والّتي لسنا في حاجةٍ إلى استعمالها ؟! [56] وابن مضاء يقول: "النّاس عاجزون عن حفظ اللّغة الفصيحة الصّحيحة، فكيف بهذا المظنون المُستَغنى عنه" [57].

ج- **خصائص الكتاب وميزاته:** أهمّ ما يكتنف هذا الكتاب من مميّزات وخصائص على الرّغم من صغر حجمه وقلّة عدد صفحاته - مقارنةً بمصنّفات النّحاة القدامى ومؤلّفاتهم الضّخمة- هو أنّه يمتاز بالدّقّة العلميّة في الأسلوب، والتّطرّق إلى جواهر المسائل، وملامسة نواة الأصول والمباحث والاكتفاء بالإشارة إلى الفروع والتّوابع من المسائل، كما يحرص صاحب هذا الكتاب على تدعيم آرائه، وما جنح إليه من مسائل بكثير من الأدلّة السّاطعة، والبراهين المقنعة، والحجج القاطعة، وهذا ما يراه المطالع لهذا الكتاب، إذْ لا يرى مسألة إلاّ وهي مشفوعة بدليل، مفسّرة بمثال، يوضّح إشكالها، ويفتح أقفالها، كما استخدم أيضا ابن مضاء أسلوبا راقيا وقويّا، ولغةً متماسكة فيها كثيرٌ من البراعة والجمال، وذلك ما نلمسه وبخاصّة في مقدِّمة الكتاب.

وقد وشّح مقدّمة الكتاب بسجع جميل، وتوافق بديع، على شاكلة المقامات، كما زخر الكتاب بكثير من التّرادفات، وعطف المعنى على المعنى نفسِه، أو القريب منه، ومن أمثلة ذلك كلّه: (فبلغوا من ذلك إلى الغاية الّتي أمّوا، وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا) (فتوعّرت مسالكها، ووهنت مبانيها وانحطّت عن رتبة الإقناع حججها) (كانت من أوضح العلوم برهانا، وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانا) (عندهم الياقوت الرّائق، والزّبرجد الفائق) (فَعَجَمَهُمْ الزّمان عَجْمَة، وَضَغَمَتْهُمْ الحوادث ضَغْمَة وأصابتْ مدينتهم أزمة)

(وإنّك أخمل من بقّة في شقّة، وأخفى من تَبِنَة في لَبِنَة). كما أكثر - أيضا- من التّشبيه والتّمثيل، فمثلما مثّل - في معرض حديثه عن كتابه ومقارنته بكتب الأوّلين- برجال ذوي جواهر وكنوز، خالطها ما ليس منها، فجاءهم ناصح يريد تبصيرهم، فإنّه - أيضا- مثّل في بعض المسائل الأخرى، كما نراه مستخدما بعض الأساليب الشّرعيّة الدّينيّة الّتي من بينها استشهاده ببعض الأحاديث النّبويّة الشّريفة في ثورته النّحويّة، دون أن ننسى أنّ الكتاب تضمّن خمسا وعشرين آية وخمسة أحاديث، واستشهد أيضا ببعض الأبيات الشعرية التي بلغ عددها أكثر من خمسين بيتا (54 بيت).

3/ - العلّة عند ابن مضاء: (العلل الثّواني والثّوالث).

العلّة لغةً عبارة عن معنى يحلّ بالمحلّ، فيتغيّر به حال المحلّ بلا اختيار ومنه يُسمّى المرض علّة؛ لأنّه بحلوله يتغيّر حال العليل، من القوّة إلى الضَّعف وقيل هي ما يتوقّف عليه وجود الشّيء، ويكون خارجا مؤثرا فيه. وتنوّعت العلّة على اعتبارات مختلفة، فالعلّة التّامّة هي ما يجب وجود المعلول عندها، والعلّة النّاقصة بخلاف ذلك، وعلّة الشّيء ما يتوقّف عليه ذلك الشّيء، وهي إمّا علّة الماهية؛ أي ما تقوم به الماهية من أجزائها، وإمّا علّة الوجود؛ أي ما يتوقّف عليه اتّصاف الماهية المتقوّمة بأجزائها بالوجود الخارجي [58].

وأمّا **العلّة النّحويّة** الجامعة بين الأصل والفرع فهي الّتي عليها حُمِلَ الفرع على الأصل، أو على حكم الأصل، وغير مدخولة بالنّقض والإبطال، ولا مُتَسَمَّح في عدم التّثبّت فيها عند القدرة على ذلك [59]. وقد بدأ البحث عن العلّة في لغة العرب وأساليبهم منذ القرن الثّاني الهجريّ، ويُعتقد أنّ أوّل من تحدّث بتوسُّعٍ في العلل النّحويّة هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ (ت117هـ) ثمّ ظهرت العلل في أوضح صورها، وأشدّها توسّعا عند الخليل وسيبويه، إلاّ أنّ هذه الفترة أي القرن الهجريّ الثّاني شهدت بداية دخول كتب المنطق والفلسفة ونقلها إلى

العربيّة، ممّا كان له تأثيرها الكبير الواضح في علوم العربيّة، ومنها النّحو وظهر فيه تأثير المنطق جليّا في العلل [60].

ولعلّ أوّل من تأثّر بالفلسفة من علماء النّحو الفرّاءُ (ت207هـ) الّذي كان قريبا من الاعتزال ممّا دفعه للاطّلاع على كتب الفلسفة والطبّ والنّجوم، وفي القرن الهجريّ الرّابع بلغت العلّة النّحويّة أَوَج نضجها مع أبي القاسم الزّجّاجيّ (ت337هـ) في كتابه (الإيضاح في علل النّحو) إذْ قسّم العلل ثلاثة أقسام رئيسة هي: العلل التّعليميّة، والعلل القياسيّة، والعلل الجدليّة النّظريّة، وجاء السّيرافي (ت368هـ) بعده وشرح كتاب سيبويه، وكانت علل النّحو عنده قائمة على التّعليل العقليّ، والحِجاج المنطقيّ [61].

والعلّة على نوعين :

❖ علّةٌ مُظْهَرَةٌ حِكْمَةً وسمّاها بعضهم علّة العلّة أو متمّم العلّة؛ أي بإظهار حكمتها، فهي شرْح لها يصحّ الاستغناء بها، كأنْ يُقال في علّة رَفْعِ زيد: لأنّه فاعل، فيقال في حكمة ذلك: إنّما ارتفع الفاعل لأنّه أُسْنِد إليه، وقد تكون الحكمة صالحة لتتميم العلّة والحكمة؛ كتعليل رفع الفاعل بالفرق بينه وبين المفعول.

❖ وعلّة مُوجِبَة لطَرْدِ كلامهم، وسَوْقِهِ على قانون لغاتهم، وهي الأكثر استعمالا والأشدّ تداولا [62] وأمّا أقسامها فإنّ فيها أربعا وعشرين علّة وهي على الاختصار:

1- علّة السّماع: وهي الّتي عليها مدار النّحو، كرفع الفاعل، ونصب المفعول.

2- علّة التّشبيه: وهي كالقياس، وقرينة السّماع، كرفع اسم (كان) تشبيها بالفاعل.

3- علّة الاستغناء: كحذف كلٍّ من المبتدأ والخبر فيما يجب حذفه فيه، استغناءً عنه بما قام مقامه.

4- علّة الاستثقال: كتقدير الضمّة والكسرة في المنقوص.

5- علّة الفَرْق: كتجرّد خبر أفعال الشّروع من (أنْ) وكثرة لحاقها لخبر أفعال الرّجاء، للفرق بين الشّروع وهو حاليّ، وبين الرّجاء وهو مستقبليّ.

6- علّة التّوكيد: كإدخالهم النّون الثّقيلة والخفيفة في فعل الأمر لتوكيد إيقاعه.

7- علّة التّعويض: كتنوين العِوَض عن الياء أو حركتها في (جوارٍ).

8- علّة النّظير: كحمل أفعال المقاربة على الأفعال النّاقصة؛ لكونها نظيرتها في عدم حصول الفائدة بمرفوعها فقط.

9- علّة النّقيض: كإعمال (لا) الّتي لتوكيد النّفي عملَ (إنّ) الّتي لتوكيد الإثبات.

10- علّة الحَمْل على المعنى: وهو المُعبَّر عنه بالعطف على المعنى والعطف على المحلّ، كتذكير (جاءه) في قوله تعالى: ﴿ فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [البقرة:275] وهي مؤنّثة حملا على المعنى وهو: الوعظ.

11- علّة المشاكلة: وهي في اللّفظ كتنوين غير المنصرف لمجاورته المنصرف؛ نحو قوله تعالى﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان:4].

12- علّة المعادلة: أي المقابلة والموازنة، كتنوين المقابلة في جمع المؤنّث السّالم، فإنّه في مقابلة النّون في جمع المذكر السّالم.

13- علّة القرب والمجاورة: كقولنا (هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ) فقد جُرّ (خربٍ) لمجاورته المجرور وكان أصله الضمّ؛ لأنّه صفة لجحر وليس لضبّ.

14- علّة الوجوب: كانقلاب كلٍّ من الواو والياء ألفا عند تحرّكه وانفتاح ما قبله.

15- علّة الجواز: كإلحاق علامة التّأنيث للمسند المجازيّ التّأنيث الظّاهر؛ مثل: أَوْرَقَت الشّجر وأورق الشّجر.

16- علّة التّغليب: كالعمرين ﴿ وكُتُبِهِ ﴾ [التّحريم:12] والتّغليب قد يكون للشّرف أو للتّخفيف أو للكثرة.

17- علّة الاختصار: كحذف النّون من مضارع (كان) المجزوم بالسّكون، في نحو قول الله تعالى ﴿ ولَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم:20].

18- علّة التّخفيف: كالإدغام.

19- علّة دلالة الحال: كحذف العامل في نحو قولنا: (الهلال) ففي الرّفع يكون العامل (هذا) وفي النّصب يكون العامل (انظر).

20- علّة الأصل: كالسّكون في البناء.

21- علّة التّحليل: كالاستدلال على اسميّة (كيف) بنفي حرفيّتها إذا ضُمّت إلى اسم تركّب منها كلام ونفي فعليّتها لمجاورتها الفعل بلا فاصل في نحو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ [الفيل:01] لأنّ الفعل لا يُسْنَدُ لمثله.

22- علّة الإشعار: كجمع (موسى) على (مُوسَوْن) بفتح ما قبل الواو الثّانية إشعارًا بأنّ المحذوف (ألف) وهكذا في كلّ مقصور.

23- علّة التّضاد: كقولهم: الأفعال الّتي يجوز إلغاؤها - كأفعال القلوب- متى تقدّمت وأُكّدت بالمصدر أو بضمير لم تُلْغَ أصلا؛ لِمَا بين التّوكيد والإلغاء من تضادّ؛ لأنّ الإلغاء يقتضي الإهمال وعدم الاعتداد بالشّيء فَعِلَّةُ عدم إلغائها التّضادّ.

24- علة الأَوْلى: كتقديم الفاعل على المفعول؛ لأنّه أحقّ بذلك رتبةً وأوْلى [63].

وعلل النّحو - كما قال أبو القاسم الزّجّاجيّ (ت337هـ)- على ثلاثة أضرب:

1/- العلّة التّعليميّة: هي الّتي يُتوصّل بها إلى تعلّم كلام العرب؛ لأنّنا لم نسمع كلّ كلامها لفظا، وإنّما سمعنا بعضه فقسناه على نظيره؛ فمن هذا النّوع من العلل قولنا (إنّ زيدًا قائمٌ) فإنْ قيل: بِمَ نصبتم زيدا؟ قلنا: بإنّ؛ لأنّها

تنصب الاسم وترفع الخبر، وكذلك (قام زيدٌ) إنْ قيل: لِمَ رفعتم زيدًا؟ قلنا: لأنّه فاعل اشتغل فعله به فرفعه، فهذا وما أشبهه من نوع التّعليم، و به ضُبط كلام العرب [64].

2- /العلّة القياسيّة: وتسمّى علّة العلة، ويرى ابن جنيّ (ت391هـ) أنّ تسمية هذا النّوع من العلل بعلّة العلّة ضرب من التّجوز في اللّفظ، فأمّا الحقيقة- كما يقول- فإنّها شرحٌ وتفسيرٌ وتتميمٌ للعلّة [65]، وهي أنْ يُقال لمن قال: نصبتُ زيدا بإنّ - في قوله (إنَّ زيدًا قائمٌ)- : ولِمَ وجب أن تنصب (إنّ) الاسمَ؟ فالجواب في ذلك أن يقول: لأنّها وأخواتها ضَارَعَتْ الفعل المتعدّي إلى مفعول، فحُملت عليه وأعملت إعماله لما ضارعته، فالمنصوب بها مشبَّه بالمفعول لفظا، والمرفوع بها مشبَّه بالفاعل لفظا، فهي تشبه من الأفعال ما قُدِّم مفعولُه على فاعله؛ نحو (ضربَ أخاك محمّدٌ) [66].

3- /العلّة الجدليّة النّظريّة: هي كلّ ما يُعتلُّ به بعد هذا الّذي سبق؛ مثل أنْ يقال في باب إنّ - مثلا- : فمن أيّ جهة شابهت هذه الحروفُ الأفعالَ؟ وبأيّ الأفعال شبّهتموها؟ أبالماضية أم المستقبليّة، أم الحادثة في الحال، أم المتراخية أم المنقضية بلا مهلة؟ وحين شبّهتموها بالأفعال لأيِّ شيءٍ عَدَلْتُمْ بها إلى ما قُدّم مفعوله على فاعله؟ وهلاّ شبّهتموها بما قدّم فاعله على مفعوله؛ لأنه هو الأصل وذاك فرع منه؟ فأيُّ علّة دعتكم إلى إلحاقها بالفروع دون الأصول؟ وأيّ قياس اِطَّرَد لكم في ذلك؟ وغير ذلك من الأسئلة الّتي يكون كلُّ جواب يَعتلّ به المسؤول عنها داخلاً في الجدل والنّظر [67].

ويجوز في العلّة التّعليلُ لحكم واحد بعلّتين؛ لأنّ المعاني لا تتزاحم، والعلل توضيح وتعريف ويجوز أيضا تعليل حكمين بعلّة واحدة، سواء تضادّا أم لم يتضادّا، كما يجوز أيضا التّعليل بالأمور العدميّة كتعليل بناء الضّمير باستغنائه عن الإعراب باختلاف صيغه، لحصول الامتياز بذلك [68]، وهذه الأقسام الثّلاثة الّتي سبق ذكرها هي ما اصطلِح على تسميتها بالعلل الأوائل واحتجّ بعضهم على

ما يليها من تعليلات. وكثر الاستخفاف بهذه التّعليلات حتىّ قال العلاّمة أحمد بن فارس [69]:

مَرَّتْ بِنَا هَيْفَاءُ مَجْدُولَةٌ ❖❖❖ تُرْكِيَّةٌ تُنْمَى لِتُرْكِيّ

تَرْنُو بِطَرْفٍ فَاتِرٍ فَاتِنٍ ❖❖❖ أَضْعَفَ مِنْ حُجَّةِ نَحْوِيّ

[السريع]

فيردّ السّيوطيّ (ت911هـ) قائلا: "وأمّا ما ذهب إليه غَفَلَةُ العوامّ من أنّ علل النّحو تكون واهيةً ومتمحّلة، واستدلالهم على ذلك بأنّها أبدا تكون هي تابعة للوجود، لا الوجود تابعا لها، فبمعزل عن الحق [70]؛ ذلك أنّ هذه الأوضاع والصّيغ وإنْ كنّا نحن نستعملها، فليس ذلك على سبيل الابتداء والابتداع بل على وجه الاقتداء والاتّباع، ولابدّ فيها من التّوقيف، فنحن إذا صادفنا الصّيغ المستعملة والأوضاع بحال من الأحوال، وعلِمنا أنّها كلّها أو بعضها من وضْع واضع حكيم - جلّ وتعالى - تطلبُنا بها وجه الحكمة لتلك الحال من بين أخواتها، فإذا حصلنا عليه فذلك غاية المطلوب" [71]. ويقول أيضا ابن جنّي في خصائصه: "اعلم أنّ علل النّحويين أقرب إلى علل المتكلّمين منها إلى علل المتفقّهين؛ وذلك أنّهم يحيلون على الحسّ، ويحتجّون فيه بثقل الحال، أو خفّتها على النّفس وليس كذلك علل الفقه؛ لأنّها إنّما هي أعلام وأَمَارات لوقوع الأحكام، وكثير منه لا يظهر فيه وجه الحكمة كالأحكام التّعبّديّة بخلاف النّحو، فإنّ غالبه أو كلّه ممّا تُدرَك علّته، وتظهر حكمته" [72]. ويقول أيضا: "لا شكّ أنّ العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها [73]..ألا ترى إلى اطّراد رفع الفاعل ونصب المفعول، والجرّ بحروفه والنّصب بحروفه والجزم بحروفه، وغير ذلك من التّثنية والجمع والإضافة والنّسب والتّحقير، وما يطول شرحه، فهل يحسُنُ بذي لبٍّ أنْ يعتقد أنّ هذا كلّه اتّفاق وَقَعَ، واتّجَاهٌ اِتَّجَهَ ؟ [74]".

وقبل أنْ نَعْرِض لرأي ابن مَضَاء في هذه العلل لا بأس أن نتطرّق إلى رأي الظّاهريّة عموما في العلل، فقد اتّجه أهل الظّاهر إلى مناقشة المعلّلين من ناحيتين: الأولى تخطئة فهمهم لمعنى العلل والثّانية مناقشة هذا الفهم مناقشة عقليّة منطقيّة، فقد خلط أصحاب الرّأي - في نظر أهل الظّاهر- بين مصطلحيّ (العلّة) و(السّبب) [75] مع أنّ هناك فارقا بينهما، فالعلّة اسم لكلّ صفة توجب أمرا ما يجب إيجابا ضروريّا، والسّبب هو كلّ أمر فَعَلَ المُخَيَّرُ فعلا من أجله، ولو شاء لم يفعله، والظّاهريّة ينكرون التّعليل بالمعنى السّابق فيتقبلونها على شرط أن تكون تلك الأسباب منصوصا عليها، وإلا فإنّهم لا يقبلونها مطلقا [76].

يقول ابن مضاء: "وممّا يجب أن يسقط من النّحو العلل الثّواني والثّوالث وذلك مثل سؤال السّائل عن زيد من قولنا (قام زيد): لِمَ رفع؟ فيقال: لأنّه فاعل وكلّ فاعلٍ مرفوع، فيقول: ولِمَ رُفع الفاعل؟ فالصّواب أنْ يقال له: كذا نطقت به العرب، ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام، ولا فرق بينه وبين من عَرَفَ أنّ شيئا ما حرام بالنّص، ولا يحتاج فيه إلى استنباط علّة لينقل حكمه إلى غيره فيسأل لِمَ حرّم؟ فإنّ الجواب على ذلك غير واجب على الفقيه" [77]. ونرى ابن مضاء هنا في هذه الفقرة يقرن مسائل النحو بمسائل الفقه، إذْ يقول إنّ النّحويّ لا يحتاج إلى تعليل ما ثبت بالسّماع، كما أنّ الفقيه لا يحتاج إلى تعليل ما حرِّم بالنّصّ [78]. ثمّ يقول: "ولو أجبنا السّائل عن سؤاله بأن نقول له: للفرق بين الفاعل والمفعول، فلم يقنعه وقال: فلِمَ لَمْ تعكس القضيّة بنصب الفاعل ورفع المفعول؟ قلنا له: لأنّ الفاعل قليل، ولأنّه لا يكون للفعل إلا فاعل واحد، والمفعولات كثيرة، فأُعطيَ الأثقل - الّذي هو الرّفع– للفاعل، وأعطيَ الأخفّ –الّذي هو النّصب– للمفعول؛ لأنّ الفاعل واحد والمفعولات كثيرة؛ ليقلّ في كلامهم ما يستثقلون، ويكثر في كلامهم ما يستخفّون، فلا يزيدنا ذلك علما بأنّ الفاعل مرفوع، ولو جهلنا ذلك لم يضرّنا جهله؛ إذْ قد صحّ عندنا رفع الفاعل الّذي هو

مطلوبنا باستقراء المتواتر الّذي يوقع العلم" [79]. في هذا النّصّ يضرب ابن مضاء مثالا بباب الفاعل، فإنّ النّحاة يسوقون فيه علّة أُولَى، وهي أنّ كلّ فاعل مرفوع، وهي علّة مستقيمة تعطينا الحكم في الباب، غير أنّ النّحاة لا يكتفون بها، بل يضيفون وراء كلّ علّةٍ علّةً أخرى، وهذا كلّه - كما يرى- فَضْلُ تفكيرٍ في ميتافيزيقيّة أبواب النّحو فكان الواجب أن نقتصر على العلّة الأولى الّتي تبدو معقولة ومفيدة، أمّا هذه العلل الثّواني والثّوالث فينبغي نفيها من النحو؛ لأنّها لا تكسبنا أن نتكلّم كما تكلّمت العرب، وإنّما تكسبنا حكمتهم في كلامهم وصيغ عباراتهم، وهي حكمة لا تفيد الناطقين بالعربيّة شيئا في نطقهم. إلاّ أنّه يرتضي نوعا من العلل الثّواني، مثل العلّة الّتي تذهب إلى أنّ كلّ ساكنين التقيا في الوصل وليس أحدهما حرف لين، فإنّ أحدهما يُحرّك، فإن قيل: ولِمَ لَمْ يُتركا ساكنين؟ أُجيب بأنّ النّاطق لا يمكنه النّطق بهما ساكنين، وهي علّة ثانية يرتضيها ابن مضاء [80]، وما نستشفّه ممّا سبق أنّ العلّة الحقّ والصّحيحة - عند ابن مضاء– هي تلك القوانين المستنبطة من كلام العرب والّتي ينتظم بها هذا الكلام ويصحّ بها نطقه، أو بعبارة أخرى: هي الأقيسة النحويّة الّتي تؤخذ من الكلام العربيّ وتحكم نطقه [81].

وفي حديث ابن مضاء عن الممنوع من الصّرف تطبيق على هذا المعنى السّابق، فالعلل الأولى في تلك الأسماء هي صفات المنع من الصّرف: "التّعريف والعُجمة والصِّفة والتّأنيث والتّركيب والعدْل والجمع الّذي لا نظير له، ووزن الفعل المختصّ به أو الغالب به، والألف والنّون الزّائدتان المشبهتان ألفَ التّأنيث" [82]، ثمّ ذكر العلل الثّواني بعد ذلك: "فالوجه عندهم لسقوط التّنوين من الفعل ثقله وثقله لأنّ الاسم أكثر استعمالا منه، والشّيء إذا عاوده اللّسان خفّ، وإذا قلّ استعماله ثقل وهذه الأسماء غيرها أكثر استعمالا منها، فثقلت، فمُنعت ما مُنع الفعل من التّنوين، وصار الجرّ تَبَعًا لها" [83]. ثمّ يقول بعد ذلك ابن مضاء: "وليس يُحتاج من هذا إلاّ إلى معرفة تلك العلل الّتي تلازم عدم الانصراف، وأمّا غير ذلك فهو فَضْل

هذا لو كان بَيِّنًا، فكيف به وهو ما هو في الضَّعف، لأنّه ادّعاءُ أنّ العرب أرادته ولا دليل على ذلك إلا سقوط التّنوين، وعدم الخفض، وهذان إنمّا هما للأفعال فلولا شَبَهُ الأفعال لَمَا سقط منها ما سقط من الأفعال" [84]؛ من هذا القول يتّضح أن ابن مضاء يدعو إلى إلغاء ما يَعْقُبُ العلل الأوائل بل ويرى أن القول بالثّواني والثّوالث تجنٍّ على كلام العرب، وادعاءٌ أنّهم اعتقدوا وقصدوا أشياءً لم يقصدوها البَتَّةَ، أو - على الأقلّ- لا دليل لهم على ذلك.

وقد قسّم ابن مضاء مظاهر هذه العلل إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ مقطوع به وقسم فيه إقناع وقسم مقطوع بفساده. ثمّ قدّم هذه الأقسام الثّلاثة مشروحةً بطريقة عمليّة، قدّمها في أمثلتها مبيّنا فيها العلّة الأُولى والثّانية، وإنْ كان لَمْ يحكم عليها صراحة بالقَبول أو الرّفض، لكنّ التّسمية الّتي ساقها لهذه العلل قد تُشْعِرُ باعترافه بالنّوعين الأَوَّلَيْنِ - المقطوع به، وما فيه إقناع- وقد يبدو في ذلك بعض التّناقض في رأيه، إذْ هناك بعض العلل الثّواني – كما سبق- الّتي يعترف بها في النّحو [85]. والتّقسيم عنده كان كالآتي:

أ- **العلل المقطوع بها**: ومعنى القطع هنا قَطْع أسئلة السّائل بعدها، ومن أمثلة هذا القسم: "كلّ فعل في أوّله إحدى الزّوائد الأربع وما بعدها ساكن فإنّه إذا أَمِرَ به يُحذف الحرف الزّائد فإنّه تدخل عليه ألف الوصل. فإنْ قيل: فلِمَ لم يُترك أوّله كذلك؟ قيل: لأنّ الابتداء بالسّاكن لا يمكن، وهي ثانية" [86] فهذه العلّة إكمال للعلّة للأولى وتبيين لها، وإذا وردت قطعت شُبهة من لا يزال يتطلّع إلى شيء بعد الأُولى، وإذا كانت تُعْلَمُ من الأُولى، لم يكن هناك حاجة إلى هذه العلّة الثّانية [87].

ب- أمّا **ما فيه إقناع**: ونقصد بالإقناعِ الإقناعَ الذّهنيّ، فهذه العلل الثّواني قد وردت لِتُعلّل لمشابهةٍ ذهنيّة ضعيفة بين حكمين، ففي هذه العلل إقناع بضرورة تلك المشابهة، فإذا بطلت الضّرورة الّتي استدعتْها انهار الأساس الذّهنيّ الّذي جاءت من أجله، ووجب أن تسقط من النّحو؛ وهو ما سمّاه: "التّعليل غير

البيِّن" [88]. يقول: "فمثال غير البيّن منها قولهم: إنّ الفعل الّذي في أوّله إحدى الزّوائد الأربعة إنّه أُعرِب لشبهه بالاسم، ويكفي في ذلك أنْ يُقال: كلُّ فعل في أوّله إحدى الزّوائد الأربع ولم يتّصل به ضمير جماعة النّساء، ولا النّون الخفيفة ولا الشّديدة فإنّه مُعْرَب" [89]. ففي هذا المثال الذي قدّمه لهذا النّوع من التّعليل: العلّة الأُولى فيه هي ما يكتفى به من وصْف حالة الفعل المعرب؛ أمّا العلّة الثّانية فهي تلك المشابهة للفعل المضارع بالاسم، وقد ساق ابن مضاء بعد ذلك مستندات تلك المشابهة: مِن تخصيص كلّ منهما بعد عمومه، ودخولِ لام التّوكيد على كلٍّ منهما، إلى غير ذلك ممّا ذكرته كتب النّحو [90]. وبالتّعمق في فهم نظرته لهذا النّوع من العلل يتّضح أنّه يجب أن تسقط من النّحو كلّ العلل من هذا النّوع الّذي بُنِيَ على أساس ضرورةٍ ذهنيّةٍ مفتعلة [91].

ت - أمّا العلل الفاسدة: فهي الّتي لا قيمة لها إطلاقا، وهي نوع من التّمرين الذّهنيّ في غير طائل، لا تفيد نطقا ولا تقنع عقلا. قال ابن مضاء: "ومثال ما هو بيّن الفساد قول محمّد بن يزيد [92]: إنّ نون ضمير جماعة المؤنّث حُرِّك لأنّ قبله ساكن؛ نحو (ضَرَبْنَ) و(يَضْرِبْنَ) وقال فيها قبلها إنّما أُسْكِنَتْ لئلاّ يجتمعَ أربعُ متحرّكات؛ لأنّ الفعل والفاعل كالشّيء الواحد، فجعل سكون الحرف الّذي قبل النّون من أجل حركة النون، وجعل حركة النّون من أجل سكون ما قبلها، فجعل العلّة معلولة بِمَا هي علّة له، وهذا بيِّن الفساد" [93]، وكلامه هذا واضح لا يحتاج إلى تعليق. فبعد أنْ ردّ على المبرَّد أشار كذلك إلى الأعلم [94] (ت476هـ) وأبي القاسم السُّهَيْليّ [95] (ت581هـ) وكيف أنّهما أُولِعا بالتّعليل، واعتقداه مفيدا، فقد مضى السّهيليّ على آثار المتقدِّمين مُفرِغا طاقة عقليّةً كبيرة في التّوجيه والتّعليل، مستدركا على مَن سبقه ومبتكِرا عِللا جديدةً، فقد رأى أنّ كلّ ما في اللّغة من الصّوت حتّى التّركيب يدخل في نطاق التّعليل، ويخضع له، وجميعُ كتب السّهيليّ يبرزُ فيها هذا الجانب، وإن اختلفَ موضوعُها، وقد ألَّف كتابه (نتائج الفكر) في هذا

الغرض[96]. ويواصل ابن مضاء - بعد إشارته إلى السُّهيليّ- الاستخفافَ بالتّعليل الّذي ليس من ورائه طائل، يقول: "وكما لا نسأل عن عين (عِظْلَم) وجيم (جَعْفَرْ) وباء (بُرْثُن) لِمَ فُتِحَتْ هذه، وضُمّت هذه، وكسِرت هذه؟ فكذلك أيضا لا تسأل عن رفع (زيد)" [97]، فهذا ما أراده ابن مضاء، إذْ نفى مصداقيّة ما تجرّه العلل الّتي لا تفيد في النّطق السّليم في شيء، وتخرج بالنّحو عن غايته الّتي وضِع من أجلها أوّلَ ما وُضِعَ.

وما دام قد دعا ابن مضاء إلى إلغاء العلل الثّواني والثّوالث، فنودّ أن نبيّن العلاقة بين نظريّة العامل –التي اشتُهر بنقضها- وبين علل النّحو، فنقول: أوّلا إنّهما نابعان كلاهما من مَعين واحد، هو العقل البشريّ الّذي من طبعيّته التّساؤل عن الأسباب الكامنة وراء أيّ ظاهرة مهما كان نوعها وبالتّالي طموحُه إلى تفسيرها وإخضاعها إلى أحكام منطقه، ويبدو لنا أنّ العلل النّحوية بصورتها البسيطة وهي الّتي يسمّيها الزّجّاجيّ (ت337هـ) (العلل التّعليميّة) قد رافقت في الأساس نظريّة العامل بل امتزجت بها بما يصعب التّمييز بينهما، أمّا ما آلت إليه نظريّة العلّة النّحويّة - في ما بعدُ- فبعيد عن نظريّة العوامل حين التبسَتْ بالمنطق الفلسفيّ، وهذا ما جعل ابن جنيّ[98](ت391هـ) أيضا يرفض العلل الثّواني والثّوالث، ويكتفي بالعلّة الأُولى، فلم يكن لابن مضاء سَبْقُ القولِ برفضِها.

الخاتمة: لم يقصد ابن مضاء من وراء تأليف كتابه (الرّدّ على النّحاة) تأليف كتاب نحويٍّ يضمُّ أبواب النّحو المعروفة، شأنه شأن غيره من النّحاة لكنّه قصد ما رآه مثالب في النّحو، ممّا اختَمَر في فِكْر النّحاة، وصار عُرفاً من أعرافهم، يتوارثونه لاحقاً عن سابق، من غير أنْ يفكِّرَ أحدهم في ردّه أو معالجته، وهذا ما حدا بابن مضاء إلى تأليف كتابه (الرّدّ على النّحاة) إذْ حاول فيه معالجة تلك المثالب بمنظوره الفكريّ الخاصّ الّذي اكتنفته مجموعة من الظّروف، والّتي نراها تنعكس بشكل واضح جليٍّ على آرائه؛ كاعتناقه المذهب الظّاهريّ الّذي يدعو إلى نبذ التّأويل، والتّقدير والقياس والتّعليل... ومعاصرته لثورة الموحّدين على الأوضاع القديمة دينيّةً وسياسيّة، إذْ كان ابن مضاء يتقلَّد في عصر الموحّدين منصب قاضي القضاة، كلُّ ذلك خلَّف أثره في فكر ابن مضاء، وأذكى روح الثَّورة عنده على بعض سنن النّحاة ومسلَّمَاتهم ومنهجهم في معالجة القضايا النّحوية.

إنّ ظهور كتاب مثل (الرّدّ على النّحاة) وما يدعو إليه من آراء، ليس بالأمر الهيِّن في خِضَمِّ هذا التّراث النّحويّ الهائل الّذي نعايشه اليوم، ويَجِلُّ الخطْبُ، وتعظم المصيبة، حين نجد تلك الآراء قد تناولتها أيادٍ تفسد أكثر من أنْ تصلح، وتجهل أكثر من أن تعلم، وتبني عليها طودا عظيما من الآراء السّقيمة حينا، والخاطئة حينا ثانيا، والهدّامة حينا آخر؛ كونها لم تَعِ تلك الآراء فكرا، ولم تَسْبِرها غورا، ولم تتوقَّف عندها حدًّا، بل ذهبت تأخذ بظاهرها وتتبعه بعشرات بل بمئاتٍ من الآراء الّتي عسَّرَتْ النَّحو أكثر مما يسَّرته وأبعدته عن المتعلِّم أكثر ممّا قرَّبتْه، وما كان ذلك كلّه ليكون لولا العجلة في الحكم على آراء ابن مضاء، ومحبَّة الظّهور وذيوع الصّيت، ولو كان على حساب الحقائق العلميّة.

وإذْ نحن نختم هذا البحث نصل إلى بعض النّتائج الّتي استخلصناها ونحن نخوضُ غمار هذا البحث، من أهمّها:

أ- ابن مضاء لا يحارب نحاة المشرق - كما هو سائد عند بعض الباحثين اليوم- إنمّا حاول معالجة قضايا نحويّة بتفكيره الخاصّ، وكانت تلك القضايا عامَّة في النّحو عند المشارقة، والمغاربة على السّواء.

ب- هناك عوامل عدّة أثّرت في تفكير ابن مضاء، وخروجه على مألوف النّحاة، منها: النّهج النّحويُّ التَّقليديُّ الّذي كان يسير عليه نحاة عصره، من غير ابتكارٍ أو اجتهادٍ، وعصر الثّورة على الأوضاع القديمة في السّياسة والدّين والّذي تزامن كلّ ذلك مع ظهور ابن مضاء، ومذهبه الفقهيّ الظّاهري الّذي يدعو إلى نبذ التّأويل والتّقدير والقياس والإجماع بعد الصحابة، وهذا بدوره انعكس على تفكير ابن مضاء، فرأيناه واضحا جليّا في آرائه، وكتاب سيبويه الّذي اتّصف بصعوبة أسلوبه ولاسيما عند المغاربة والأندلسيّين، وطبيعة ابن مضاء الّتي كانت تميل إلى التّسهيل والتّيسير، فشعر ابن مضاء أنّ ذلك كلَّه قد أفسد النّحو وعقَّده، فحاول نقضه، وتيسيره في كتابة (الرّدّ على النّحاة).

ت- انقسامُ آراء ابن مضاء بين قويّة وضعيفة جَعَلَنا نحكم على بعضها بالقَبول، وعلى بعضها الآخر بالرّفض، منها:

أولا: الآراء المقبولة: إنكاره العلل الثّواني و الثّوالث وما بعدها، وقَبوله العلل الأوائل؛ لفائدتها التّعليميّة، وهذا رأيٌ سديدٌ يبعدنا عن فلسفة النّحاة، الّتي لا تضيف مفيدا إلى القاعدة النّحوية.

ثانيا: الآراء المرفوضة: إنكارُه أنّ إجماع النّحاة ليس حجّة مبالغةٌ أنتجتْها ربّما ظاهريّته، الّتي جعلته يخالف جمهور العلماء والفقهاء المقطوع بصحّة آرائهم، وبخاصّة أصحاب المذاهب الأربعة.

وقد كان لآراء ابن مضاء أثرٌ بالغ في دعوات التّجديد النّحويّ في العصر الحديث؛ إذْ رأى المجدِّدون في آراء ابن مضاء تيسيراً نحويًّا لابدّ من الإتيان بمثله فأطلقوا العنان لعقولهم في ذلك وهدفهم في النّهاية هو نقض نحو سيبويه وأقرانه، وتقديم نحوٍ جديد يريح من كلفة النّحو التّقليديّ، إلاّ أنّ هذه النّظرة

قد جانبها الصّواب، فهي نظرة رمت أئمّة النّحاة بتُهَمٍ هم منها براء، فلا عيب في نحوهم، ولكنّ العيب - كما قدّمه لنا التّربويّون– هو عيب المعلِّم الّذي تنقصه الكفاءة، وتعوزه الثّقافة النّحوية، والطّريقة الّتي يتعلّم بها النّشء. ومن هنا أقول: **إنّ النحو العربي لا يحتاج إلى تيسير، بل يحتاج إلى توصيل.**

الهوامش:

1 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، تع: ألفريد بل وابن أبي شنب، المطبعة الشّرقيّة الجزائر، دط، 1337هـ /1919م، ص 109.

2 – ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ط02، 1399هـ/1979م، ج01، ص 323.

3 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، ص 109.

4 – ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، جلال الدين السيوطي، ج 01، ص 323.

5 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، ص 110. وينظر: تاريخ النّحو، علي النّجديّ ناصف، دار المعارف القاهرة، مصر، دط، دت، ص 48.

6 – ينظر: بغية الوعاة، السّيوطيّ، ج 01، ص: 323.

7 – ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث محمّد عيد، عالم الكتب القاهرة، مصر، ط04، 1410هـ /1989م، ص38.

8– ينظر: نشأة النحو وتاريخ أشهر النّحاة، محمد الطنطاوي، دار المعارف، القاهرة، مصر ط02، دت، ص 231.

9 – ينظر: بغية الوعاة، السّيوطيّ، ج01، ص 323.

10 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، ص 110.

11 – ينظر: بغية الوعاة، السّيوطيّ، ج01، ص 323.

12 – ينظر: أصول النّحو العربيّ، محمّد عيد، ص 38.

13 – ينظر: نشأة النّحو العربيّ وتاريخ أشهر النّحاة، محمّد طنطاوي، ص 231.

14 – ينظر: التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبّار، ص 110.

15 – ينظر: إشارة التعيين في تراجم النّحاة واللّغويّين، عبد الباقي اليمانيّ، تح: عبد المجيد دياب شركة الطّباعة العربيّة السّعوديّة، الرياض، المملكة العربية السّعوديّة، ط01، 1406هـ/1986م ص 33.

16 – ينظر: أصول النّحو العربيّ، محمّد عيد، ص 38.

17 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء القرطبيّ، تح: محمّد إبراهيم البنّا، دار الاعتصام ط01، 1399 هـ/ 1979م ص 06،07.

18 – ينظر: بغية الوعاة، السّيوطيّ، ج01، ص 323.

19 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، ص 109، 110.

20 – ينظر: أصول النّحو العربيّ، محمّد عيد، ص: 38.

21 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، ص 110.

22 – ينظر: بغية الوعاة، السّيوطيّ، ج01، ص 323.

23 – ينظر: إشارة التّعيين في تراجم النّحاة واللّغويّين، عبد الباقي اليمانيّ، ص 33.

24 – ينظر: التّكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبّار، ص 110.

25 – ينظر: أصول النّحو العربيّ، محمّد عيد، ص 40، 41.

26 – الردّ على النحاة، تح: محمد إبراهيم البنا، ص 58.

27 – ينظر: أصول النّحو العربيّ، محمّد عيد، ص 41.

28 – ينظر: المرجع نفسه، ص 42.

29 – ينظر: المرجع نفسه، ص 49.

30 – ينظر: المرجع نفسه، ص 50.

31 – ينظر: المدارس النّحويّة، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط07، دت، ص 304، 305.

32 – ينظر: إشارة التّعيين في تراجم النّحاة واللّغويّين، عبد الباقي اليمانيّ، ص 33.

33 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر ط02، دت ص04.

34 – ينظر: تيسير النّحو في ضوء علم تدريس اللّغات، محمّد صاري، مجلّة المجمع الجزائريّ للّغة العربيّة، الأبيار الجزائر، ذو القعدة 1426 هـ/ ديسمبر 2005 م، السّنة الأولى، العدد: 02 ص 189، 190.

35 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، ص 13.

36 – ينظر: المصدر نفسه، ص 17.

37 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد إبراهيم البنّا، ص 10.

38 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، ص 21.

39 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، ابن مضاء القرطبيّ، تح: محمّد حسن محمّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط01، 2007م، ص 03.

40 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، تح : محمّد إبراهيم البنّا، ص 04.

41 – ينظر: المصدر نفسه، ص 05.

42 – ينظر: المصدر نفسه، ص 09.

43 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد إبراهيم البنّا، ص 10.

44 – المصدر نفسه، ص 64.

45 – المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

46 – المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

47 – يُقال: آنقني؛ أعجبني.

48 – الآل: السّراب.

49 – المصدر نفسه، ص 64، 65.

50 – المصدر نفسه، ص 69.

51 – هو الحديث السّابع من أحاديث الأربعين النّووية: عن أبي رقيّة تميم بن أوس الدّاري – رضي الله عنه– أنّ النّبيّ ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: « للهِ، ولِكِتَابِهِ، ولِرَسُولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وعَامَّتِهِمْ». رواه مسلم.

52 – ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص 305.

53 – ينظر: مدرسة الأندلس النحويّة أمّ الدّرس النحوي، محمّد موعد، مجلّة التّراث العربيّ إتحاد الكتّاب العرب، دمشق سوريّة، العدد:91، السّنة 32، سبتمبر: 2003م، رجب: 1424هـ ص 05 وما بعدها.

54 – ينظر: المدارس النّحويّة، شوقي ضيف، ص 306.

55 – ينظر: مدرسة الأندلس النحويّة أم الدّرس النحوي، محمّد موعد، ص05 وما بعدها.

56 – ينظر: الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، ص 43، 44.

57 – المصدر نفسه، ص 140.

58 – ينظر: التّعريفات، الشّريف الجرجانيّ، تح: نصر الدّين تونسي، شركة ابن باديس الجزائر، ط01، 1430هـ/ 2009م، ص من 253 إلى 255.

59 – ينظر: الياقوت في أصول النّحو، عبد الله بن سليمان العُتَيِّق، الرّياض، 1226 هـ (الكتاب مُثبّتٌ على الموقع: www.pdfactory.com

60 – ينظر: ترشيح العلل في شرح الجمل، القاسم بن حسين الخوارزمي، تح: عادل محسن سالم العميري، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ط01–1419هـ/1998م–ص 97، 98.

61 – ينظر: المصدر نفسه، ص 98، 99.

62 – ينظر: المختصر في أصول النّحو، يحي بن محمد الشاوي، تح: أحمد طه حسانين سلطان مكتبة دار الكتاب العربي بدمشق، دط، 1426هـ/2005م، ص81،80.

63 – ينظر: فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح، أبو عبد الله محمّد بن الطّيّب الفارسيّ، تح: محمود يوسف فجّال، دار البحوث للدّراسات الإسلامية وإحياء التّراث، دبي الإمارات العربيّة المتّحدة، ط02، دت، ص 860 وما يليها.

64 – ينظر: الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزّجّاجيّ، تح: مازن المبارك، دار النّفائس بيروت، لبنان، ط03 1399هـ/1998م، ص: 64.

65 – ينظر: الخصائص، ابن جنّي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان ط02، 1424هـ 2003م، ج 01، ص 200.

66 – ينظر: الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزّجّاجيّ، ص 64.

67 – ينظر: المصدر نفسه، ص 65.

68 – ينظر: الياقوت في أصول النّحو، عبد الله بن سليمان العتيّق، ص 22.

69 – البيتان واردان في: وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، أبو العبّاس شمس الدّين بن خلّكان تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1414هـ/1994م، ج 01، ص 119.

70 – أي أنّ رأيهم بعيد عن الحق ومعزولٌ عنه.

71 – الاقتراح في علم أصول النّحو، جلال الدين السّيوطيّ، ص من249 إلى 251.

72 – الخصائص، ابن جنّي، ج 01، ص 100.

73 – يقول سيبويه: "وليس شيءٌ ممّا يضطرّون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها" الكتاب، تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، مصر، ط03، 1408 هـ/1988م، ج 01، ص 32.

74 – الخصائص، ابن جنّي، ج 01، ص 238.

75 – يقول السّيوطيّ: "ما كان موجِبا يسمّى علّةً، وما كان مُجوِّزا يسمّى سببا" الاقتراح، ص 272.

76 – ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة، محمّد عيد، ص 54.

77 – الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد حسن، ص 68.

78 – الرّدّ على النّحاة، تح: شوقي ضيف، ص 36.

79 – الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد حسن، ص 68.

80 – ينظر: المصدر نفسه، ص 37، 38.

81 – ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة، محمّد عيد، ص 129، 130.

82 – الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد حسن، ص 73 .

83 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

84 – المصدر نفسه، ص 74، 74.

85 – ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة، محمّد عيد، ص 131، 132.

86 – الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد حسن، ص: 70.

87 – ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة، محمّد عيد، ص 132.

88 – ينظر: المرجع نفسه، ص 132، 133.

89 – الردّ على النحاة، تح: محمّد حسن، ص 71.

90 – ينظر: أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة، محمّد عيد، ص 133.

91 – ينظر: المرجع نفسه، ص: 134.

92 – يقصد المبرَّد (210–285هـ) وهو أبو العبّاس محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرَّد –بفتح الرّاء المشدّدة– ولقِّب بالمبرّد لحسن وجهه– ينظر: المقتضب، المبرّد، تح: محمّد بن عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ القاهرة، مصر، ط 02، 1399 هـ/1989م، ج01، ص 12، 13.

93 – الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد حسن، ص 74.

94 – هو يوسف بن سليمان بن عيسى النّحويُّ الشَّنْتَمَرِيّ المعروف بالأعلم. بغية الوعاة السّيوطيّ، ج02، ص 356.

95 – هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرّحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن. ينظر: أمالي السّهيليّ، أبو القاسم عبد الرّحمن بن عبد الله الأندلسيّ السّهيليّ، تح: محمّد إبراهيم البنّا، مطبعة السّعادة، دط، 1980م، ص 07.

96 – ينظر: أبو القاسم السّهيليّ ومذهبه النّحويّ، محمّد إبراهيم البنّا، دار البيان العربيّ، جدّة المملكة العربيّة السعوديّة ط01، 1405هـ/1985م، ص 285.

97 – الرّدّ على النّحاة، تح: محمّد إبراهيم البنّا، ص 133.

98 – ينظر: الخصائص، ابن جنّي، ج01، ص 200.

البحث الصوتي عند "ابن جني" من خلال كتابه "الخصائص"

. نموذج عن البحث الصوتي عند العرب .

أ. شتوح خضرة

جامعة محمد بوضياف المسيلة

ملخص المقال: تتناول هذه الدراسة المتواضعة أصلا من أصول البحث الصوتي العربي، عند واحد من اللغويين العرب في بلاد "العراق" وهو الفتح عثمان إبن جني الذي كان إماما في النحو والصرف، ولم يتكلم أحد بأحسن وأدق بما تكلمه هو في علم التصريف ولا ألف أحد ما ألفه.

ولقد ظهرت جهوده اللغوية والصوتية من خلال كتابيه "الخصائص" و"سر صناعة الإعراب" ودورهما في إرساء دعائم علم الأصوات والتنظير له قديما وحديثا وأهميتهما في حقل الدراسات الصوتية الحديثة.

مقدمة: إذا ما أمعنا النظر في التراث اللغوي العربي، فستهتدي إلى ملاحظة العدد الكبير للدراسات ومجالاتها، فقد بحث العلماء في كل المسائل اللغوية وفق منهج شامل هو (علم العربية)، وتطرقوا في دراساتهم إلى كل مستويات اللغة الصوتية والنحوية والتركيبية والدلالية، غير أنهم لم يسموها بمصطلحاتها. كما هي معروفة اليوم . ولكن هذا المنهج الشامل المعتمد أبعد سمة البحث المتخصص، فكانت مصنفات العلماء مزيجا من الدراسات. ولكن العلماء القدامى توصلوا إلى نتائج دقيقة تضاهي النتائج التي توصل إليها علماء الغرب . اليوم . في ظل الوسائل العلمية الحديثة.

هذا، ويأتي المستوى الصوتي في طليعة اهتمامات دراسات العلماء العرب القدامى، ويعود هذا الاهتمام بهدف صيانة القرآن الكريم من اللحن وصيانة اللغة العربية، فاهتموا بالأبجدية الصوتية وصنفوا الأصوات وبينوا صفاتها وتغيراتها: «من دوافع الاهتمام بالدراسة اللغوية الصوتية توسع الدولة الإسلامية من الناحية الجغرافية ودخول أجناس أعجمية.... ودخول لغاتها في وعاء اللغة العربية... وأول ما بدا في الاعاجم عندما حاكوا العرب في لغتهم لم يأتوا اهتمام المحاكاة»(1) وكان "للخليل بن احمد الفراهيدي" "وسيبويه" السبق لطرق القضايا الصوتية العربية ثم تأثر "ابن جني" بأفكارهما،فأفرد ريادة خاصة في دراسة الصوت وتأثيره في الجانب الدلالي، إذ بين القيمة التعبيرية للصوت في العربية وما تدل عليه.

ونسعى من خلال هذه الدراسة المتواضعة،إلى إبراز الجهد العلمي المتميز لشخصية "ابن جني" واهتمامه بالقضايا الصوتية من خلال كتابه "الخصائص". كنموذج للبحث الصوتي عند العرب وماله من أهمية بالغة في الدرس الصوتي بحكم منهجيته العلمية. إذ تطرق إلى قضايا صوتية مهمة متفرقة في الأجزاء الثلاثة من كتابه، إذ أن خصائص العربية "التي جاءت منها تسمية "ابن جني" لكتابه "الخصائص" هي التي مكنته من الوصول إلى "نظرية الفونيم" . كما تسمى حاليا. ونرى أن نبدأ بترجمة مختصرة لعالمنا وأهم آثاره ثم نتطرق إلى جهوده الصوتية.

ترجمة ابن جني: هو أبو الفتح عثمان ابن جني،[2] من أصل غير عربي ينتسب إلى الأسرة الأزدية الرومانية اليونانية، وذلك بالولاء. وقد اختلف الدارسون في تحديد سنة ميلاده، 322أو321أو320، وبعضهم جعلها سنة 300 حيث ولد "بالموصل" ونشأ وتعلم بمسقط رأسه. ومن أشهر شيوخه النحوي "أحمد بن محمد الموصلي الشافعي" المعروف"بالأخفش" وأيضا النحوي "عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي" و"أبو علي الفارسي".

وقد اهتم "ابن جني" بالرواية، فكان لا يأخذ إلا عن العرب الأقحاح حيث «كان لا يأخذ من بدوي إلا بعد أن يمتحنه ويتثبت من أمره وصدق

نحيزته.وقد عقد لهذا بابا في الخصائص "باب في ترك الأخذ عن أهل المدر"كما اخذ عن أهل الوبر»[3]، إلا أن طابعه في الكتابة كان يتسم بالإطناب والتكرار والتوسل إلى الإقناع كما اشتغل بالتعليم والتدريس.

ولقد اتبع "ابن جني" في تأليفه منهجا لا يختلف عن منهج شيخه "أبي علي الفارسي" فعرف بسعة معرفته اللغوية، حيث عرّف اللغة بأنها «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»[4]، فهو بهذا يؤكد على الطبيعة الصوتية للغة، وما هذه الأخيرة إلا نسق من الرموز الصوتية.[5]

و"ابن جني" حنفي المذهب، معتزلي في الكلام، بصري في مذهبه النحوي، فكان إماما في النحو والصرف وناظما للشعر.توفي عام 393 ببغداد فرثاه الشريف الرضي بقصيدة مطولة:

لتبك أبا الفتح العيون بدمعها وألسنة من بعدها بالمناطق[6]

ومن أشهر مصنفاته: الخصائص، سر الصناعة، المقتضب، التمام.....الخ

- **كتاب الخصائص:** النسخة التي طالتها يد البحث هي من نشر دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، وتعد الطبعة الثانية. حققها الأستاذ "محمد علي النجار"، وذلك بعدما عهدت إليه دار النشر بإعادة تحقيق الكتاب. خاصة وأنه اهتم بدراسة الكتاب منذ زمن طويل.[7] وقد اعتمد في تحقيق أجزاء الخصائص الثلاث على نسخ عديدة[8]، فعمل المحقق بعناية على تحقيقه، وعلى الكتاب بعض تصحيحات قلمه وتعليقات على حواشيه.

هذا وقد كانت قضايا "كتاب الخصائص" - أو ما يعرف "بخصائص العربية"- متنوعة ومتشعبة، تدور في مجملها حول مسائل نحوية وصرفية على الخصوص. وقد نوه "ابن جني" بأهمية كتابه: «... واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صنف في علم العرب وأذهبه في طريق القياس والنظر... وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة: من خصائص الحكمة، ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة»[9]. كما أقر بأن كتابه يعد المصنف الأول لمؤلف على مذهب أصول

الكلام والفقه في كل من البصرة والكوفة. وهذا الغرض الذي جعله "ابن جني" من وراء مؤلفه هذا؛ فالكتاب[10] يدرس مسائل لغوية متخصصة، وهذا ما يعكسه عنوان الكتاب: "خصائص العربية"

هذا، وحوى الكتاب في مجمله ثلاثة أجزاء موزعة على مائة واثنتي وستين بابا (162 بابا)، يظهر لمتصفح هذا المصنف بعض المسائل الخاصة بالجانب الصوتي مبثوثة هنا وهناك.

ومن أهم القضايا الصوتية عند ابن جني والتي تلفت الانتباه نجد: ما يتعلق بالحروف (الصوامت) من حيث تصنيفها وصفاتها ومخارجها هذا من جهة، وما يتعلق بالحركات (الصوائت) وبعض التغيرات الصوتية من جهة أخرى، إضافة إلى ملاحظة بعض الظواهر الصوتية الناتجة عن لهجات العرب.

أهم القضايا الصوتية عند "ابن جني" من خلال كتاب الخصائص:

1- الحروف: قضية تصنيف الأصوات وصفاتها:

أ. **مفهوم الصوامت والصوائت عند "ابن جني":** يقسم العلماء الأصوات اللغوية إلى صوامت وصوائت (Consonnes) (Voyelles) ونجد "ابن جني" لم يخرج عن هذا التقسيم، فقد رتب الحروف (الصوامت) حسب مخارجها وصفاتها وعدّها تسعة وعشرين حرفا مثل "سيبويه".[11]

ويحاول "ابن جني" أن يعرّف أو يعطي مفهوما للحرف الصامت من خلال موازنته بين حركة الصوت الإنساني وحركة الصوت في آلة العود (الناي) حيث يقول: «يخرج فيه[أي الناي] مستطيلا أملس ساذجا كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على حروف الناي المفسوقة وراوح بين عمله، اختلفت الأصوات وسمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة، ونظير ذلك أيضا وتر العود فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض

أصابع يسراه أدى صوتا آخر،فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى إصبعه من أول الوتر تشكلت له أصداء مختلفة».[12]

هذا، وقد أقر أن الصوائت ما هي إلا حروف المد- (المصوتات كما يسميها)[13]- الألف والياء والواو،إضافة إلى الحركات القصيرة- (الحروف الصغيرة)- الفتحة والضمة والكسرة، حيث يقول: «الحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة :الألف ثم الياء ثم الواو وأوسعها وألينها الألف»[14]

وتتجلى نقاط الاختلاف بين مخارج الحروف (الصوامت) والمصوتات (الصوائت) - كما يسميها "ابن جني"- فيما يلي:

1) إن مسار الهواء لا تعترضه الحواجز في حالة النطق بالصوائت مثل "الألف" عكس ما نلاحظه في حالة النطق بالصوامت"(مخارج الحروف)"حيث تكون هناك عوائق كلية أو جزئية. وقد تنبه ابن جني إلى هذه الخاصية.

2) إن الصوامت تكون أقل وضوحا في حالة السمع،عكس الصوائت فهي مجهورة.[15]

مخارج الأصوات العربية عند "ابن جني "

الحروف	مخارجـــها
ء،هـ ،ا	وهي من أقصى المخرج (أقصى الفم أو الحلق)
ع،ح	وهي من وسط الحلق.
غ،خ	وهي من أدنى مخرج من الفم - أول الفم -
ق	وهي من أسفل اللسان أو أقصاه.
ك	وهي من الحنك الأعلى.
ج،ش،ي	وهي من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى
ض	وهي من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس
ل	وهي من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ما فوق الثنايا

ن	وهي من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا
ر	وهي من مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام.
ط،د،ت	وهي مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا
ز،س،ص	وهي مما بين طرف اللسان وفُويقَ الثنايا
ظ،ذ،ث	وهي مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا
ف	وهي من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العُلى
ب،م،و	وهي مما بين الشفتين
ن الخفيفة	وهي من الخياشيم

ب. **مخارج الأصوات العربية عند ابن جني:** اهتم "ابن جني" بترتيب الحروف حسب مخارجها وصفاتها،وقد اختُلف في عدد المخارج، فمنهم من عدها سبعة عشر مخرجا، ومنهم من انقص واحدا أو أكثر. أما "ابن جني" فنجده يعدها ستة عشر مخرجا ويهمل المخرج الأول، «مخرج الجوف الذي قال به الخليل بالنسبة للألف والواو والياء»[16] وبهذا يوافق التقسيم الذي ذهب إليه "سيبويه" في الكتاب وفي هذا الصدد يقول "ابن جني":«واعلم أن مخارج الحروف ستة عشر»[17] فالمخارج التي عدها ـ نقلا عن سيبويه ـ[18] هي :انظر الجدول[19].

فهذا تقسيم المخارج الصوتيةالتي وضعها سيبويه وتبعه في ذلك "ابن جني"،«فاعجب له كيف استطاع[سيبويه]أن يصل إلى ما وصل إليه من درجات الدّقة رغم ما أحاط به من الظروف!»[20]

ج. **بعض صفات الأصوات العربية:**

1) **حروف الجهر والهمس:** وصف "ابن جني" الأصوات بالجهر والهمس؛فالصوت عنده إما مجهور وإما مهموس.وقد سبقه إلى ذلك "سيبويه" حيث يعرف المجهور بقوله: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن

تجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت» [21]، بمعنى أن الصوت المجهور لابد له من مجهود عضلي أثناء خروجه لحدوثه ـ (الصوت)ـ[22]، وبهذا يكون مصدر الصوت المجهور هو الصدر والفم.

ويعرّف المهموس بقوله: «حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»[23]، فالهمس عكس الجهر ويصدر من الفم فقط، كما يكون المجهود العضلي فيه أقل منه في المجهور، ومفهوم المهموس عند "ابن جني"، هو الصوت الذي لا يسمع له رنين (جرس) حين النطق به.[24] إلا أنه يشير إلى أنه حروف الهمس يتبعها في الوقف صوت[25] وحروف الهمس عنده هي: ث،ت،ح،خ،س،ش،ص،ط،ف،ق،ك.

أما المجهور عند "ابن جني"فهو عكس المهموس ، لما تتميز حروف الجهر بالقوة، وذلك نتيجة ما تحدثه من جرس أثناء النطق بها[26] وحروف الجهر هي : ب،ج،د،ذ،ر،ز،ض،ع،غ،ل،م،ن،ظ

ونشير إلى أن كلا من أصوات الجهر والهمس عند "سيبويه"[27] الأصوات نفسها عند "ابن جني". وإن تفسير هاتين الظاهرتين عند "سيبويه" يعد محاولة جادة سار على هديها كل من أتى من بعده.

مقارنة بين علاج العلماء القدماء للأصوات في عصور مختلفة: [28]

صفات الحروف	سيبويه ق2 هـ	ابن جني ق4 هـ
الشديدة	ء،ق،ك،ج،د ،ب،ط،ت	ء،ق،ك،ج،ط،ب،د ،ت
الرخوة	هـ ،ح،غ،خ،ش،ص،ض،ز ،س،ظ،ث،ذ ف	نفسها
المتوسطة	ع	ا ،ع،ي،م،ل،ن،ر،و
المجهورة	ء،ا ،ع،غ،ق،ج،ي،ض،ل،ن،ر ،ط،د ،ز ظ،ذ ،ب،م،و	نفسها

المهموسة	هـ، ح، خ، ك، ش، س، ت، ص، ث، ف	نفسها
المطبقة	ص، ظ، ط، ض	نفسها
المنفتحة	كل الاصوات ماعدا الاصوات المطبقة	نفسها
المنحرفة	ل، ر	ل، ر
المستعلبة والمنخفضة	ر	غ، ف، ق، ض، ط، ص ض

2) الأصوات الجارية مجرى الحروف:

يذكر "ابن جني" في باب[29] "اللغة أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها"، إمكانية اشتقاق الأفعال من الأصوات الجارية مجرى الحروف، بمعنى أنه يمكن تفسير بعض الأحداث (الأفعال) من خلال الأصوات المشكلة من حروف متتالية، حيث يورد أمثلة [30] عن ذلك:

- هاهيت فهي تدل على انك زجرت الإبل بقولك: هاها
- حاحيت فهي تدل على على فعل الزجر
- عاعيت أصوات ممثلة بحروف تدل على حدث حيث يقال: عاعى بالغنم زجرها
- جأجأت فهي تدل على فعل الزجر أيضا، بقولك: جؤجؤ
- حأحأت فهي تدل على فعل الزجر أيضا، ويقال: حأحأ بالكبش أي زجره.
- سأسأت فهي تدل على فعل الزجر أيضا، ويقال: في زجر الحمار.
- شأشأت فهي تدل على فعل الزجر أيضا، ويقال أيضا في زجر الحمار.

ويشير في آخر الباب إلى أنه ألف كتابا، كتب فيه تفسير الكثير من مثل هذه الحروف.

3) الأصوات التي ليس لها مخارج:

وقف "ابن جني" في بعض الأبواب من أجزاء"الخصائص"على مسألة الأصوات التي ليس لها مخارج؛ وهذا ما عبّر عنه بالمسائل التالية: كلمات وردت حكاية للصوت، ربط الأصوات بالحيوانات، معرفة العرب لحروف الهجاء وتشبيههم بعض الأعضاء بها.

وقد عالج "ابن سينا"[31] مسألة الأصوات التي ليس لها مخارج ويحمل"ابن جني" هذه في قوله: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح وحنين الرعد، وخرير الماء،وشحيج الحمار، ونعيق الغراب،وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك،ثم ولدت اللغات على ذلك فيما بعد»[32] فكل الأصوات المسموعة لا يمكن تحديد مخارجها. وكلمات خرير،دوي،صهيل،هدير قد أطلق عليها "ابن جني" اسم الأصوات المسموعات وعدها أصلا للغة[33] وعليه فاللغة ما هي إلا نسق من الرموز الصوتية.[34]

وقد أورد في باب "ذكر علل العربية أكلامية أم فقهية"أن بعض الأفعال التي تقوم بها الحيوانات تدل على الجانب الصوتي «إن كثير من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها»[35] ويضرب أمثلة لذلك:

فالقضم يدل على اليابس، والخضم على الرطب وهذا نتيجة قوة حرف القاف وضعف حرف الخاء وبهذا يكون الصوت الأقوى تابعا للفعل الأقوى.والصوت الأضعف تابعا للفعل الأضعف وكذا الاستطالة الصوتية (المد) كمافي الراء:صرُّ الجندب، والقطع في الراء: صرصر البازي.

هناك كلمات جاءت حكاية للصوت حيث وردت في باب "في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، وقد اعتمد ابن جني في طرحها على ما ذكره كل من "الخليل" و"سيبويه"، أما فيما ورد عن "الخليل": «كأنهم توهموا في صوت

الجندب استطالة ومدا، فقالوا: صرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر»[36].

أما "سيبويه" فيذكر في المصادر التي جاءت على وزن الفعلان: أنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو النقزان، والغليان، والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال[37].

ثم يؤكد "ابن جني" على صحة ما سبق ذكره، فيما ذهب إليه هو، حيث يقول: «ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ماحدّاه[38]... يشير "ابن جني" إلى ظاهرة تشبيه العرب بعض الأعضاء بحروف الهجاء، ويروي أن "أبا عمرو" رأى ذا الرّمة في دكان طحان بالبصرة يكتب شعرا في وصف ناقته قائلا:

هل تدنينك من خرقاء ناجية   وجناء ينجاب عنها الليل علكوم

كأنما عينها منها وقد ضمرت   وضمها السير في بعض الأضى ممّ

فسأله: من أين عرفت الميم؟ فأجاب: والله ما أعرفها، إلا أني رأيت معلما خرج إلى البادية فكتب حرفا، فسألته عنه، فقال: هذا الميم، فشبهت به عين الناقة» [39].

يتضح مما سبق أن الصوامت والصوائت قد عرفت عند "ابن جني" بمصطلحي الحروف والحركات حيث أنه «لم يعن المتقدمون من علماء العربية بأصوات اللين مع أنها عنصر رئيس في اللغات، ومع أنها أكثر شيوعا فيها، ولعل الذي دعا إلى هذا، أن الكتابة العربية منذ القدم عنيت فقط بالأصوات الساكنة»[40]

2/ الحركات "الصوائت"

1) <u>**تعريفها:**</u> تنقسم الصوائت إلى ثلاثة أقسام:الصوائت الطويلة والصوائت القصيرة وأشباه الصوائت، ويسميها القدامى (حروف المد)؛ الألف والواو والياء أما الصوائت القصيرة فيقصد بها الفتحة والضمة والكسرة.

أما أشباه الصوائت؛فيسمى القدامى الواو والياء إذا سكنتا مع عدم مجانسة الحركة السابقة عليها (حرفى لين) مثل: بيع وقول. ويسمون الألف والواو والياء مطلقا(حروف علة) إذا قابلت حرفا أصليا ويعد "ابن جني" على رأس علماء العربية الذين أرسلوا دعائم الدراسات الصوتية وعالجوا هذا الموضوع بدقة.[41]

2) التبديلات الصوتية عند ابن جني في "كتاب الخصائص":

تعدالتبديلات/التغيرات الصوتية سنة من سنن العرب في كلامهم، وذلك قصد تحقيق التخفيف والتيسير في النطق والسمع، وأيضا تحقيق الانسجام الصوتي. وقد تعرض جل الدارسين العرب للمسائل الصوتية العربية، وأعطوها عناية فائقة تجلت في طريقة التحليل والتعليل وبيان الأسباب التي أدت إلى حدوث التغيير. ومن التغيرات الصوتية التي رصدها النحاة العرب نجد: الإمالة،الإشمام الروم،ظاهرة الإدغام....الخ.

ولقد اهتم "ابن جني" بدراسة بعض الظواهر الصوتية العربية نوردها فيما يلي:

أ. الإمالة: [42]

الإمالة ظاهرة صوتية خصت اللغة العربية، وتعد من ظواهر المماثلة[43] وقد عرفت الإمالة في لهجات تميم وأسد وقيس ونجد.

وقد عالج سيبويه ظاهرة الإمالة حيث قال: «الألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك: عابد، وعالم، ومساجد، ومفاتيح... إنما أمالوها للكسرة التي بعدها أرادوا أن يقربوها منها وجمع هذا لا يميله أهل الحجاز»[44] نفهم أن الإمالة هي تقريب نطق الألف من نطق الكسرة فينتج عن ذلك صورة صوتية خاصة، بمعنى أن ننطق الفتحة (الألف) نطقا تجعلها بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة،[45]والأمثلة التي جاء بها توضح ذلك:

عالم، عابد، مساجد = الإمالة في هذه الكلمات تظهر من خلال نطق الألف الطويلة قريبة من نطق الكسرة في كل من الباء واللام والجيم (في الكلمات السابقة الثلاث).

مفاتيح = تظهر الإمالة في أثر الكسرة الطويلة، ثم يقر في الأخير أن أهل الحجاز لم يعرفوا هذا النوع من الإمالة. كما وقف "سيبويه" على الحروف التي تمنعها الإمالة عنها وهي سبعة (7) حروف (ص،ض،ط،ظ،غ،ق،خ) ويعلل ذلك كونها حروفا مستعلية إلى الحنك الأعلى،[(46)] وأن الغاية من الإمالة هي الحصول على خفة وسهولة اللغة.

هذا وقد عالج "ابن جني" ظاهرة الإمالة، وتتمثل في قضية الجرس الذي يحدثه الصوت أثناء اقتراب الأصوات بعضها من بعض ويقر أن الغاية من الإمالة «إنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت»[(47)] ويخص بذلك جانب تغير الحركات كما في المثال الذي أورده: عالم، كتاب، وسعى وقضى واستقصى.

عَالِمً: قرب فتحة العين من كتاب إلى كسرة الباء منه، وذلك بأن جعل الفتحة نحو الكسرة.[(48)]

كتاب: قرب فتحة التاء من كتاب إلى كسرة الباء منه، وذلك بأن جعل الفتحة نحو الكسرة.

سعى: تنحى بالألف (الفتحة) نحو الياء التي انقلبت عنه وكذا في بقية الأمثلة.

إذن في اللغة العربية كثيرا ما تقارب الفتحة الممدودة حركة الكسرة وتسمى هذه الحالة إمالة الفتحة والألف نحو الكسرة أو الياء.

ويورد إبن جني مثالا آخر، من ذلك قولهم[(49)]: مررت بحمار قائم: ونزلت سفاري قبل،فكسرت الراء في المثالين (حمارِ) (سفارِ) نلاحظ وجود إمالة مع حرف الاستعلاء (الألف) وهو القاف ولولا الكسر ماساغ ذلك.

ب. **الإشمام:** وهو تهيئة الشفتين للتلفظ بالضم ولكن لا يتلفظ به (بالضم) بحيث تنطق الفتحة ساكنة، ثم تضم الشفتان من غير صوت ليعلم الرائي أنك وقفت على ضم، يمكن أن نقول أن الإشمام نوع من الإبدال للصوت حتى يقترب من صوت آخر. ونلمح ظاهرة الإشمام بجلاء في القراءات القرآنية وفي بعض اللهجات القديمة وقد صرح "ابن جني" بهذه الظاهرة معتبرا أن الاشمام للعين دون الأذن[50] وفي موضع آخر قال: «الإشمام ضم الشفتين بعد تسكين الحرف الأخير في الوقف على المضموم»[51] وقد تطرق "سيبويه" إلى ظاهرة الإشمام أيضا.

وهناك توسيع لدائرة الإشمام ليشمل بعض الصوامت أي إعارة حرف رائحة حرف آخر كإشمام رائحة الزاي أو السين.

1) «واخبرنا أبوبكر جعفر بن محمد بن الحجاج عن أبي علي تعريف موسى الاسدي عن الاصمعي قال: اختلف رجلان، فقال أحدهما: الصقر، وقال الآخر: السقر... فإذا رجل قد أقبل فسألاه، فقال: ليس كما قلت أنت، ولا (كما قلت أنت) إنما هو الزقر»[52]

نلاحظ هنا إبدال الصوت حتى يُقرب من صوت آخر (صقر،سقر،زقر)

2) والإشمام هو تقريب الحرف من الحرف، مثل: مصدر، مزدر التصدير: التزدير، وقول العرب في المثل: (لم يُحرم من فُزدلَهُ) أصل فُصِدَ لَهُ،ثم أسكنت العين. فصار تقديره قصد له، فقربت الصاد الساكنة المهموسة من الدال المجهورة بأن أشيمت شيئا من لفظ الزاي المقاربة للدال بصفة الجهر.[53]

3) وفيما روي من قول الراجز

متى أنام لا يؤرقني الكَرى   ليلا ولا أسمع أجراس المطى.

لا يؤرقني: إشمام القاف من يؤرقني يلاحظ ولا يسمع، ولا تظهر أية حركة، ولو كانت القاف متحركة لصارت من بحر الكامل،أعمالهم الشفتين للإشمام في المرفوع بغير صوت يسمع هناك[54].

إذن فالإشمام هو الدلالة على الضمة بحركة الشفتين وحذف حركة المتحرك في الوقف مثل (إن الله سميع بصير) ❖ فالقارئ يشير باستدارة الشفتين إلى ضمة الراء.[55]

ج. الروم:

وهو نوع من الوقف، وقف على آخر الكلمة بغير سكون، حيث يوقف بحركة بعد تقصيرها إلى صوت لين قصير جدا، لا يكاد يُسمع إلا عن قرب.

ويرى "ابن جني" أن «روم الحركة يكاد الحرف يكون به متحركا، ألا تراك تفصل به بين المذكر والمؤنث في قولك، في الوقف: أنتَ وأنتِ. فلولا أن هناك صوتا لما وجدت فصلا» [56].

ويصرح "ابن جني" في موضع آخر قائلا عن الروم: وأخضر منه الإشمام لأنه للعين لا للأذن[57] بمعنى أن الروم يخص الأذن دون العين. يتضح، إذن، مما سبق أن الروم خاص بالوقف على آخر الكلمات وهو تحقيق خفيف جدا للحركة التي تنتهي بها الكلمة.

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الروم[58] ظاهرة صوتية خاصة باللغة العربية دون اللغات الأخرى وهي عكس ظاهرة الاختلاس.

د.**الاختلاس:** هو اختطاف حركة الحرف في النطق فتبدو كنصف حركة وربما يتبينها السامع (يحسب) فيخال أنها سكون، يقول"ابن جني": «حتى كأنك لم ترحم وقد ضايقوا أنفسهم، وخففوا عن ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا، وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها»[59] ويضرب مثال قراءة أبي عمرو (مالك لا تأمننا على يوسف) فهناك اختلاس في الحركات. وهذه الظاهرة عرفت في القراءات القرآنية، وقد أقر بها أبو عمرو بن العلاء

في قوله تعالى: (فتوبوا إلى بارئكم) باختلاس حركة الهمزة فبدت كأنها سكون «فرواها الفراء عن أبي عمرو بالإسكان»[60] وقد اعتمد "ابن

جني" على ما رواها "سيبويه" في هذه الآية بالاختلاس أيضا، ويتضح من خلال المثال التالي:

1)أنشد السجري:

وإنا ليرعى في المخوف سوامنا   كأنه لم يشعر به من يحاربه

نلاحظ اختلاس ما بعد هاء"كأنه" ومطل ما بعد هاء (بهي) وهذا الاختلاس ضروري على ما تقدم به القول.[61]

2)وقوله عز وجل: (أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى)، مخفى لا مستوفي) وقول: (فتوبوا إلى بارئكم) اختلاس غير ممكن كسر الهمزة ودعا ذلك إلى تلطيف اللفظ.[62]

ويشير ابن جني فيما ذكره سيبويه(الكتاب ج2،ص297) إلى أن أبا عمرو كان يسكن الهمزة، أما "ابن جني" ويقول بوجود الاختلاس دون حذف الحركة كلها. «وهو ضبط لهذا الأمر من غيره من القراء الذين رووه ساكنا».[63]

إذن، فالاختلاس نجده في أوضاع مختلفة من الكلمة، كما قد نجده في بداية الكلمة أو وسطها، وإذا كان الروم تحقيقا للحركة (إظهارها) فإن الاختلاس إخفاء لها.

ه.**التـــرخيم:** ويصرح ابن جني بهذه الظاهرة في باب "الجمع بين الأضعف والأقوى في عقد واحد" بقوله:«عرضنا هنا أن نري إجازة العرب جمعها بين قوي الكلام وضعيفه في عقد واحد، وأن لذلك وجها من النظر صحيحا»[64]،فالترخيم هو الإجازة والاختصار في كلام العرب وكذا حذف أكثر من حركة واحدة فيها خصوصا في النداء يا حَارِ ←── يا حارث. وفي الأمر والسؤال والتحية والقسم (أيشُ ←── أي شيء؟)(عم صباحاً ←── أنعمْ صباحا)[65] ويذكر "ابن جني" أمثلة عن الترخيم:

قال ابن الأحنف:

أبكي إلى الشرق ما كانت منازلها مما يلي الغرب خوف القيل والقال

وأذكر الخال في الخدّ اليمين لها خوف الوشاة، وما في الخدّ من خال

وقال: إنك يا معاوي بن الأفضل

أراد: يا معاوية، فرخمه على يا حار، فصار: يا معاوي، ثم رخمه ثانيا على قولك: يا حارِ، فصار: يا معاوِ كما ترى

أفلا تراه كيف جمع بين الترخيمين احدهما على يا حار، وهو الضعيف والآخر على يا حارِ، وهو الأقوى[66].

و. **الإدغـام:** ويعد ظاهرة صوتية صرفية خصت بها اللغة العربية وهذا ما يدل على وجود المعايير الدقيقة للنظام الصوتي في لغتنا، وقد نالت ظاهرة الادغام حظا وافرا من الدراسة عند العلماء العرب.

لقد اهتم "سيبويه" بظاهرة الادغام وافرد لها بابا في كتابه، فتناول الإدغام فقال: «إدغام الحرفين هو أن تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه»[67] وكذلك، إدخال حرف في حرف هو النطق بحرفين متجاورين حرفا واحدا مشددا عليه فيكون الحرف الأول ساكنا والثاني متحركا وقد تحدث عن الأصل في الادغام، وذلك أن يدغم الأول في الأخير وأن يتبع الأول الأخير، وأن يكون الأول ساكنا[68] ويبدو أن تصور سيبويه للإدغام كان أوسع من تصور متأخري النحاة[69] ويظهر هذا بجلاء من خلال حديثه المفصل عن الادغام، كما قال بما يحسن فيه الإدغام: «كلما توالت الحركات أكثر كان الادغام أحسن»[70] وذكر مالا يحسن فيه الادغام ولا يجوز فيه؛ «ومن الحروف مالا يدغم في مقاربة ولا يدغم فيه مقاربه كما لم يدغم في مثله وذلك الحرف الهمزة لأنها إنما أمرها في الاستثقال التغيير والحذف»[71].

وهذا "ابن جني" يستعمل المصطلح نفسه عند تعريفه للادغام بقوله «إن الحرف لما كان مدغما خفي فنبا اللسان عنه وعن الآخر بعده نبوة واحدة

فجريا لذلك مجرى الحرف الواحد... ومن الأمر الطبيعي الذي لا بد منه، أن يلتقى الحرفان الصحيحان فيسكن الأول منهما في الإدراج (المخرج)، فلا يكون حينئذ بد من الادغام متصلين كانا أو منفصلين فالمتصلان نحو قولك،شدّ وصبّ وحلّ فالادغام واجب لا محالة ولا يوجد اللفظ به بدا منه والمنفصلان نحو قولك،شُدْدَ، وحُلَلَ، فلا أدغمَ »[72]

أما الغاية من الادغام فهي قصد تحقيق السهولة والتخفيف والإيجاز في النطق واللفظ «ويظهر توفيق سيبويه في ترتيب الأصوات ناتجا عن تقسيم المجموعات الإدغامية فكل مجموعة متجانسة أو متقاربة في المخرج تتبادل فيما بينها التأثير والتأثر وهو في هذا الترتيب متساو في منطق الموضوع الذي يعالجه»[73]، غير أن الأصل في الادغام عند النحاة أن يدغم الأول في الثاني.

ومن أنواع الادغام الإدغام الكبير، الإدغام الصغير، والإدغام التقدمي والإدغام الرجعي والإدغام الكامل والإدغام الناقص.....

لكننا نجد كلا من "سيبويه" و"ابن جني" قد أشارا إلى الإدغام الكبير والإدغام الصغير.

أ. **<u>الادغام الأصغر(الصغير)</u>:** وفي هذا النوع من الإدغام يكون المدغم (الحرف الأول) ساكنا والمدغم فيه (الحرف الثاني) متحركا، ويعرفه "ابن جني" بقوله «فهو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه»[74]

ب. **<u>الادغام الكبير (الأكبر)</u>:** يكون الحرف الأول متحركا، إذ يتطلب ذلك إسقاط حركته أو نقلها إلى الحرف السابق له إذا كان ساكنا ثم ندغمه في الثاني. فهناك تغيير مبدئي هو التسكين ثم تغيير ثان وهو عملية الادغام بقول ابن جني: «إذا كانا مختلفين ثم قلبت وأدغمت فلا إشكال في إيثار الغريب أحدهما من صاحبه لأن قلب المتقارب أوكد من تسكين النظر فهذا حديث الادغام الأكبر»[75].

هذه أهم الظواهر الصوتية العربية التي رصدها ابن جني في كتابه الخصائص

3- بعض الظواهر الصوتية الناتجة عن لهجات العرب

أ. **اللهجات:** لقد اهتم العلماء قديما بدراسة الظواهر اللغوية في كل اللهجات العربية واللغة الفصحى معتمدين في ذلك على كتب النحو وكتب اللغة والمعاجم العربية، حيث كانوا يقومون بجمع المادة اللغوية قصد تدوينها من البوادي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، وقد كانوا يعتدون بقول القبائل التي لا تختلط حياتهم بغير العرب. وبهذا سجلوا أهم الظواهر اللغوية التي لفتت انتباههم في البوادي مثل قبائل تميم، طي، هذيل، ...الخ

و"ابن جني" تطرق أيضا إلى اللهجات في باب اختلاف اللغات وكلها حجة كما أشار إلى بعض الظواهر الصوتية اللهجية: مثل الكشكشة، العنعنة الكسكسة...الخ

وقد اعتمد "ابن جني" في تعدد اللهجات العربية ومالها من اختلاف في النطق على قول "أبي بكر بن محمد بن الحسن"، الذي أخذ عن "أبي العباس أحمد بن يحي ثعلب" في أن قريشا تعد أكثر فصاحة من عنعنة تميم وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وضجع قيس، وعجرفة ضبة، وتلتلة بهراء، ويضرب لنا أمثلة من ذلك:[76]

أ. العنعنة في تميم: قولهم في أي مكان (أن): (عنّ) مثل: عن عبد الله قائم.عوضا عن (إن عبد الله قائم)

قال ذو الرمة منشدا عبد الملك:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقال ابن هرمـــة:

أَعَنْ تغنّت على ساق مطوقّة ورقاءُ تدعو هديلا فوق أعواد

ب. التلتلة في بهراء: وهي كسر أوائل الحروف كقولهم:

تِعملون وتِفعلون وتِصنعون.....الخ

ج. الكشكشة[77] في ربيعة: وهي الوقف بالكاف شينا في نطق آخر الكلمة مثل :

إنكِ =إنكِش، رأيتكِ = رأيتكش، أعطيتك = أعطيتكش.

د.الكسكة في هوازن: وهي قريبة من كشكشة أبي ربيعة والفرق يكمن في الوقف بالسين مكان الشين.

مثل: أعطيت = أعطيتكس، منك = منِكسْ، عنك= عنكس

ويشير ابن جني قائلا: «وهذا في الوقف دون الوصل»[78]

كما يعلل "ابن جني" وجود هذا الاختلاف في اللهجات نتيجة القياس،ولكنه لا يعيب ذلك ؛ «وكيف تصرفت الحال فالناطق على قياس لغة من (لغات العرب)مصيب غير مخطئ،وإذا كان غير ما جاء به خيرا منه»[79]

هذا ومن أهم عيوب النطق المنتشرة في اللهجات، نجد ظاهرتي اللثغة والغنة على سبيل التمثيل:

ب. **اللثغة:** وهي ظاهرة صوتية تكثر عند النطق بالحروف التالية: الراء،الطاء،التاء. وتكون ضعيفة عند النطق في حرف الدال،لأن جرْس الصوت قوي في كل من التاء والطاء،على أساس أنَ القوة المتقاربة بين الحروف والتقارب فيما بينها يحدث ثقلا على النفس لذلك قدمت الأقوى وقد وقف "ابن جني" في هذا لأمرين:[80]

1) رتبة الحرف الأقوى دائما هي الأسبق والأعلى.

2) يقدم الأثقل ويؤخر الأخف، حتى يكتسب المتكلم نفسا قويا ونشاطا في أول نطقه.

ج. **الغنة:** وقد أشار "ابن جني" في باب "علل العربية أكلامية هي أم فقهية" إلى ظاهرة الغنة، من خلال حديثه عن إهمال ما أهمل مما تحتمله قسمة التركيب في بعض الأصول المتصورة أو المستعملة، فأكثره مهمل متروك نظرا

لاستثقاله ثم يورد عن ذلك أمثلة من بينها: "إهمال ما تقاربت حروفه في قوله..: «وكذلك حروف الحلق: هي من الائتلاف أبعد، لتقارب مخارجها عن معظم الحروف، أعني حروف الفم، فإن جمع بين اثنين منها قدم الأقوى على الأضعف نحو أهلٍ، واحدٍ، وأخٍ، وعهدٍ، وعهرٍ، وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما، إلا بتقديم الأقوى منهما نحو: أُرُلٍ، ووتدٍ، ووطدٍ، يدل على أن الراء أقوى من اللام أن القطع عليها من القطع على اللام، وكأن ضعف اللام إنما أتاها لما تشربه من الغنة عند الوقوف عليها، ولذلك لا تكاد تعتاص اللام»[81] فحرف اللام تحدث عنه غنة حين الوقوف عليه نتيجة ضعف القطع عليه.،يتضح أن الغنة ظاهرة صوتية تتمثل في وقف خاص مع نغمة معينة تلتقطها الأذن.

الخاتمة: وأخيرا يمكن القول إن "ابن جني" قد استطاع وفق منهج لغوي واضح أن يصف لنا ويعلل كل الظواهر المتعلقة بالجانب الصوتي، كما أن الأدلة التي ساقها تقوم على ذوق لغوي دقيق، وإن الباحث ليدهش كيف أتى بتلك النتائج الباهرة دون أن تتوافر لديه وسائل الدرس المعاصر في علم الأصوات «إن دراسة علمائنا للأصوات العربية لا يضاهيها في العمق والدقة والاستقصاء جميع الدراسات التي يقوم بها اللغويون الآن فيما يسمونه"علم الأصوات اللغوية"»[82] ويضيف قائلا: «كانوا أول الرواد لعلم الأصوات اللغوية وعلى كثير من ملاحظاتهم بنيت المباحث الحديثة في مخارج الحروف وصفاتها»[83]

وإن نظرية "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" التي يبين فيها "ابن جني" أن الوحدات الصوتية في الكلمتين تتقارب لنوع تقاربا لمعنى بينهما دون فقدان المعنى الخاص بهما، هذا ما يحسب "لابن جني" ويعجز عنه الدارس الحديث.

يقول د. البدراوي زهران: «وهذا يريك كيف أن معاني الكلمات كانت ترتبط بما في البيئة من محسوسات وتنبثق عنها وإن هو إلا تداع وتقارب فينبثق من محسوس ويتفاعل معنويا مع حسي فيتولد من ذلك معنى جديد»[84]

إن الدراسات الغربية كانت انطلاقاتها عربية، وإن القائلين بتوافق آراء "ابن جني" والآراء الغربية في المجال الصوتي، لا تنصف الدراسات العربية

القديمة، وعليه نضم كلمتنا إلى من قالوا بوجود الكثير من النظريات في تراثنا النحوي اللغوي والصوتي تضاهي أحدث النظريات اللغوية المعاصرة.

الإحالات:

1) أحمد شامية،خصائص العربية والإعجاز القرآني (نظرية الجرجاني اللغوية) ديوان المطبوعات الجامعية،1995، ص77.

2) ابن جني، أبو عثمان. الخصائص، ج1، ص5، 73، أنظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب ج1، تحق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 1954.

3) المصدر نفسه، ج1، ص15

4) المصدر نفسه، ج1، ص33

5) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ط1، وكالة المطبوعات بالكويت، 1973، ص ص 9، 10 للتوسع انظر: ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992، ص60.

6) ابن جني، الخصائص، ج1، ص60.

7) المصدر نفسه، ج1، ص4.

8) للتوسع انظر: المصدر نفسه، ج1، ص ص70 ،73، ج2، ص3

9) المصدر نفسه، ج1، ص1.

10) انظر: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص90.

11) انظر: سيبويه، أبو بشرعمرو، الكتاب،مج 4، ط1، تحق: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، لبنان، 1991، ص431.

12) الأصبعي-عبد الحميد الهادي إبراهيم: الدراسات الصوتية عند علماء العربية، ص54 فيما نقله عن ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص ص 8، 9.

13) ابن جني، الخصائص، ج3، ص ص 124، 125 انظر: إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (د،ت) ص 30.

14) الأصبعي، الدراسات الصوتية عند علماء العربية ص129، فيما أخذه عن: ابن جني سر صناعة الإعراب، ج1، ص8.

15) انظر: -إبراهيم أنيس-الأصوات اللغوية، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1995، ص27.

-عبد الغفار حامد هلال: أصوات اللغة العربية، ط3، مكتبة وهبة القاهرة، 1992، ص88 ص92.

16) عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص122.

17) المرجع نفسه، ص122، فيما أخذه عن ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص56.

18) سيبويه، الكتاب، مج4، ص ص433، 434.

19) عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص 123.

20) المرجع نفسه، ص 124.

21) سيبويه، الكتاب، مج4، ص434.

22) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص92.

23) سيبويه،الكتاب،مج4، ص434.

24) ابن جني، الخصائص، ج1، ص66.

25) المصدر نفسه، ج2، ص328.

26) المصدر نفسه، ج1، ص66.

27) المصدر نفسه، ج2، ص328، انظر: باب حروف الهمس يتبعها في الوقف صوت للتوسع انظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص89. ص ص 133، 134.

28) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ص133، 134.

29) ابن جني، أبو عثمان، الخصائص، ج2، ص40.

30) المصدر نفسه، ج2، ص40.

31) انظر: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص136، ص149.

32) ابن جني، الخصائص، ج1، ص ص 46، 47.

33) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص15.

34) انظر: –ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، ص60.

–المسدي عبد السلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1981.

35) ابن جني، الخصائص، ج1، ص65.

36) المصدر نفسه، ج2، ص12.

37) المصدر نفسه، ج2، ص12.

38) المصدر نفسه، ج2، ص12.

39) المصدر السابق، ج3، ص296، ج2، ص340.

40) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص36

41) عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص ص92، 93.

42) انظر: شاهين عبد الصبور، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة،1987، ص ص 122، 116.

43) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص ص 226، 227، وتعني المماثلة أن صوتا من الأصوات في كلمة أو ما يشبه الكلمة أثر في صوت آخر في نفس الكلمة، فجعل نطقه قريبا من نطقه، بمعنى جعل نطقه مماثلا لنطقه.

44) سيبويه، الكتاب، مج4، ص117.

45) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص226.

46) سيبويه، الكتاب، مج4، ص129.

47) المصدر نفسه، ج2، ص141.

48) وهذا النوع المشهور من الإمالة، أما النوع الثاني فهو إمالة الفتحة نحو الضمة الصلواة، الزكواة، وفي الضرب الثاني نميز بين إمالتين: إمالة شديدة تصبح فيها الفتحة أقرب إلى الكسرة وإمالة خفيفة تمال فيها الفتحة إلى الكسرة، لكنها تبقى أقرب إلى أصلها.

49) المصدر نفسه، ج3، ص21.

50) المصدر نفسه، ج2، ص328.

51) المصدر نفسه، ج2، ص328، للتوسع انظر: سيبويه، الكتاب، مج4، ص423.

52) ابن جني، الخصائص، ج3، ص305.

53) المصدر نفسه، ج2، ص144.

54) المصدر نفسه، ج1، ص73.

- المجادلة 24

55) انظر: عبد الغفار حامد هلال، العربية خصائصها وسماتها، ص120.

56) ابن جني، الخصائص، ج2، ص340. انظر: ج1، ص72

57) المصدر نفسه، ج2، ص 328.

58) روم الحركة: الإشارة للحركة بصوت خفي، انظر: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات القرآنية، ص117.

59) المصدر السابق، ج1، ص72، أنظر: الخصائص، ج2، ص340.

60) المصدر نفسه، ج2، ص 328.

61) المصدر نفسه، ج1، ص371.

62) المصدرالسابق، ج1، ص72.

63) المصدر نفسه، ج1، ص72.

64) المصدر نفسه، ج3، ص 315.

65) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تر: رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ودار الرفاعي الرياض 1982، ص 73.

66) ابن جني، الخصائص، ج3، ص ص 316، 317.

67) سيبويه، الكتاب، مج4، ص 237، ص437، انظر: مصطفى حركات، الصوتيات والفونولوجيا، ط1، دار الآفاق، الجزائر(د،ت)، ص 130.

68) المصدر نفسه، مج4، ص238، ص467، ص469، ص476.

69) عبد الصبور شاهين، أثر القراءات القرآنية، ص185.

70) سيبويه: الكتاب، مج4، ص437

71) المصدر نفسه، مج4، ص437، انظر: ص447 ،449 ،450.

72) ابن جني، الخصائص، ج1، ص ص 92، 94

73) عبد الصبور شاهين،أثر القراءات القرآنية، ص 185.

74) ابن جني، الخصائص، ج1، ص141.

75) المصدر نفسه، ص 139، 143: ويعرف الإدغام حاليا بمصطلح المماثلة "Assimilation"

76) ابن جني: الخصائص، ج2، ص11.

77) انظر: فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 236.

78) ابن جني: الخصائص، ج2، ص 12.

79) المصدر نفسه، ج2، ص 12.

80) المصدر نفسه، ج1، ص ص 54، 55. انظر: عد الغفار حامد هلال، العربية خصائصها وسماتها، ص 356.

81) المصدر نفسه، ج1، ص 54.

82) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص 121.

83) المرجع نفسه، ص ص 121، 122.

84) البدراوي زهران. من قضايا متون اللغة مبحث في قضية الرمزية الصوتية. دار المعارف، القاهرة، 1993، ص 154.

ملامح الدلالة الصرفية عند ضياء الدين ابن الأثير[1]

(ت 637 هـ)

أ/د.عبد القادر سلاَّمي
جامعة تلمسان–الجزائر

❖ **ملخص: تعدّ جهود القدماء في المجال الصّرفي موفّقة إلى حدٍّ بعيدٍ وأوضح الأدلّة على ذلك ما بحثوه في معاني صيغ الزوائد وحروف الزيادة وعلاقتها بالأبنية وصيغ المبالغة، والأسماء المشتقة، وأبنية التصغير، والتأنيث وغير ذلك . فمن بين الذين أسهموا في استجلاء ملامحه وربطه بعلوم أخرى وقرت عند العرب أحد الأعلام المتأخرين عهدا الذين قلّما سلّط الضوء على جهودهم- ضياء الدين ابن الأثير، الذي كانت له إضاءات لافتة في عقد الآصرة بين الدلالة والصرف، فعالج تلك العلاقة ضمن قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى، وقد وضع لذلك قيودا ، من حيث أوضح أنّ لبنية الكلمة أثرا في إيضاح المعنى، إذ يقوى بقوتها ويزداد بزيادتها .**

وتسعى المداخلة التالية إلى استعراض نماذج من تلك العلاقة وتحليل آخر لها وذلك على النحو الذي انتهى إلى علم ابن الأثير في كتابه القيّم"المثل السائر".

1- التعريف بكتاب المثل السائر: ممّا قيل عن "المثل السائر" قول "ابن عماد الحنبلي": "وهو ـ أي المثل السائر ـ في مجلدين جمع فيه وأوعى ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة إلاّ ذكره، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه ومحاسنه كثيرة ."[2]

ويُكمل هذه العبارة المقتضبة "ابن خلكان "فيقول: "ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه فوصل إلى بغداد نسخة منه، فانتدب له الفقيه الأديب عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ... أي أبي الحديد المدائني، وتصدّى لمؤاخذته و الرّدّ عليه وعنّتهُ ..."[3].

وقد ألّف في هذه المؤاخذات ـ أي أبي الحديد ـ كتابا سماه " بالفلك الدائر على المثل السائر".[4] فيوضح هذا الأخير أنّ ابن الأثير أتى بالمحمود والمردود فيقول: "أنّ المحمود هو إنشاؤه وصناعته، والمردود هو نظره وجدله واحتجاجه واعتراضه وإفراطه في الإعجاب والتقريظ* بنفسه لمعرفته وصناعته. وهذا عيب قبيح يُحبطُ الإنسان ." [5]

وقد أحدث هذا الكتاب حركة علمية اشتعلت فيها العقول، وتشابكت الأقلام، يقول محقق كتاب "الجامع الكبير" : "وصنّف أبو القاسم محمود ابن الحسين الركن السنجاري (ت 640 هـ) كتابا يردّ فيه عليه وسمّاه : ـ نصرة المثل السائر وطيّ الفلك الدائر ـ وصنّف صلاح الدين بن أيبك الصفدي (ت 764 هـ) كتابا سماه: نصرة الثائر على المثل السائر ـ وصنّف عبد العزيز بن عيسى كتابا سماه ـ قطع الدّابر عن الفلك الدّائر ـ [6]

غير أنّ من يعرض الكتاب بالدرس، وينعم النظر فيه بالبحث، لن يستطيع أن ينتقص من قدر هذا الكتاب، كما فعل "ابن أبي الحديد". وإن كان ثمة مآخذ تؤخذ على ابن الأثير في هذا الكتاب فواحدة ليس غير، ألا وهي اعتداده الواضح بنفسه وبعمله لدرجة يُحسّ بها القارئ وتكاد تُطلّ عليه من بين السطور، لا بل من بين الكلمات.[7]

وقد قسّم "محمد زغلول سلاّم" كتاب ابن الأثير إلى ثلاثة أقسام من حيث الموضوع الذي تناولته: [8]

القسم الأول: ويشمل المختارات من الشعر و الحديث و الأمثال.

القسم الثاني: ويشتمل على الدراسات الأدبية من ناحية الصناعة البيانية.

القسم الثالث: ويشمل الكتب التعليمية، فهي تهدف إلى تدريب الناشئة على كتابة الإنشاء.

وكتاب "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر "محور بحثنا هو عبارة عن مجلدين:

المجلد الأول: يحوي خطبة المؤلف وكذا المقدمة، وهي تشتمل على أصول علم البيان، ليقسمه بعد ذلك إلى عشرة فصول مختلفة بين الحقيقة والمجاز وكذا الفصاحة، ليخلص في الفصل العاشر إلى طريقة تعلم الكتابة، فيقسم هذا الفصل إلى مقالتين، الأولى منهما في الصناعة اللفظية* والثانية في الصناعة المعنوية.

أمّا المجلد الثاني: فهو تتمة للمجلد الأول، ويُورد فيه النوع الرابع من الصناعة المعنوية إلى النوع الثلاثين. وهي أنواع تختلف فيما بينها من حيث المضمون (توكيد الضميرين، في الحروف العاطفة والجارة، في قوة اللفظ لقوة المعنى، الاشتقاق ...).

2- **الدلالة الصرفية:**

تعارف الدارسون المحدثون على أنواع من الدلالات يدخل بعضها ضمن ما عبّر عنه القدماء بوجه من الوجوه، ويدخل بعضها الآخر فيما سقط إليهم من الدراسات اللّسانية الحديثة فأعملوا فيه الفكر؛ ونبّهوا على ذلك استنطاقاً أو معالجةً.

فممّا تعارفوا عليه: الدلالة الصوتية والدلالة الصرفية والدلالة النحوية والدلالة المعجمية أو الاجتماعية[9] وميّزوا بين الدلالة المركزية والدلالة الهامشية.[10]

أمّا الدلالة الصرفية، فتُستفاد من الصيغ وأبنيتها. ففي اختيار المتكلّم "عرَّف"بدلاً من"عارف"، لأنّ الأولى جاءت على صيغة يُجمع اللغويون القدماء على أنّها تفيد المبالغة[11]، فكلمة "عرَّف" تزيد في دلالتها على "عَارِف" وقد استمدَّت

هذه الزيادة من تلك الصيغة المعينة. فاستعمال كلمة"عرَّف"يمدُّ السَّمع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوَّره لو أنّ المتكلّم استعمل"عَارِف".[12]

وقد جعل التغيير في المعنى" نتيجة تغيُّر صيغة اللفظة، وهو من اختصاص المستوى الصرفي.فالمستوى الصرفي يدرس التغيُّرات التي تطرأ ُعلى صيغ الكلمات فتحدث معنى جديداً".[13] وقد تكون الوحدة الصوتية حركة واحدة كالضمّة، أو الفتحة، أو الكسرة، أو التنوين، وقد تكون حرفاً أو أكثر.[14] وكلّ وحدة صوتية ذات معنى تسمّى: "المورفيم" (Morphème).[15] فالمستوى الصرفي مكوَّن من وحدات صوتية ضمن نظام لغوي معيَّن، وأنّ المستوى الصرفي مرتبط بالمستوى الصوتي .

4- قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى عند ابن الأثير: تنبّه الخليل إلى هذه القضية حين عرض للتمييز بين نوني التوكيد الخفيفة والثقيلة، فالأولى يُؤتى بها للتأكيد و الثانية للتوكيد الشديد.[16]

ولقد حذا ابن الأثير حذو ابن جني في هذه القضية، فأطال الوقوف أمام هذه النقطة مُفيدا في ذلك مما أفاض فيه ابن جني، وإن كان ما قدمه ابن الأثير لم يَخل من جديد كذلك .[17] فقد تعرض ابن الأثير لبحث هذه الخاصية في النوع الثاني عشر من أنواع الفصاحة و البلاغة لديه. وقد سمى هذا النوع: "قوة اللفظ لقوة المعنى" فقال: "هذا النوع قد ذكره أبو الفتح بن جني في كتابه الخصائص إلاّ أنه لم يورده كما أوردته أنا ولا نبه على ما نبّهت عليه من النكت التي تضمنته وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه ." [18]

ثم أنشأ يعرض لعدد من القضايا المهمة المتعلقة بهذا الباب، فقد تعرّض لدراسة العلاقة بين المبنى و المعنى فوضع لها من الضوابط و القواعد ما ينمّ عن سعة أفقه في هذا الباب وعُمق دراسته .[19] فهو يرى أنّ نقل اللفظ والعُدول به من صيغة إلى صيغة أخرى أكثر حروفا من الأولى لابدّ أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا .

ويرى أنّ هذه الطريقة لا تستعمل إلاّ في مقام المبالغة فيقول: "اعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نُقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا؛ لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه. وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة" .[20]

ومن هنا نشأت الفكرة التي تقول إنّ: "زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى".[21] فمن الأمثلة التي ذكرها على ذلك قوله: "فمن ذلك قولهم، خشن واخشوشن فمعنى(خشن) دون معنى (اخشوشن) لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو نحو: (فعل) و(افعوعل) وكذلك قولهم: أعشب المكان، فإذا رأوا كثرة العشب قالوا: اعشوشب.[22] ومما ينتظم بهذا السلك: قدر واقتدر، فمعنى (اقتدر) أقوى من معنى (قدر). قال تعالى: (فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ).[23] فمقتدر ها هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر، وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلاّ عن قوة الغضب أو للدلالة على بسطة القدرة. فإنّ المقتدر أبلغ في البسطة من القادر. وذلك أنّ مقتدرا اسم فاعل من اقتدر، وقادر اسم فاعل من قدر، ولا شكّ أنّ افتعل أبلغ من فعل.[24]

والمفسرون بإجماع على ما ذهب إليه ابن الأثير هنا، ففي تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ .) [25i]. يقول ابن عاشور ـ على سبيل المثال: "المليك: فعيل بمعنى المالك مبالغة وهو أبلغ من ملك، ومقتدر أبلغ من قادر وتنكيره وتنكير مقتدر للتعظيم ." [26]

ومن الأمثلة التي ذكرها ابن الأثير: قوله تعالى في سورة نوح: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)[27] حيث يبيّن أنّ الله تعالى قد عدل عن (غافر) لأنّ (غفّارا) أبلغ في المغفرة من (غافر) لأنّ (فعّالا) يدل على كثرة صدور الفعل و(فاعلا) لا يدل على الكثرة. ثم يقول: "وعليه ورد قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) .[28]

فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة على مرة وهو (فعّال) وذلك أبلغ من التائب الذي هو (فاعل). فالتائب اسم فاعل من تاب يتوب، فهو تائب، أي صدرت منه التوبة مرة واحدة فإذا قيل (توّاب) كان صدور التوبة منه مرارا كثيرة ".[29]

والحق أنّ هذا النص يكشف لنا عن تنبه ابن الأثير لعدد من الأمور المهمة:[30]

الأمر الأول: زيادة المعنى لزيادة المبنى.

الأمر الثاني: التفاته إلى أنّ هذه الزيادة في المعنى مقيدة بما يعدل فيه عن صيغة إلى أخرى أكثر منها حروفا. الأمر الثالث : وُقوفه على الغرض البلاغي لهذا العدول ، وهو المبالغة التي يقتضيها المقام .

وقاعدة زيادة المبنى يقتضي زيادة المعنى يضع لها ابن الأثير قيودا ، وأول هذه القيود: كون اللفظ منقولا ومعدولا به من صيغة إلى أخرى أكثر منها يقول: "وها هنا نكتة لا بدّ من التنبيه عليها. وذلك أنّ قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلاّ في نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها، كنقل الثلاثي إلى الرباعي وإلاّ فإذا كانت صيغة الرباعي مثلا موضوعة لمعنى، فإنّه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثي إلى مثل تلك الصيغة. ألا ترى أنه إذا قيل في الثلاثي قتل، ثم نقل إلى الرباعي فقيل: قتّل بالتشديد ، فإنّ الفائدة من هذا النقل هي التكثير[31] أي أنّ القتل وجد منه كثيرا. وهذه الصيغة بعينها لو وردت من غير نقل لم تكن دالة على التكثير، كقوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيمًا). [32] فإنّ (كلّم) على وزن (فعّل) ولم يُرد به التكثير، بل أريد به أنه خاطبه، سواء كان خطابه طويلا أو قصيرا ، قليلا أو كثيرا. وهذه اللفظة رباعية ، وليس لها ثلاثي نقلت عنه إلى الرباعي لكن قد وردت بعينها ، ولها ثلاثي ورباعي، فكان الرباعي أكثر وأقوى فيما دلّ عليه من المعنى. وذلك أن تكون (كلّم) من الجرح: أي

جرّح، ولها ثلاثي وهو (كلم) مخففا، أي جرح فإذا وردت مخففة دلّت على الجراحة مرة واحدة، وإذا وردت مثقلة دلّت على التكثير.[33]

وكذلك ورد قوله تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)[34]، فإنّ لفظة (رتّل) على وزن لفظة (قتّل) ومع هذا ليست دالة على كثرة القراءة، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأني والتدبر، وسبب ذلك أنّ هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى رباعي، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة، وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلاّ بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه.[35]

والحق أنّ هذه التفاتة طيبة من ابن الأثير، ترجع قيمتها إلى أمرين مهمين:[36]

الأول: أنّ زيادة المبنى لا تقتضي زيادة المعنى على إطلاقها. بل شرط ذلك كون الصيغة منقولة من صيغة أقل إلى أخرى أكثر بناء، أمّا إن كانت الصيغة الأكثر ليست منقولة عن أخرى أقل منها كما في نحو: (كلّم) بمعنى خاطب (ورتّل) بمعنى القراءة، فإنها لا تكون حينئذ موضوعة للمبالغة أو التوكيد، بل لمجرد إفادة معناها المعجمي.

الثاني: وهو التفات ابن الأثير إلى أنّ الغرض البلاغي من المبالغة والتوكيد ونحوهما، لا يتأتى إلاّ عن طريق العدول أو الانحراف الفني القائم على التخيّر بين البدائل الصحيحة للمعنى. وهذا يدل على وعيه لمسألة التفريق بين الدلالة النمطية أو المعنى النمطي و المعنى الفني.[37]

والقيد الثاني الذي وضعه ابن الأثير ونبّه إليه زيادة على ما اشترطه من ضرورة أن تكون الصيغة منقولة، وهذا القيد الثاني هو ما نبّه إليه بقوله: (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ)[38]، فإنّ معنى كبكبوا من الكبّ وهو القلب إلاّ أنّه مكرر المعنى، وإنما استعمل في الآية دلالة على شدة العقاب، لأنه له موضعا يقتضي ذلك. ويُطبّق ابن الأثير كلامه السابق على زيادة التصغير

فيخرجها من هذا الباب فيقول: "ولربما نظر بعض الجهال في هذا فقاس عليه زيادة التصغير وقال: إنها زيادة ولكنها زيادة نقص؛ لأنه يزاد في اللفظ حرف كقولهم في الثلاثي في رجل: رُجيل وفي الرباعي في: قنديل: قُنيديل. فالزيادة وردت ههنا فنقصت من معنى هاتين اللفظتين. "ويُضيف قائلا: "هذا ليس من الباب الذي نحن بصدد ذكره، لأنه عار من معنى الفعلية والزيادة في الألفاظ لا تُوجب زيادة في المعاني إلاّ إذا تضمنت معنى الفعلية، لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها. "ألا ترى أنّ لو قلنا (عَذْب) وهي ثلاثية إلى الرباعي فقلنا (عَذْيَب) على وزن جعفر لاستحال معناها، ولم يكن لها معنى. وكذلك لو نقلنا لفظة (عسجد) وهي رباعية إلى الخماسي فقلنا (عسجدد) على وزن (جحمرش) لاستحال معناها. وهذا بخلاف ما فيه معنى الفعلية كقادر ومقتدر، فإنّ (قادر) اسم فاعل من (قدر) وهو ثلاثي، و(مقتدر) اسم فاعل من (اقتدر) وهو رباعي. فلذلك كان معنى القدرة في (اقتدر) أشدّ من معنى القدرة في (قدر) وهذا لا نزاع فيه. [39]

ويُستفادُ من هذا النص أنّ ابن الأثير يرى :

1 ـ تقييد زيادة المعنى لزيادة المبنى، بما كان فيه معنى الفعلية. ومن ثم فهو يرى أنّ الأسماء التي لا معنى للفعل فيها، إذا زيدت استحال معناها.

2 ـ إخراج التصغير عن قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى، لتُخلف الشرط السابق.

الخاتمة:

انتهى البحث إلى نتائج عامة وأخرى خاصة.

فمن العامة، يمكننا أن نقول:

- لعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نؤكد أنّ لعلماء العربية إسهامات واضحة في علم المعنى، وضعوا أصولا وأسّسوا مفاهيم انبثقت من تصورهم للغة. هذه

الأصول والمفاهيم تُشبه إلى حد كبير المفاهيم والتصورات لعلم الدلالة المعاصر فقد أبانوا و ابن الأثير واحد منهم:

ـ أنّ الدافع الذي حمل العرب على الربط بين اللفظ ومدلوله هو اعتزازهم بألفاظ العربية وحرصهم على الكشف عن أسرارها وخباياها.

ـ أنّ العرب وإن كانت تعتني بالألفاظ إلاّ أنّ المعاني أقوى عندها في الدلالة على القصد.

أما الخاصة فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

ـ من أشكال الدلالة الواردة عند ابن الأثير الدلالة الصوتية و الصرفية عالج الأولى في نطاق الاشتقاق الأكبر، و توصل إلى حقيقة مفادها أنّ التقاليب الستة للكلمة الثلاثية تؤدي إلى مدلول واحد مهما يتغاير ترتيبها الصوتي، وهذه حقيقة يُقرّها علم اللغة الحديث، وعالج الثانية ضمن قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى، فأوضح أنّ لبنية الكلمة أثرا في إيضاح المعنى، إذ يقوى بقوتها ويزداد بزيادتها.

ـ يضع ابن الأثير لقاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى قيودا هي:

❖ ـ كون اللفظ منقولا ومعدولا به من صيغة إلى أخرى أكثر منها.

❖ ـ يخرج صيغة التصغير من باب زيادة المعنى لزيادة المبنى كون الزيادة في التصغير تُنقصُ من معنى اللفظة.

❖ ـ يُؤكّد أنّ الزيادة في اللفظ لا تُوجب الزيادة في المعاني إلاّ إذا تضمنت معنى الفعلية ، لأنّ الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها.

الهوامش:

1- هو أبو الفتح نصر الله ضياء الدين بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الموصلي الملقب بضياء الدين. وهو عربي الأصل شيباني النسب. ولد يوم الخميس العشرين من شعبان عام ثمان وخمسين وخمسمائة، أي في منتصف القرن السادس عشر هجري. لم يكتف ابن الأثير (ت 637 هـ) بحفظ القرآن الكريم

والحديث النبوي الشريف والشعر الرصين قديمه وحديثه، بل أضاف إلى ذلك أمهات الكتب في عصره، مما يخدم صناعة الكتابة. فقد قرأ كتاب "الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني" ويذكره في مواضع عدة من كتابه " المثل السائر ".كما قرأ لزوميات المعري (ت 449 ﻫ) ونقدها فقال: "وقد جمع أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان في ذلك كتابا وسماه كتاب اللزوم. فأتى فيه بالجيد الذي يحمد والرديء الذي يذم. "كما قرأ كتاب الخصائص لابن جني (ت 392 ﻫ). وكثيرا ما كان يستشهد بأبيات من كتاب الحماسة، كما نقل كثيرا من أبي نواس، وكتاب الروضة للمبرد (ت 285 ﻫ) وكذا تفسير الفراء النحوي (ت 207 ﻫ). ولذا نبيح لأنفسنا القول، بأنه كان عالما موسوعيا أخذ عن جلّة علماء يُشار إليهم بالبنان إذ كلّ واحد منهم كان رأسا في علمه ومادته، بل هم ركائز الأدب والبيان العربي. كما كان ابن الأثير عالما باللغة السريانية، وهذا مأخوذ من قوله في المثل السائر: "واعلم أنّ هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا في غير اللغة العربية ووجدتهما في اللغة السريانية، فإنّ الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منهما بالكثير، ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس..." بالإضافة إلى وقوفه على اليونانية في المقالة الثانية في الصناعة المعنوية نسمعه يقول: "اعلم أنّ المعاني الخطابية قد حصرت أصولها، وأوّل من تكلم في ذلك حكماء اليونان. "إذا، نستطيع أن نقول إنّ الرجل ــ ابن الأثير ــ كان أمشاجا ممتزجة من ثقافات متنوعة عربية وغير عربية، انصهرت جميعها في بوتقة، فصارت أثيرية الطبع والطابع. وقد ظهر واضحا أثر هذه الثقافات في آثاره، فقد استطاع الرجل أن يؤلف الكثير من الكتب التي ذاع صيتها وفاح أريجها بين قراء العربية قديما وحديثا، وهذا ما شهد له به كل من ترجم له، فابن خلكان مثلا يقول عنه "ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله..." ومن مؤلفاته نذكر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، والوشي المرقوم في حل المنظوم والجامع الكبير، وله مجموع اختار فيه شعر أبي تمام (ت 231 ﻫ) والبحتري (ت 284 ﻫ) وله ديوان ترسّل. كما أنّ له رسالة يصف فيها الديار المصرية، وكتاب الاستدراك في الأخذ على المآخذ الكندية. وقد انفرد "جرجي زيدان" من بين من ترجموا لابن الأثير بذكر رسالة في الأزهار. وكتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء. كما يذكر له "زيدان" كتابا باسم "البرهان في علم البيان". ويقول إنّه موجود ببرلين. ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان 5 / 389 – 391 ومحمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، ص2 وابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 1/ و1 / 93، 102، 109، 110، 163 ــ 164 184 –187، 188، 301، 306، 263 و2 / 56، 157، 159، 192 202، 277 وجرجي

زيان: تاريخ آداب اللغة العربية، 51/2 و3 / 51 وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 5 / 188 والتهانوي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 2 / 876.

2 ـ ينظر: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 5 / 188.

3 ـ ينظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان 5 / 391 .

4 ـ ينظر: التهانوي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 2 / 876 .

* ـ التقارظ يكون في المدح والخير خاصة. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، 7 / 216، مادة (ق ر ظ).

5 ـ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر: 1 / 18.

6 ـ ينظر: ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: "مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، دط، 1965 م، ص 36.

7 ـ ينظر: ضياء الدين بن الأثير: كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا، ص 22.

8 ـ ينظر: محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، ص 70.

* – يقصد ابن الأثير بالصناعة اللفظية: الفصاحة والبلاغة، وبالصناعة المعنوية: التشبيه والاستعارة، التفسير بعد الإبهام، التقديم والتأخير.

9 ينظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص46–51. والجدير بالذكر هنا أنّ تمام حسّان ميّز بين أقسام المعنى، فذكر: المعنى الوظيفي (وهو الذي تكشف عنه المباني التحليلية للغة)، والمعجمي (الذي تدلّ عليه الكلمة المفردة كما في المعاجم)، والدلالي أو المقامي أو الاجتماعي (أي المعنى الذي لا يكتفي بتحليل تركيب المقال ولا بمعنى كلماته المفردة، وإنّما يراه فوق ذلك في ضوء المقام). (ينظر: تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص 39). واستنطاقاً وتحليلاً للدلالة عند القدماء زاد فايز الداية على ذلك الدلالة السياقية الموقعية. (ينظر: فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، ص 20).

10– يعدّ إبراهيم أنيس، فيما يبدو، أوّل من عُرف عنه استخدام مصطلحيْ الدلالة المركزية والدلالة الهامشية، كما أنّه الوحيد من بين لغوي العربية الذي خصّص بحثاً للحديث عن هاتين الدلالتيْن. (محمد محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلالياً، ص 155). فالدلالة المركزية تعكسها قناعة أفراد البيئة اللغوية الواحدة في حياتهم "بقدرٍ مشتركٍ من الدلالة يصِلُ بهم إلى نوعٍ من الفهم التقريبي الذي يكتفي به النّاس في حياتهم العامّة. وهذا القدر المشترك من الدلالة هو الذي يسجّله اللغوي في معجمه ويسمّيه بالدلالة المركزية. أمّا الدلالة الهامشية فعرّفها، بأنّها "تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمْزِجَتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم

وأجدادهم". وقد شبَّه الدلالة "بتلك الدَّوَائر التي تحدث عقِبَ إلقاء الحَجَر في الماء. فما يتكَوَّنُ منها اوّلاً... يمثِّلُ الدلالة المركزية للألفاظ، يقع فهم بعض النّاس منها في نقطة المركز، وبعضهم في جوانب الدّائرة، أو على حدود محيطها. ثمّ تتّسعُ تلك الدَّوَائر، وتصبح ُ في أذهان القلَّة من النّاس وقد تضمّنت ظلالاً من المعاني لا يُشْرِكُهم فيها غيْرُهم". وتتّصل الدلالة الهامشية عنده اتِّصالاً وثيقاً بما يسمّيه علماء النَّفْس بالعاطفة. ("(ينظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص106-107). وإذا كان إبراهيم أنيس لم يُشِر صراحةً إلى ما إذا كانت الدلالات الهامشية مشاعرَ أو أفكَاراً، وإنْ كان مجملُ كلامه يوحي بأنّ المقصود بها ردود الفعل أو الاستجابات النفسية أو الأثر النفسي للكلمات، ففي تراثنا العربي من إشارات تتّصلُ اتِّصالاً بفكرة اشتمال الكلمات على معانٍ زائدة على معانيها المركزية، وأنّ اللفظ ليس قالباً مقيِّداً للمعنى وحاصِراً له، وبفكرة أنّ لتلك المعاني الزَّائدة أهمّيةٌ قصوى في التأثير في نفوس المتلقّين. نفسه، (ينظر: محمد محمد يونس علي: وصف اللغة العربية دلالياً، ص155، 177-178). فقد عبّر أبو سعيد السيرافي(ت368هـ)، فيما رواه أبو حيّان التوحيدي (ت 414هـ)، عن الفكرة الأولى حين ذهب إلى القول بأن" مُركَّبٌ اللفظ لا يحوزُ مبسوطَ العَقْل؛ والمعاني معقولةٌ ولها اتِّصَالٌ وبَسَاطَةٌ تامَّةٌ؛ وليس في قوَّة اللفظ من أيِّ لغةٍ أن يملك ذلك المبسُوط ويُحيط به، وينْصِبَ عليه سُوراً، ولا يَدَعَ شيئاً من داخله أن يَخْرُج، ولا شيئاً من خارجه أن يدخُلَ، خوفاً من الاختلاط الجَالِبِ للفسَاد"، مشيداً بجهود العلماء والفقهاء في عدَم توقّفهم على ما يفهمه عامّة النّاس لغَوْر استنباطهم وحُسْن تأويلهم لمَا يَرِدُ عليهم وسَعَة تشقيقهم للوجوه المحتَمَلَة والكنايات المفيدة والجهات القريبة البعيدة. (ينظر: أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، 169/1). أمّا الفكرة الثانية، فقد أثارت اهتمام عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) حين فرّق بين مستويين من المعاني: (1)- المعاني الحقيقية أو المعاني المعجمية. (2)- والمعاني المجازية أو معاني العلاقات. فأطلق على الفرع الأول: "المعنى"، وعلى الثاني" معنى المعنى". (مقدمة مُراجع النص العربي لكتاب: فيرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ص 11). وقد مثّل لمصطلح (المعنى) بما يُفهَم من دلالة اللفظ (خَرَجَ زيْدٌ) و(عمْرٌو منْطَلِقٌ) عند قصد الإخبار عن زيدٍ بالخروج وعن عمرو بالانطلاق. ومن الأمثلة التي أوضح بها مراده من مصطلح (معنى المعنى) قول أحدهم: "بلَغَني أنَّك تقَدِّمُ رِجْلاً وتُؤَخِرُ أُخْرى"، فتعْلَمُ من قوله هذا أَنَّه أرَادَ التَرَدُّدَ في أمر البَيْعَة واختلاف العَزْم في الفِعْل وترْكِه على ما مضى. "وإذ قد عَرفْتَ هذه الجملَة فها هنا عبارةٌ مختَصَرَةٌ وهي أن نقولَ" المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تَصِلُ إليه بغير واسِطَةٍ وبمعنى المعنى أن تعْقِلَ من اللفظ معنًى ثمّ يُفْضي بِكَ المعنى إلى معنًى آخَرَ كالذي فَسَّرْتُ لَكَ."(عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 184). على أنّ من

المحدثين من نسَبَ هذا الضَّرْبَ من الاهتمام إلى "حازم القَرْطَاجَنِّي" (ت 640 هـ) مع سوْقِ للشواهد السابقة من" دلائل الإعجاز": مع شيءٍ من التفصيل.. والحقُّ أنّ أقربَ مصطلحين في دراسات الغربيين للمعنى من زاوية الفرْق بين ما يدلُّ على دلالة مركزية وما يدلً على دلالة هامشية تعود إلى جون استوارت مِلْ (Jhon Stuart Mill) الذي قدّم هذا التقابل الاصطلاحي عام (1843م) وهما مصطلحا Denotation (الإحالة) أو (المعنى التصوُّري:Conceptuel أو حقيقي كما يسمِّه البيانيون) أو إشاري :Dennotatif . فلفظ" الأم" مثلاً يعرض لنا تصوُّراً للأمِّ مشتملاً على جميع العناصر التي لا يتحقّق المعنى بدونها. ومصطلح: Connotation (التضمّن أو المعنى اللُّزومي) :Connotatif وهو ما يُفْهَمُ من اللّفظ زائداً عن المعنى التصوُّري، فإذا رجعنا إلى لفظ "أمّ" وجدنا أنّ هذا المعنى قد يتكوَّنُ من الخصائص التي يمكن أن يفهم المعنى بدونها (كالزَّوَاج والإرْضَاع وغيرهما)، ولأنّ هذه العناصر تقوم من الأمِّ مقام الكَرَم من كثْرة الرَّمَاد ، وهذا هوالمعنى البعيد. (ينظر: محمد محمد يونس: وصف اللغة العربية دلالياً، ص158-177) وتمام حسان: الأصول، ص384-385 و Geoffrey Leech, Semantics the study of meaning ,pp9,12-13.

11 - ينظر: أبو الحسن علي بن عيسى الرمّاني، النَّكت في إعجاز القرآن، ص 104-106 وابن الناظم: شرح ألفية ابن مالك، ص 441 وعبد الصّبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية، ص 115.

12- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص 47 وينظر: عبد الصبور شاهين: العربية لغة العلوم والتقنية، ص 135.

13 -عبد القادر أبو شريفة وداود غطاشة وحسين لافي: علم الدلالة والمعجم العربي، ص 13.

14 -المرجع نفسه، ص 13 وينظر: عبد الصّبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية، ص 35-36.

15 - تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص 204 ومحمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 219.

16 ــ ينظر: مجلة العلوم الإسلامية، مجلة، العدد 2، ص 151 ــ 152.

17 ــ ينظر: خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ص 39.

18 ــ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر، 2/ 56 .

19 - ينظر: أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ص 39.

20 ــ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر، 2 / 56.

21 ــ ينظر: رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللغة، ص 21.

22 ــ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر 2 / 56 وابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، 3 / 264 ، وينظر: حسام سعيد النعيمي: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، ص 284 .

23 ــ سورة القمر: الآية 42.

24 ــ ينظر: ابن الأثير: السائر، 2 / 56 وابن جني: الخصائص 3 / 265.

25 – سورة القمر: الآيتان 54 ــ 55.

26 ــ ينظر: محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، 27 / 213.

27 ــ سورة نوح: الآية 10.

28 ــ سورة البقرة: الآية 222.

29 ــ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر، 2 / 57.

30 ــ ينظر: عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ص 40 .

31 ــ جاء في لسان العرب: قتلوا تقتيلا بمعنى: شد للكثرة. ينظر: ابن منظور: لسان العرب 11 / 552 مادة (ق ت ل).

32 ــ سورة النساء: الآية 164.

33 ــ ينظر: المثل السائر 2 / 59 ــ 60.

34 ــ سورة المزمل: الآية 4.

35 ــ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر 2 / 60

36 ــ ينظر: عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ص 41 .

37 ــ ينظر: المرجع نفسه، ص 41 ــ 42 .

38 ــ سورة الشعراء: الآية 94.

39 ــ ينظر: ابن الأثير: المثل السائر، 2 / 57 .

قائمة المصادر والمراجع

أ–العربية:

* ــ القرآن الكريم.

–ابن الأثير، نصر الله ابن محمد بن عبد الكريم:

*الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد وجميل سعيد مطبعة المجمع العلمي العراقي، دط، 1965 م.

*كتاب المفتاح المنشا لحديقة الإنشا، تحقيق: عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة الإشعاع الفنية، ط 1 الإسكندرية، 1419 هـ، 1999 م .

*المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1411 ﻫ 1990 م.

– ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، 1376 ﻫ، 1957 م .

– ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

– ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط 1، 2000 م .

– ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان .

–ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت.

–ابن الناظم، أبو عبد الله بدر الدين محمد: شرح ألفية ابن مالك، تحقيق عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.

– أبو شريفة، عبد القادر وغطاشة، داود ولافي، حسين: علم الدلالة والمعجم العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1989م.

–أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، ط 2، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، 1963م.

–تمام حسان:

*الأصول دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، النحو، فقه اللغة، البلاغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1401هـ– 1981م.

*مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1400هـ–1979م.

–التهانوي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مطبعة وكالة المعارف، مصر، 1941 م.

– التوحيدي، أبو حيان:الإمتاع والمؤانسة، سلسلة الأنيس، موفيم للنشر، 1989م.

– حسان، تمام: اللغة العربية مبناها ومعناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.

– الداية، فايز: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

– دومي، خالد قاسم بني: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، ط 1 عمان، الأردن، 2006 م.

– دي سوسير، فيرديناند: علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، ط2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1988م.

- الرمّاني، أبو الحسن علي بن عيسى: النَّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرّمّاني والخَطَّابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق محمد خلف الله محمد ومحمود زغلول سلامدار المعارف، ط2، مصر، 1387هـ-1968 م.
- زيدان ، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، مكتبة دار الحياة، بيروت.
- سلام، محمد زغلول: ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد، مكتبة نهضة مصر بالفجالة.
- السعران، محمود: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت.
- شاهين، عبد الصّبور:
*المنهج الصوتي للبنية العربية - رؤية جديدة في الصرف العربي- مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1400هـ-1980م.
*العربية لغة العلوم والتقنية، ط2، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1986م.
- علي محمد محمد يونس: وصف اللغة العربية دلالياً، منشورات جامعة الفاتح، ط1، طرابلس ليبيا، 1993م.
- عبد التواب، رمضان: بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، ط 2، القاهرة، 1408 ه 1988 م.
- مجلة العلوم الإسلامية، مجلة دورية تصدر عن جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، رمضان1407 ه، ماي، 1987 م، العدد 2 .
- هنداوي، أحمد يوسف: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم- دراسة تطبيقية نظرية ــ ، المكتبة العصرية، ط 1، صيدا، بيروت، عدد 343، 2001 م.
- النعيمي، حسام سعيد: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت.
ب-الأجنبية:
-Geoffrey Leech, Semantics the study of meaning, second edition, Pinguin, 1990.-

الجهود المعجمية عند المستشرقين معجم فيشر التاريخي:

المنهج والأسس أنموذجا

أ. وهيبة وهيب
جامعة تلمسان

• **ملخص: يسعى هذا المبحث إلى استعراض جهد لأحد أهم الإسهامات الاستشراقية في إعداد المعجم التاريخي، ممثلة في معجم فيشر التاريخي مستعرضين خصائصه وأسسه المنهجية.**

بدأ الاهتمام بالمعجم العربي منذ أن أصبحت اللغة العربية لغة الوحي الإلهي، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واعتناق الشعوب والأمم المختلفة الإسلام وانضوائها تحت رايته في دولة واحدة.

وفي الوقت الذي شرّف فيه الله تعالى هذه اللغة بأن صارت لغة القرآن (بلسان عربي مبين).

خرجت عن القوانين التي تحكم لغات البشر من حيث الاتجاه إلى التفتت والانتشار وسارت في مسارين متوازيين: أحدهما في مجال التوسع والنمو واستيعاب حصيلة ما وصل إليه الفكر الإنساني في مختلف حقول المعرفة والمسار الآخر يتمثل في بقائها موحدة ثابتة الأصول من حيث نحوها وصرفها والتجويد في نطقها [1].

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: "اللغة العربية لغة وعي" ويقول في موضع آخر " إن في اللفظ العربي جرسا موسيقيا لا أجده في لغتي الفرنسية"[2]

ويقول عنها أحد المستشرقين المعاصرين: "إن اللغة العربية لغة متميزة عاشت 15 قرنا لم تتغير في أثنائها تغيرا جوهريا. إنها كفينوس ولدت وافية الجمال واحتفظت بهذا الجمال على الرغم مما أصابها بمرور الأيـام" (3).

لقد ورثنا هذه اللغة عن آبائنا ثرية وكاملة بقواعدها النحوية والصرفية المنضبطة وبمعاجمها الغنية، وهذه اللغة بالأوصاف التي ذكرناها وعبر تاريخها الطويل لاشك في حاجتها إلى معجم تاريخي يكون ديوانا شاملا لمفرداتها ومختلف التغيرات التي طرأت على معانيها وخزانة لأفكار أهلها .

لقد كان الوعي بحاجة العربية إلى معجم تاريخي مبكرا عند إنشاء مجمع اللغة بالقاهرة (1934 م).

فمرسوم إنشائه نص على أن من أغراض المجمع: (... أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية وأن ينشر أبحاثا دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها) وفي دور الانعقاد الأول أ ُلفت لجنة لتنفيذ الفقرة الخاصة بالمعجم التاريخي. وكان من أعضاء المجمع آنذاك المستشرق الألماني (فيشر) الذي شرح لأعضاء المجمع كيف وضعت الأمم الأوروبية معاجمها التاريخية، وقدم بحثا حول طريقة العمل فيه وفي دور الانعقاد الثاني قدم إلى المجتمع نموذجا لمعجمه هو الثلث الأول من مادة (أخذ) مشفوعا بمراجعه ورموزه. فنوقش هذا النموذج ووافق عليه الأعضاء، وقرر رئيس المجمع تأليف لجنة للعمل مع فيشر في مراجعة معجمه.وقبل أن يسافر إلى ألمانيا عام 1939 م كان قد أعد مقدمته والجزء الأول منه، وبعد اندلاع الحرب العالمية لم يعد فيشر إلى مصر وتعذرت مواصلة العمل في المعجم، وفي سنة 1949 توفي فيشر وقرر المجمع طبع ونشر ما أعده فيشر من المعجم (4).

وما يجدر الإشارة إليه أن ما قدمه فيشر لم يكن معجما تاريخيا بالمعنى العام ولكنه لما تكفل بالتأريخ للعصر الجاهلي والقرون الثلاثة الأولى من

الإسلام بقي على المجمع أن يستكمل العمل في الفترة التالية التي أرخ لها فيشر وهي تقدر بحوالي عشرة قرون، وبهذا يصبح المعجم تاريخيا.[5]

وقد وضح فيشر منهج معجمه في مقدمته التي طبعها مع نموذج منها وأجاب على سؤال افترضه:

كيف يجب أن يكون معجم اللغة العربية الفصحى ملائما للتطور العلمي في العصر الحاضر؟

يقول: يجب أن يشتمل المعجم على كل كلمة وجدت في اللغة، وأن تعرض على حسب وجهات النظر السبع الآتية: التاريخية، الاشتقاقية، التصريفية التعبيرية، البيانية، الأسلوبية.[6]

وحتى يكون صنع المعجم دقيقا جعل له حدا زمنيا يمتد من عصر الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وهو ما أشار إليه بقوله: "فالمعجم يتناول بقدر الإمكان بحث تاريخ كل الكلمات التي جاءت في الآداب العربية مبتدءا بالكتابة المنقوشة المعروفة بكتابة النمارة من القرن الرابع للميلاد ومنتهيا بالعقد

السابق ذكره (نهاية القرن 3 هـ أي حتى منتهى ما وصلت إليه اللغة العربية الفصحى من كمال).[7]

وحدد ميدان بحثه بقوله: " يتناول الكلمات الموجودة في القرآن والحديث والشعر والأمثال والمؤلفات التاريخية والجغرافية وكتب الأدب والكتابات المنقوشة والمخطوطات على أوراق البردي وعلى النقود ... وقد استثنيت من ذلك في الغالب الكتب الفنية إلا أني توسعت في أخذ المصطلحات منها "[8]

والأصل عند فيشر أن تكون مصادر معجمه المصادر الأصلية الأولى للعرب لا المعاجم، وعودته إلى المعاجم كانت عند انعدام وجود مصدر لأحد الألفاظ وهو ما صرح به: "ولكن وردت في المعجمات العربية الكبيرة التي صنفها

العرب كلمات وتعابير ومعان لم أعثر على شواهـد لها في الكتب التي بحثتها"[9]

ويمكن سرد هذه المصادر على النحو التالي : [10]

- جمع كل الكلمات التي في :

- دواوين: امرئ القيس، النابغة الذبياني، عنترة، طرفة، علقمة زهير بن أبي سلمى، الأعشى، الطرماح، الطفيل الغنوي، جران العود، ذي الرمة.

- جمع كل الكلمات تقريبا التي في:

- ديوان أسفار الهذليين

- ديوان أوس بن الحجر

- في حماسة أبي تمام

- في حماسة البحثري

- في المقامات الحريرية

- كل الكلمات غير المشهورة التي في

- دواويـن: عبيد بن الأبرص، عامر بن الطفيل، المتلمس، الحطيئة، عمر بن قميئة،عروة بن الورد، قيس بن الخطيم، حاتم الطائي، عمر بن كلثوم الحارث بن حلزة، لبيد بن ربيعة، الخنساء، أمية بن أبي الصلت، حسان بن ثابث، سلامة بن جندل، الشماخ، أبي ذؤيب الهدلي، أبي كبير الهذلي القطامي، القحيف العقيلي، ابي دهبل الجمحي، مزاحم العقيلي، عمر بن أبي ربيعة، الكميت، الهاشميات، ابن قيس الرقيات، كثير عزة، أبي العتاهية الفرزدق، جرير، الأخطل، العجاج، رؤبة بن العجاج - في بعض شعر أبي العلاء المعري وأبي نواس

- في الأصمعيات

- في مجمع الأمثال للميداني

ـ في صحيحي البخاري والمسلم

كلمات كثيرة:

ـ في الكامل للمبرد

ـ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام .

ـ في كتاب المغازي للواقدي

ـ في التاريخ للطبري

وجمع :

ـ كل الاصطلاحات النحوية التي في كتاب سيبويه وفي كتاب المفصل للزمخشري .

ـ الإصلاحات الخاصة بالحديث وبنقد أساليب الحديث.

أما ترتيبه للكلمات فكان حسب الترتيب المألوف لحروف الهجاء العربية على اعتبار الحرف الأول والثاني والثالث أساسا ويبدأ المادة بذكر الفعل المجرد ثم المزيد ، وتذكر الأسماء كلها بعد الأفعال سواء كانت مشتقة أم جامدة[11].

وبعد هذه النظرة الفاحصة لمنهج فيشر في معجمه استطعنا الوقوف على بعض المزايا التي جعلت من معجمه نموذجا متميزا نجملها في النقاط التالية:

1 ـ الاعتماد على النصوص الأصلية من المصادر العربية دون الاعتماد على المعاجم.

2 ـ التحديد الزمني الدقيق بالانطلاق من أقدم عصر وردت فيه الكلمة إلى غاية نهاية القرن 3 هـ.

وهذا يعني تتبع مسار الكلمة تاريخيا.

3 ـ إرشاده إلى المعنى الحقيقي للكلمة بذكر الشاهد من بعض المصادر العربية .

4 ـ يتبع الشرح العربي الكلمات شرح مختصر بالإنجليزية وآخر بالفرنسية وهذه المزايا إن دلت فإنها تدل على جهد الأستاذ المستشرق فيشر

الجاد في ميدان صناعة المعجم، ويعتبر هذا المعجم على الرغم من عدم إكماله تاريخيا ركيزة يعول عليها المعجميون المحدثون لإنشاء معجم للغة العربية بالاستفادة من هذه التجارب الرائدة في مجال المعجمية.

هوامش البحث ومراجعه:

(1) ــ ينظر : اللغة العربية على مدارج القرن الواحد والعشرين. عبد الكريم خليفة، دار الغرب الإسلامي، ط$_1$، 2003، ص 29 .

(2) ــ مقالات لغوية، صالح بلعيد، دار هومة، د ط، 2004، ص 79

(3) ــ المعجم التاريخي للغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2008، ص40.

(4) ــ ينظر: نفسه ــ ص52.

(5) ــ ينظر: نفسه ــ ص55.

(6) ــ ينظر: نفسه ــ ص54.

(7) ــ ينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسني نصار، دار مصر للطبــــاعة، د ط 1988، ج2، ص587.

(8) ــ نفسه، ص 588.

(9) ــ ينظر: نفسه ــ ص 588.

(10) ــ ينظر: المعجم التاريخي للغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، ص30.

(11) ــ ينظر المعجم العربي نشأته وتطوره، ص289.

البنيوية وقواعد التحليل اللساني

أ.د. عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

1) البنيـوية

1 – 1) أي شيء هي البنيوية ؟ يظهر أن طرح تساؤل حول مفهوم "البنيوية" structuralisme في مطلع الألفية الثالثة هذه لا يخلو من غرابة أو خجل، لأنه لم يعد مباحاً لنا في هذه المحطة التي وصلت إليها أن نفكر في مجرد تعريف لها وقد نبذتها اتجاهات لغوية واجتماعية وأنثروبولوجية وفنية هنا، وعصرتها اتجاهات أخرى عصراً كله تقدير وإعجاب، لتتفنّن في مدحها وتتشعب في محاولة تطبيقها حتى في العادات والتقاليد والثقافات الشعبية، بَلْهَ اللسانيات العامّة والتعليمية.

ومن جهتنا يجب أن نتحلّى بالموضوعية والاعتراف للمشرئبّين إلى هذا الموضوع بأننا مازلنا لم نلمّ إلماماً علمياً بحيثيات هذه الظاهرة، وفي أحسن الأحوال لا تعدو إحاطتنا بها أكثر من خدوش سطحية بين نقدتنا ولسانيينا الذين كان يفترض فيهم أن يكونوا أساتذتنا وقدوتنا، وما على الأجيال اللاحقة إلا أن تنطلق من حيث انتهى هؤلاء، وذلك على الرغم من بعض الإطلالات التي أمدّنا بها لسانيون عرب في هذا المجال.

إن لسانياتنا العربية المعاصرة بقدر ما تشكو عَوَزًا كبيراً في إبداعاتها القديرة حتى تتقاطع مع ما يشرق عليها من نظريات خارجية بين كل فينة وفينة فإنها لا تبرح راضية بتبعيتها إلى ما يبتكر في سماء أمريكية وأوروبية، وأحسب أن هذه التبعية ليست بدعاً مما نعرف من تبعيات أخرى تكاد تكون شاملة.

إن اللسانيات الجديدة، ومنذ أكثر من قرن، غدت علوماً عامة كأي علم من علوم الطبيعة والذرة والاجتماع، ... ومن ثم فإننا لا نخجل من أن نتعانق مع أي نظرية لسانية تبتكر هنا أو هناك شريطة أن نهضمها ونقرّبها بأقصر الطرق الممكنة والأقل تعسفاً.

1-1-1) هضم المصطلح: ومع ذلك، فإن هضم نظرية لسانية جديدة أو قديمة يقتضي أولاً، وقبل أي شيء، هضم مصطلحاتها، والإشكال الأكبر فيما نرى، لا يمكن في هضم المصطلح في حدّ ذاته بقدر ما يكمن في تبايننا واختلافنا في مفهومه الواحد الأوحد.

هل أجد نفسي مبالغاً إذا ادَّعيت أنّ أكثر من سبعين في المائة من المصطلحات اللسانية الجديدة مختلف فيها بين اللسانيين العرب المحدثين؟ أي ليس ثمة إلا زهاء ثلاثين في المائة مما يمكن أن نتواصل به، بعبارة أخرى لا يوجد بيننا تفاهم عامّ.

إن اللسانيات الجديدة بنت نفسها بناء جديداً بقوالبها ومصطلحاتها وأصبح لها قاموسها الداخلي الخاص بها كأي قاموس فيزيائي أو طبي أو رياضي، ... ولا يمكن لأي مغامر، يريد أن يلج عالمها، أن يدخل من غير أبواب كلماتها التي تعدّ بالمئات بل بالألوف.

ولعله من حسن حظ هذه الكلمة أن المصطلحات التي توظَّف في حقل البنيوية أقل المصطلحات اختلافاً بين الناس، لأن اختلافها مرتبط بشيء من الصرامة تبعاً لكل مدرسة لسانية، ومع ذلك فإن ترجتهما عندنا يظل مشوباً بغموضات لا يخلو بعضها من غرابة وبعد عن المعنى الأصلي للمصطلح في مدرسته الأم.

2-1-1) شبح البنيوية: ولعل طغيان شبح البنيوية جعل يسود الحقول الدراسية، يوم بدأت اللغة، ومع مطلع القرن العشرين، تتعامل مع المنظومة اللغوية تعاملاً علمياً – أي موضوعياً – لا تعاملاً فَقَلِغِيًّا (معيارياً) معتبرة اللغة هدفاً دراسياً في حد ذاته لا وسيلة أومطية تُمْطَى للوصول من خلالها إلى معارف أخرى، مؤكدة أن اللغة ليست إلا نظاماً قائماً بذاته، بل نظام أنظمة بالتعبير الديسوسوري الشائع، وأما الدراسة المعيارية فتتنافى مع اللغة كنظام لكونها تلتفت إلى التاريخ في كل حال من أحوالها، مع أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية، فضلاً عن أنه لا ثبوتَ في اللغة إلا الثبوت الآنيّ.

وكانت هذه النظرة إلى اللغة على هذا النحو الجديد فتحاً معرفياً لفت فضول الدارسين حتى في مجالات غير لغوية، لأن أية ظاهرة من الظواهر الثقافية أو الاجتماعية بدائية كانت أم حضارية إلا ويمكن اعتبارها أيضاً نظاماً قائماً بذاته، ومن ثم فهو يشكّل في تواصله الاجتماعي والثقافي نظام أنظمة مِثْلُه مِثْلُ اللغة، مما جعل هذه الدراسات تفيد الشيء الكثير مما طفا من نظريات لسانية حديثة.

أقول، غدت اللسانيات الحديثة في مجملها تنظر إلى العناصر اللغوية من أفعال وأسماء، وحروف، وظروف، وصفات، ولواحق، وسوابق،... والتي تركَّب في أي خطاب، على أنها لا تركَّب بدون قصد أو من قبيل الحرية، ورأت أن كل عنصر في تركيب لغوي لا يُدْرَك بمعزل عمّا يصحبه من عناصر أخرى، وهي كلها تؤلف بنية واحدة، فضلاً عن كون أي عنصر لا يكسب قيمته الحقيقية إلا بالنسبة لسائر العناصر كلها، فإذا كان روائي يفتتح روايته: "الساعة الآن تشير إلى الرابعة والنصف (1)، لقد تأخرت نصف ساعة عن الموعد (2)، بدأت أشك في أنها ستحضر (3)، أشعلت سيجارة (4)، ونظرت إلى الشارع من خلال زجاج النافذة الصقيل (5)، السيارات قليلة على غير العادة (6)، ربما لأن اليوم عطلة نهاية الأسبوع(7)، الناس يفضلون الذهاب إلى الطبيعة(8)، آخرون يلزمون

بيوتهم (9)، أنا اخترت أن أعقد موعداً في هذا اليوم (10)، وفي هذه الساعة بالذات (11)...".

فهل يعني أن التراكيب الأحد عشر السابقة تشكل إحدى عشرة بنية أي بنية واحدة ؟ من الناحية اللسانية لا نجد بنية واحدة تتشابه مع بنية أخرى بصرف النظر عن كونها اسمية أو فعلية، وبصرف النظر عن الضمائر والأزمنة، وعن كون بعضها جملاً نواتية phrases noyaux أو جملاً أو موسّعة، وأما ورود وحدة لسانية متكررة مثل "الساعة" فلا تشير إطلاقاً إلى تناوب الشيء نفسه، ففي(1) تشير إلى آلة قياس الزمن، وفي (2) تشير إلى جزء من الزمن نفسه، وفي (11) تشير إلى وقت الموعد (الرابعة مساء)، ...

3-1-1) لا يجمع البنيات جامع واحد: لا يَجْمَعُ البنياتِ اللسانيةَ جامع واحد متماثل كلياً، وإلا اختزلنا الكل في بنية واحدة وارتحنا وأرحنا، بمعنى أن المنظومة اللسانية مجال مفتوح أي ليست حكراً على تركيب دون تراكيب أخرى، وما نتلقاه نحن كقراء يختلف اختلافاً جذرياً عما نتلقاه كمبدعين (كُتّاب)، فالنص متماثل لنا كقراء خارج المنظومة اللسانية، لأننا نسهم في تهجّي أصواته واجترار معانيه دون الإسهام في بنائه، وانفتاحه علينا وشفافيته معنا لا يعنيان في كل حال أننا جزء من كيانه وإبداعه.

وإذا ما وُصِفت اللغة بأنها لا تعدو أن تكون أكثر من اختلافات وتباينات في أصواتها وعناصرها وتراكيبها، فإن الظاهرة نفسها تنسحب على جملها وفقرها ونصوصها، تتلاعب بها وقائعها السانتكسية، والمورفولوجية والفونولوجية، والدلالية "لا وجود في اللغة إلا للاختلافات، ومن غير حدود إيجابية، وإذا ما اتخذنا الدال والمدلول، فإن اللغة لا تتضمن أفكاراً، ولا أصواتاً تسبق المنظومة الألسنية، بل اختلافات تصورية وأخرى صوتية منبثقة وحسْبُ، عن هذه المنظومة، وما يوجد في علامة ما، من فكرة معينة، من مادة صوتية هو أقلّ أهمية مما يوجد حولها في العلامات الأخرى،... غير أن الواحدة

والواقعة النحوية ليستا سوى اسمين مختلفين لتعيين مظاهر لواقعة واحدة عامة هي لعبة التقابلات الألسنية"[1].

لو تابعنا الجمل والتراكيب التي ترد في نص إبداعي أصيل لما وجدنا فيه بنية وهي قائمة بأركانها، غير أن بنية تِلْوَ بنية،... يؤول في النهاية إلى بنية واحدة لا بنيتين، لأن كل نص لا ينبغي أن تقابله إلا بنيته نفسها، وإلا كان شبحاً لقيطاً لا جنس له، لأن أحداً منا لا يتصور أن يكون لقصيدة أو قصة أو رواية نصَّان إلا إذا تصور أن لكل واحدة منها شاعريْن أو قاصيْن أو كاتبيْن.

وإذا ما قُدِّر أن يَحْدُث تَشَابُهٌ من باب ما يُسَمَّى تَوارُدَ الخواطر أو السطو على إبداع الآخرين من ناس خُلقوا لغير الإبداع، فإنه يمكن قياس العملية وتقديرها مضاهاة بالعلامة بين وحدتين صوتيتين بكون العلاقة بينهما إما تفاضلية:

وَلَـدٌ ≠ بَلَد، عـام ≠ نـام،...

وإما تبادلية:

ثور رِفَلّ ≠ ثور رِفَنٌّ

وقفت فيها أصَيْلاَناً = وقفت فيها أُصَيْلاَلاً

ليس من البرّ الصيامُ في السفر = ليس من مْبِرّمْصِيَامُ في مْسَفَرِ

وفي هذا المقام، فإننا لا نتجاهل البون الشاسع بين البنية في سياق عناصرها اللسانية العليا والدنيا، والبنية ذاتها في سياقها الخطابي، ومن ثمّ فإنه لا يَغْرُبُ عنا مستويات أخرى قد تكون بريئة كل البراءة كالتناص العفوي وتوارد الخواطر، ولكن هذه الالتفاتة لا تحول دون معرفة ما هو تفاضلي مما هو تبادلي بين الإبداعات التاريخية أو المتزامنة أو ما بين ذلك، أي لا يحول دون استثمار اللسانيات الجديدة لفرز ما هو أصيل مما هو دخيل أو لقيط في إبداع فني أو أدبي، وكم كان حازم القرطاجني (684هـ) بصيراً، وقد أشار وهو يعالج المعاني القديمة المتداولة أو الجديدة المخترعة: "فإذا تساوى تأليفا

الشاعرين في ذلك، فإنه يسمى الاشتراك، وإن فضلت فيه عبارة المتأخر عبارة المتقدم فذلك الاستحقاق لأنه استحق نسبة المعنى إليه بإجادته نظم العبارة عنه وإن قصّر فيه عمن تقدمه فذلك الانحطاط"[2].

1 – 2) البنية اللسانية والتحليل

1-2-1) البنية اللسانية: البنية اللسانية التجريد الذي لا يعيّن مسبَّقاً وقائع لسانية إلا من خلال شبكة العلاقات للتعارض المتمايز بين العناصر التي تسمح للغة بأداء وظيفتها الأساس، والتي هي وظيفة تبليغية، ولكي يكون ثمت فعلاً تجريد، فإن البنية اللسانية ينبغي ألاّ تكون خلقاً من الفكر، بل منبعثة أو مستخلصة من اللغة، وأما العلاقات داخل البنية فيجب أن يكون كلّ عنصر يُحْتَفظ به بحيث ألاَّ يمكن له أن يكون إلاّ كما هو ومن خلال علاقته بالعناصر الأخرى، وإذاً فتوجد هناك بنية في حالة ما إذا كانت التباينات بين الوحدات تتعارض فيما بينها مُظْهِرة قيمها المتمايزة، وهكذا فإن البنية لا يمكن لها أن توضّح كل الظواهر التي تؤلّفها لغة، وإذا كانت بنيات المجتمع أو بنيات التصرفات لمتكلمين لها تأثير على اللغة، فإنها تبقى ثانوية بالقياس إلى وظيفتها التبليغية. وتعريف اللغة عموماً كبنية يضطرنا أن نأخذ بعين الاعتبار كل أنماط البنيات التي يمكن أن تشترك فيها، ويجب تقديمها على عكس ذلك، حسب اقتراح هلمسليف، كـ"كُنْه entité مستقل عن التبعيات الداخلية". فالمفهوم الوحيد للبنية المؤسَّس على الطابع الوظيفي للتبليغ هو ما يُجْمِل حُجَّتَيْ هلمسليف: استقلال، و"تبعيات داخلية".

1-2-2) تَصَرُّفُ البنية اللسانية: وعملياً، فإن تخليص البنية من اللغة وهي تُمَارَس في أي ناحية من نواحي السلسلة الكلامية أو الخطية، لا يخرج عن إطار التبليغ، فإذا قلنا: عاد/زيد/منتصراً، فإننا نخلِّص on dégage أو نسْحب ثلاث وحدات دلالية، حيث إن التبليغ في هذا المستوى غير ممكن إلا بهذه النواحي الثلاث أو المقاصد الثلاثة: عاد، زيْد، منتصراً. ولمواصلة كل المستويات، فإن

هذه العملية تحدّد علاقات التعارض البراديغمي (الاستبدالي) بين العناصر الممكن أن تكون مُدْرَجَة في المقصد أو المتَّجَه نفسه في السلسلة:

هذا الولد	عـاق	ولـد عـاقّ ← علاقة تركيبية
هذا الولد	مطيع	ولـد مطيع ← علاقة استبدالية
هذا الولد	بـارّ	ولـد بـارّ ← علاقة استبدالية

أي أن علاقات التضامن تتضح تراتبياً عبر مستويات التحليل المتباينة تحت شكل العلاقات التركيبية والاستبدالية، وهذا المذهب الساعي إلى تعويض المذهب الذرّي atomisme الذي كان يقول إن المادة مؤلفة من جواهر فرْدَة، وأن الأجسام تتكون وتفسد باجتماع هذه الجواهر وافتراقها، وَجَدَ صَدىً في نظريات حلقة براغ 1929 وفي الملتقى الدولي اللساني في لاهاي عام 1930، حيث مصطلحا بنية structure وstructural وبنيوي ظهرا لأول مرة، إذ قال تروبسكوي "النظام الفونولوجي ليس المجموع لفونيمات معزولة بل هو التنظيم كله، والفونيمات ليست إلا أجزاء منه، وبنيته خاضعة لقوانين"[3] وهكذا نرى، أن البنية استعملت أول ما استعملت في حقل الفونولوجيا لتتوسع لاحقاً على مستويات لسانية أخرى، وأما بيرو BIROU فعرّف البنية عام 1966: "كيفية أقسامها المختلفة التي تؤلف الكلّ، يُنَسَّق الواحد منها مراعاة للآخر"[4]، وهذه الأقسام ليست معرَّفة بوساطة طبيعتها الخاصة، بل عَبْرَ العلاقات المختلفة التي تربطها، وهنا يؤكَّد على العلاقات والشكل، أو عَبْرَ الوظيفة التي تؤدّيها في الكلّ، دون إغفال الوظيفة، ومن ثم فإن البنية تنظيم شكلي أو وظيفي، وهذا ما ترك غموضاً يغطي هذه الكلمة إلى عصرنا، فعلى مستوى الفونيمات فأن فعالية الإبدال commutation حجة دامغة فعلاً، لأنها تسمح بتحديد الطابع البنيوي لعلاقات التعارض، أما على مستوى المونيمات في

حقل العلاقات السيمنطيقية، فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة لاستخلاص أنظمة مقفلة Clos، باستثناء الحالات المتمتعة بالامتياز كما في كلمات القرابة Parenté والأعداد، ولذا، كما يقول جورج مونان، لا يوجد حتى الآن علم دلالة بنيوي حقيقي، وأما ڤريماس فيذهب إلى أبعد من هذا(5).

3-2-1) البنية على مستوى الأسلوبية: وعلى مستوى الأسلوبية فإن البنية تصرّف أو حالة أو هيئة أو تنظيم... راسخ fixe إلى حد ما، أو هي بنية خاضعة لبعض القوانين لملفوظ أو جزء من ملفوظ، وهذا النوع من البنية موجَّه بوساطة التعابير "بنية الجملة"، "بنية سونيّة sonnet (قصيدة من 14 بيتاً)"، بنية رواية تشرُّدية picaresque"، وهذه نزعة، وإلا فإن طابع نصوص أدبية، اللغة فيها أكثر مُبَنْيَنَة أو بوجه آخر مُبَنْيَنة وحسب في الاستعمال اليومي، والكلمات غالباً ما تأخذ معنى جديداً(6).

وفي الإطار نفسه لنتصفَّح كلمة "connotation" التي استعملتها المدارس الفلسفية الشهيرة في العصر الوسيط (مدرسة سكولاتيك scolatique) حيث سادتْ فلسفة أرسطو في التدريس، والتي كانت تتعارض مع dénotation (دلالة ذاتية)، وكانت connotation تعني منطقيا المفهوم المرافق للمفهوم الأصلي، أي دلالة إضافية، بينما صارت تعني لسانياً ظِلاً للمعنى، أي دلالة غير مباشرة كأن يعبّر المرء بما تقتضيه الكلمة من معانٍ، ويرى لسانيون أنها كانت مرادفاً للنية أو القصد أو الفهم، وكانت تعرَّف كمجموعة من سمات جوهرية للتصوّر وأصبح connotation (التضمين أو المفهوم المقترن) يتعلق لاحقاً بمجموعة من القيم الفعلية لعلامة، ولفعل غير دلالي ذاتي يظْهر على المتكلم أو القارئ، أو لا يتعلق بأيّ ما من شأنه أن يستدعي évoque، أن يوحي suggérer، أن يهيِّج أو يحرّض exciter، أي يشرك أو يورّط impliquer بشكل واضح أو غير صريح والمقولة الأخيرة لأندري مارتني(7)، ويُعْطى مثالاً لذلك أننا نحس جيداً إذا كانت كلمة muraille (سور) لا تشير إلى صنف من الأشياء التي لا تتوافق ne

coïncide pas مع الدلالة الذاتية للجدار، فإن الفرق مع ذلك يَسْتَحِقّ أن يشار إليه بأنه محمول على التأويل الحسن بالنسبة للفعل الحاصل من قبل الكلمة ولكننا حين نتناول التضمين الذي تقترن فيه معانٍ بلفظة ما، فإننا نمس حقولاً من علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي أو الفردي، وعليه فإن اللسانيين يظهرون في أكثر الأحيان متحفظين.

4-2-1) البنية مجموعة من المسلّمات اللسانية : وعموماً، فإن البنية مجموعة من المسلمات اللسانية، وبدءاً من ميزة أو طابع معين، نستطيع أن نكوّن نظاماً مُرَتَّباً من القواعد الممكن وصَفَ العناصر ووصف علاقتها في الآن ذاته إلى درجة محدَّدة من التعقيد.

ويظل تصور البنية إذ ما رجعناه إلى مختلف البنيويات صعباً تعريفه، مما يجعل هذه الإحالة ضرورية على مختلف المدارس ومقارنتها بالاشتراك.

وعلاوة على ما أشير إليه أعلاه، فإن البنية قبل أي شيء نظام يشتغل وفق قوانين (بينما العناصر ليس لها إلا أولويات) والتي تدوم أو تُثْرى بحكم هذه القوانين نفسها دون إسهام لعناصر خارجية أو بدون وجوب ممارسة فعل على عناصر خارجية، وبمعنى آخر، فإن البنية نظام مميَّز بمفاهيم الكلية والتحويل والانتظام الذاتي autorégulation، وكل البنيويين متفقون على مقابلة البنيات بالركامات أو التراكمات، بالنظر إلى أن هذه الأخيرة مؤلَّفة من عناصر مستقلة على الإطلاق، وهكذا نضع إلى الأمام في حسباننا الكلية كطابع لأية بنية، ومن ثم فإن العناصر التي يمكن لها أن تشكّل البنية هي إذاً مُحْكَمَة régis بوساطة قوانين مُمَيّزة للنظام بوصفه كما هو، والذي يُضفي على الكلّ كافة خصوصياته. أي البنية لا تُعَرَّف بعناصرها المؤلفة منها بل بعلاقة بعضها ببعض في إطار المجموع.

ومما هو معلوم أن نظام اللغة المسلَّم به في فترة معطاة بعيد ليكون ثابتاً immobile، وكل البنيات المعروفة أنظمة تحويلات إما غير مقيدة بزمن، وإما زمنية.

1-2-5) البنية والبنيوية: وبصدد البنية والبنيوية، فإن دي سوسور لم يستخدم كلمة "البنية" بل كلمة "النظام" الذي يشير إلى القوانين التي بمقتضاها تنتظم اللغة، وإنما ظهر المصطلح لأول مرة –مثلما أشرنا- في مؤتمر فقهاء اللغة السلافيين عام 1929 في براغ، وظهر المصطلح في العمل المنشور بهذه المناسبة من قبل جاكبسون وكارسفسكي KARCEVSKY وتروبتسكوي TROUBETZEKOY، وكانت تحيل بدقة إلى أن اللغة بصفتها نظاماً لا يأخذ عنصر فيها قيمته إلا من خلال علاقات الارتباط المتبادل وعلاقات التشابه والتعارض الذي يتعهّد مع العناصر الأخرى في النظام، مثلاً: يوجد ارتباط متبادل interdépendance بين M في "masse" كتلة" وP في "passe" لأن الأمر يتعلق بصامتين شفويين bilabiales يتعارض في هذه الأشياء فيما بينهما، حيث P صامت مهموس sourde وM صامت أنفي خيشوميّ أو أغنّ nasale، ونتيجة لهذا، فيمكن الحديث هنا عن علاقة بنيوية بين هذين العنصرين اللذين يَسِمَانِ الفرق بين التركيبين syntagmes "masse" و"passe".

1-2-6) البنية نظام داخلي: وكما نرى، فإن البنيوية تنصّ على أن اللغة يجب أن تُدْرس قبل كل شيء من وجهة نظر نظامها الداخلي، وكان سوسور أشار بدقة ووضوح إلى الفرق بين اللسانيات الخارجية والداخلية ضارباً المثل بلعبة الشطرنج التي دخلت أو روية من فارس فهي ذات نظام خارجي، وكل ما يتعلق بالنظام والقواعد فهو ذو طابع داخلي.

وكلمة بنيوي structural المستعملة في العلوم الإنسانية ولاسيما في اللسانيات، تحيل إلى واقع تجردي أي إلى واقع يمر حتماً عبر سيرورة مَفْهَمية أو

تصوّرية، والبنية بهذا المعنى تُدْرَك كمجموع منظَّم من روابط ونظام من علاقات المبادئ العامة للتحليل البنيوي.

1 – 3) المبادئ العامة للتحليل البنيوي

1-3-1) بين بنيوي structural وبنائي structurel [8] : يجب أن نعمل على التمييز بنيوياً ما يخص كلمة structurel وكلمة structural، فالأولى تعني كل شيء ملموس لتنظيم، مثلاً على المستوى السوسيو- الاقتصادي (الهياكل les infrastructures) والسياسي، والقانوني، والإيديولوجي أو أكثر على مستوى التنظيم المادي كل ما له صلة بالإنشاء المادي لمجموع خاص، وكذلك الأقسام المختلفة لآلة أو صَرْح أو جسم بيولوجي، ... وبهذه المناسبة يشار هنا إلى أن كلمة structure (بنية) تختص بالحقيقة المادية وتكوينها وتنسيقها وتلاحمها sa contexture، وعلى العكس من ذلك، فإن كلمة structural المستعملة في العلوم الإنسانية وخاصة في اللسانيات تحيل إلى حقيقة تجريدية réalité abstraite أي إلى حقيقة تمر بالضرورة عبر تصورية أو مَفْهَمِيَّة conceptualisation.

1-3-2) تعريف لالاند البنية: وعرّف لالاند LALAND البنية بقوله: "البنية كل شكل من أشكال الظواهر المتضامنة بحيث إن كلاًّ منها يتبع أخرى ولا يكون إلا بعلاقته مع ما يجمعه بالعناصر الأخرى"، وهلمسليف الذي سبق لنا أن أشرنا إليه يذهب إلى أنّ "اللسانيات البنيوية مجموعة من الأبحاث تقوم على فرضية يحسبها أنه بات شرعياً وعلمياً أن نصف حتماً اللغة كحالة كُنْهٍ مستقل عن تبعيات داخلية، وباختصار بنية" [9]، ومن ثَمَّ يمكن القول إذاً على سبيل المثال إنّ structural خلافاً لـ structurel غير ممكن إدراكها مباشرة، ولننفذ إليها، فإنه من الضرورة أن نُجري بعضاً من البراهين التجريدية، كما هو الحال مثلا في إنشاء النماذج التي تقرّر اللسانيات فيها أن نموذجاً un modèle ما هو إلا

إنشاء أو بناء أو تركيب نظري يسمح بدقة ووضوح بتفسير ظاهرة تَحْدث في اشتغال اللغة le fonctionnement.

ويعترف لسانيون بأن لفظة structurel ما يتعلق بالبنية la structure لكنها تُستَخْدَم تارة بوصفها مُعَادِلَةً équivalent، وتارة أخرى باعتبارها متميِّزة distinct عن "البنيويّ"structurel، فالاستخدام بالمفهوم الأول نجده –مثلاً- في النحو التوليدي الذي من أحد أهدافه أنه يعزو إلى كل جملة وصفاً بنيوياً (حسب رويت Rewet) أو وصفاً بنائياً structurelle (تبعاً لـ: ليون Lyons)، وأما الاستخدام بالمفهوم الثاني، فيشَار به إلى نَعْت المنهج، مثال ذلك أن اللسانيات البنيوية تدرس الظواهر البنائية (المتعلقة بالتركيب اللغوي) التي تنتمي إلى البنية كما هي[10].

ومما لفت انتباهي عفوياً، وأنا أتَتَبَّع هذا المفهوم للفظة بنية أنّي وجدت بعض المعاجم العربية تعرّف البنية بقولها: "البِنْيَة الهيئة التي بُنِي عليها"[11]، بل وقفت فيها على أعجب من هذا، حيث أطلق بعضها "البُنْية" (بضم الباء) على كل ما يتعلق بالمعاني و"البِنية) (بكسر الباء) إذا ما أريد بها المحسوسات: وهذا التمييز، فيما نرى، أوضح مما مُيِّز أعلاه بين structurel وstructural، إذ يمكن أن نطلق البنية (بضم الباء) على البنية اللسانية التجريدية، والبنية (بكسر الباء) على كل ما هو هيكلي ظاهر للعيان.

1 – 4) قاعدة الملازمة أو المثولية Règle d'immanence

1-4-1) ما هي قاعدة المثولية؟ المقصود بهذه القاعدة أنها تشير إلى أن حالةً أو وضْعَ كائنٍ أو عُنْصرَ كائنٍ مثولياً في كائن أو عنصر آخر، وما أعظم سيبويه الذي أشار بطريقته البنيوية الخاصة إلى القاعدة من خلال المسند والمسند إليه "وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بُدًّا فمن ذلك الاسم المبتدأ أو المبنيُّ عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول

بدّ من الآخر في الابتداء"(12)، وقول سيبويه يكاد يتداخل بقول دي سوسور: "اللغة نظام لا يعرف إلا ترتيبه الخاص"(13)، وقول سيبويه يشير أيضا إلى الفرق بين ما هو خارجي وما هو داخلي بالنسبة للبنية اللسانية.

على أي حال، قاعدة المثولية ترى أنه من الضروري أن نستبعد من الدراسة اللسانية كل ما لا يرجع جوهرياً intrinsèquement إلى اللغة بذاتها، وعرّف أحد اللسانيين (J.B.FAGES) قاعدة الملازمة بقوله: "قاعدة الملاءمة تستلزم أن التحليل يأخذ مكانه في الموضوع l'objet لدراسة الوظيفية والتي تتخلى عن مناهج أخرى ذات كل اعتبار إزاء العالم"(14) أي نخرج الدراسة اللسانية من الطابع الفلسفي الذي عادة ما يدخل عوامل خارج اللغة، على الرغم من أن معظم المؤلفات المدرسية في القواعد النحوية لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا تصنيفات تعود إلى نحاة العصر القديم، مثلا تصنيفات les classes الأفكار تتطابق مع تصنيفات الأسماء، والاسم le substantif يحيل إلى "الماهية la substance" كائنات وأشياء، والنعت إلى خاصيّات، والفعل إلى حصول أعمال، ... وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن كتبنا المدرسية لم تستفد بعدُ من أعمال لسانية بنيوية مؤسسة على قاعدة المثولية التي ترى بحسبها أنّ الأمر لا يتعلق بالبحث خارج اللغة وتبريرات وتفسيرات موضوعها.

وبوجه آخر قد يكون أكثر تقريباً أن قاعدة المثولية l'immanence (حالة كائن ماثل في كائن آخر) في اللسانيات البنيوية، وخاصة في اللسانيات النسقية، كلّ تحرّ لساني يسعى إلى تعريف بنيات موضوعها من خلال العلاقات الوحيدة لعبارات داخلية لهذا الموضوع، وهكذا، فإن النسقية glossématique مثلاً تسمَّى ماثلة immanente، بدعوى أنها وظيفية بنيوية أي تدرس العناصر اللسانية تبعاً لوظيفتها المنوطة بها في بنية الخطاب، أو بعبارة أخرى، لأنها تقصي كل الانشغالات المسمّاة رفيعة أو عظيمة لإضفاء استعلاء مجّاني لها لا يمتّ بصلة حقيقية إلى الشيء نفسه، ما عدا الماورائيات الميتافيزيقية.

1-4-2) متى تكون البنية ماثلة؟ ويقال أيضاً البنية إنها ماثلة عندما يمكن أن تُحَدَّد بوساطة العلاقات الوحيدة لوحدات فيما بينها، فالبنية الفونولوجية في لغة تُعَيَّن بالتقابلات بين فونيماتها بمعزل عن أي إحالة إلى الماهية الصوتية، وإلا انحصرت لغتنا في بنيات لا تعْدوها، ولذا لم يقل دي سوسور عبثاً: "لا وجود في اللغة إلا للاختلافات"[15]، بل مثلما تتعارض الفونيمات تتعارض المونيمات (أدنى وحدة لغوية دالّة)، ومثلما تتعارض هذه الأخيرة تتعارض التراكيب، والجمل، والنصوص،... لا شيء يشبه بعضه بعضاً أو يكرّر نفسه لمجرد لذة أو تبهيج، بل يمكن أن نذهب بعيداً، حتى ولو كان هذا غير مناسب هنا، إلى الزعم بأن كل حركة من حركات شخوص قصة أو رواية ليس أكثر من تعارض فونيمات في لغة، وكل حركة بطل رئيس ليس أكثر من جملة معقدة، وكل حركة عناصر ظلية ليس أكثر من تراكيب وجمل ثانوية وسوابق ولواحق،... كل حركة لا تشبه الأخرى، ولو صدرت من شخص واحد مرات لا نهائية، وما يميز جنساً فنّياً ما يمكن في ذلك الكل الذي يلحّمه والفرق بين جنس وجنس بل على مستوى مجال جنس بذاته هو ما يبلور هيئته وهويته بفضل حدود وفواصل الاختلافات، وإلا كنّا نقول الشيء نفسه.

ويؤكّد هلمسليف أنّ الدراسة الماثلة للغة ترفض التدخل لظواهر وتفسيرات خارج اللغة مكتفية بالشيء المعطى نفسه المحدِّدِ لطبيعته، وكل لجوء إلى مواد أخرى، لا يُعَدّ من وجهة نظر لسانية إلا رجوعاً إلى شكل من أشكال الوقوع وراء نطاق المعرفة أو التجربة[16]، ويُسَجَّل على المثولية ثلاث ملاحظات:

1-4-3) إرساء المثولية: كان دي سوسور أول من أرسى مبدأ المثولية لتعزيز استقلالية اللسانيات في موضوعها كما في منهجها، ومثلما نتمكّن من دراسة قواعد لعبة الشطرنج دون معرفة أصولها وتطورها التاريخي، ودون الاهتمام بالمادة التي تكوّن قطعها، فكذلك يمكن للِّساني أن يدرس وظيفية أو اشتغال

اللغة دون طلب العون بالمؤرخ والفيلسوف، ودون الاستعانة أيضاً بمادة مثل الفيزياء أو الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء).

1) أصل المثولية ظهر تاريخياً في اللسانيات (لكن بكيفية غير لازمة ولا حصرية) مربوطاً بالبنيوية بإعطاء الأهمية إلى المدونة (مجموعة ملفوظات مكتوبة أو مسجَّلة تستخدم من أجل الوصف اللساني).

2) أبْعَدُ من ذلك وخارج البنيوية، فإن علة المثولية اليوم غدت شيئاً مُزَعْزَعا إما بوساطة النحو التوليدي، وإما عَبْر موادّ مفصّلة جديدة (علم النفس اللغوي، علم الاجتماع اللغوي) أعادت إقامة جسور بين اللسانيات واللسانيات الماورائية، وعلى أقلّ تقدير، اكتسحت اكتساحاً معتبراً ميادين اللسانيات.

1 – 5) قاعدة الملاءمة Règle de pertinence

1-5-1) ما هي قاعدة الملاءمة؟ هذه القاعدة من القاعدة السابقة تماماً إنها ترتكز على أنْ تحدّد بكيفية صارمة الطابع النوعي لمادة من منطلق أن كل علم يفترض الاختيار لوجهة نظر خاصة، فالأشياء الوحيدة التي لها صلة وثيقة أو ملائمة للحساب والأعداد، وفي الهندسة الأشكال، وفي المِسْعَرية alorimetrie، درجات الحرارة على حد تعبير أندري مارتني، وعليه، فاللساني يجب أن ينطلق دائماً من وجهة نظر بحثه الخاص تبعاً لعدد من المعايير أو المميّزات العلمية الملائمة pertinents.

فقاعدة الملاءمة التي تعني إذاً كل كائن أو عنصر له صلة وثيقة بكائن أو عنصر آخر، مما يقرّبها من قاعدة المثولية، تنطبق على كل مستوى من مستويات التحليل البنيوي كالمستوى المورفولوجي، والفونولوجي، والدلالي والسانتكسي... وللساني الحق في تطوير تحليله الذي يراه ضروريا للوصول إلى مشروعه، والأهم أن تكون هذه المستويات معيَّنة تعييناً كاملاً، وأن يكون كل واحد منها محلَّلاً انطلاقا من معاييرَ ملائمة pertinents.

ويضرب أندري مارتني أمثلة توضيحية للعناصر التي يمكن أن تدخل من العناصر التي لا يمكن لها أن تكون كذلك بالنسبة للملاءمة اللسانية: "مهندس الصوت l'acousticien والفَسْلَجي le physiologiste يمكن لهما أن يدرسا حقيقة الصوت أو حقيقة الأعضاء الباثة للصّوت، ليكن كسْر une fraction كيفما كان لسلسلة كلامية، فإننا نستطيع أن نعتبره كظاهرة فيزيائية وكتتابع للارتجاجات التي يسجلها مهندس الصوت بفضل آلاته التي يشخّصها بمدى ما يوجد من تردّد وسعة الاهتزاز، وسيكون بمقدور فَسْلجي physiologiste أن يفحص المحصول، فيدوّن أي الأعضاء يدخل في اللعبة وبأي كيفية، وما ينهض به مهندس الصوت والفسلجي يساعد على الأرجح في تسهيل مهمة الوصّاف le descripteur، ولكن سوف لا يكون لهم تمهيد لعمل اللساني ولو لِلَحْظَةٍ واحدة، لأن الأخير لا يشرع إلا انطلاقاً من بين من يسهمون بشكل مباشر في إقامة التبليغ ومن بين الآخرين، والعناصر الوحيدة التي تحمل معلومة تُعَدّ عناصر ملائمة في اللسانيات"[17].

2-5-1) بم تسمح الملاءمة؟ إن مفهوم الملاءمة يسمح بوضع الانطلاقة، من بين المعطيات التي تَسْنَح لتجربة اللساني، بين ما سيضعه في القلب المركزي لدراسته وما سيبعده في ميادين هامشية "تقود إلى تحليل صارم لوقائع لسانية وإلى تعيين حدود دقيقة لمستويات مختلفة للفونولوجيا والمورفولوجيا والسانتكس، وكذا مستويات النحو اللكسيك، إلى جانب ما يختص بعلم الدلالة والأسلوب، فضلاً عن التعيين والتضمين (اقتران معانٍ بلفظة ما)"[18].

وتعدّ علّة أو مبدأ الملاءمة هذا الأساس لأي لسانيات حديثة ووظيفية، لأن دراسة لغة بالنسبة إليها تكمن في البحث عن وظائف تؤدّيها من قبل العناصر والأصناف والميكانيزمات (الإواليات) التي تحدُث بها لمعرفة ما هو ملاءمة مما هو غير ذلك، لأن الكلام الذي هو حقيقة قابلة للملاحظة لا يلتبس بالحقيقة اللسانية، لأن عناصر منها وحسبُ تكون ذات صلة بالموضوع pertinent، ولذا

لوحظ على دي سوسور الذي أسر نفسه في الثنائيات السائدة في عصره أنه لم يصل إلى التمييز الأساس بين وقائع الكلام ذات الصلة بالموضوع على أنها تُعْزى إلى التبليغ وبين الوقائع التي تعدم ذلك، ولم يهتد إلى قصده بأن الفونيمات لها حقيقة لسانية تماماً مثل العلامات والوحدات ذات الوجهين المضاعفين، ولم يُفْضِ إلى التمفصل المزدوج[19].

وبكلمة واحدة، فإن الملائم أو المطابق (ما هو ذو صلة بالموضوع) le pertinent من الناحية اللسانية هي عناصر السلسلة الكلامية التي حضورها غير مُسَبَّبٍ آلياً من قبل السياق حيث تظهر هذه العناصر، مما يمنحها وظيفة إعلام، ومن جرّاء وظيفتها أن عنصر ملفوظ تُضْفَى عليه الصفة اللسانية[20].

1 – 6) قواعد أخرى للتحليل البنيوي

1-6-1) قاعدة التبديل Règle de commutation: عملية تلعب دوراً قاطعاً في التحليل البنيوي، وخاصة في المستوى الفونولوجي، بل كذلك في المستوى السانتكسي، وحسب جاكبسون فإنّ التبديل la commutation يكمن في تبديل مقطع صوتي في كلمة مقطع une tranche آخر مؤكّداً atteste في اللغة نفسها بحيث يُحَصَّل على كلمة أخرى في اللغة"[21] وهذه العملية ضرورية لاستخراج أو استحصال وحدات مُمَيِّزَة أو فونيمات مذكّراً أن الفونيم مجموعة الخصوصيات الصوتية يتميز بوساطتها صوت لغوي معطى عن سائر أصواته الأخرى بوصفه وسيلة مستخدمة لتمييز المداليل لكلمات (جاكبسون)، واختبار التبديل يكمن في تعديل صوتي للدال (صورة سمعية) الذي يؤدّي إلى تعديل في المدلول (تصوّر)، مثلاً إذا بدّلنا الفونيم الاستهلالي أو البدئي /C/ في Coup بـ/L/، فإننا نحصل على كلمة جديدة هي Loup (ذئب) والتي لها معنى مختلف تماماً عن Coup (ضربة مثلاً)، وعمليات أخرى ممكن حدوثها أيضاً على المستوى المورفولوجي والسانتكسي مثال ذلك إذا أخذنا التركيب le syntagme

« il est certain que Samir s’arrêtera » (من المؤكد أن سميراً سيوقّف)، فإن s’arrêtera يمكن أن تكون مبدّلة مع s’arrêterait (كان سيتوقف)، فهذا التبديل السانتكسي يغير المعنى أو يعدّله للتركيب مروراً من المؤكّد إلى الشرطي l’hypothèque.

2-6-1) الاستبدال la substitution : وهنا يجب أن نبدي ملاحظة مهمة تخصّ أنّ التبديل la commutation ينبغي ألاّ يُلْتَبس بـla substitution، لأنه إذا كانا هما هما على مستوى العملية، فإن الأمر يتعلق بأنه في كل مرة نضع وحدة في السلسلة الكلامية بدلاً من وحدة أخرى، فإن غرضيهما leurs objectifs متعارضان opposés: إحداهما تستلفت نظرنا إلى الفوارق اللسانية وأخراهما تستلفتنا إلى التشابهات، ففي المثال التالي للاستبدال " le feu s’est déclaré" (النار اندلعت) والمثال الثاني "l’incendie s’est déclaré" (الحريق اندلع)، حيث كلمة "الحريق" في الجملة الثانية استبدال في كلمة "النار" لكن فقط يشير إلى الحقيقة نفسها (النار = الحريق) بمعنى أن هذا الاستبدال استخدم للدلالة به على التشابه الدلالي بين الوحدتين الاثنتين الحريق والنار.

3-6-1) الإبدال la permutation : وبالمثل، ينبغي ألاَّ نخلط بين التبديل la commutation والإبدال permutation: أحدهما يَتِمّ على المحور الإبدالي وآخرهما يُنجز على المحور التركيبي، فالإبدالla permutation إجراء اختبار يرتكز على تعديل أو تغيير الترتيب في عناصر على السلسلة الكلامية، والأمر يتعلق هنا بالمحور التركيبي، مثال ذلك أننا حين نُبْدِلُ الفونيمتين /P/ و/T/ في "POT" (وعاء) نحصل على "TOP" (دَقَّة) أي وحدة مختلفة، وعملية الإبدال غرضها أن تسمح لنا من التحقق بأن الترتيب لفونيمات له قيمة لسانية وليس ترتيباً جزافياً.

ونستطيع كذلك أن نقوم بإجراء أو مباشرة اختبار الإبدال في نظام أو ترتيب ordre مؤلّفات جملة، غير أنه في هذه الحالة الأخيرة، إذا ما اكتفينا

بترتيب جديد ممكن في اللغة، فإن معنى الجملة لن يكون مُغَيَّراً، فمؤلفات الجملة:

- Omar éprouve immédiatement une très grande satisfaction.

- شعر عمر حالاً بارتياح كبير

يمكن أن تكون مُبْدَلَة permutés في نظام أو ترتيب مختلفٍ، مثلاً "حالاً عمر شعر بارتياح كبير، دون وجوب أن يكون المعنى مُغَيَّراً.

ومن القواعد الثلاث السابقة يتبيّن لنا أن التبديل والاستبدال والإبدال ذات وظيفة متباينة، ولكنها تمثل كلها فائدة، خاصة على مستوى التحليل البنيوي.

إحالات البحث:

1- محاضرات في الألسنية العامة، دي سوسور، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، ط1984/1، بيروت، ص: 145 – 147.

2- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط1981/2، بيروت، ص: 193.

3 - Clefs pour la linguistique, George Mounins, Seghers. Editions de Minuit, 1970 p : 260 – 261. – يراجع مثلاً

4 - Dictionnaire de didactique des langues, R. Galisson, D. Coste. Hachitte, 1975, p : 532.

5- ينظر: الظاهر والمختفي (طروحات جدلية في الإبداع والتلقي)، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجماعية (الجزائر)، ص: 47.

6 - Dictionnaire de la linguistique, p : 308. G. MOUNIN ينظر:

7 - Dictionnaire de la linguistique, sous la direction de Georges Mounins, Presses Universitaires de France, 1974, p : 79 – 80 – ينظر:

8- مِنْ النبهاء عندنا مَنْ يرفض هذه النسبة (بنيوي) مفضلاً عليها "بِنَوِيّ" قياساً على "قرويّ".

9 - Révolution en linguistique, Robert Laffon, Grammont, 1976.

10 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 528 – يراجع مثلاً:

11- راجع مثلا: المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 63.

12- الكتاب: سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ج 1/ ص: 23.

13 - Révolution en linguistique, p : 87.

14- المرجع نفسه، ص: 87 – 88.

15- محاضرات في الألسنية العامة، ص: 145.

- يراجع: 16 - Dictionnaire de didactique des langues, p : 274

17 - Révolution en linguistique, p : 88 – 90.

18 - Initiation à la linguistique, p : 38.

19- يراجع المرجع نفسه، ص: 38.

20 - Eléments de linguistique générale, André Martinet, Armand Colin, 1988, Paris
- أنظر: p : 33,

21 - Révolution en linguistique, p : 90.

الجملة الفعلية البسيطة المثبتة في معلّقة امرئ القيس

أ. إيمان فاطمة الزهراء بلقاسم
جامعة– مستغانم–

يغلب على معلقة امرئ القيس استعمال الجملة الفعلية بمختلف أشكالها وأنماطها، وهو استعمال قد يتميز، ولكنه لا يمتاز عن غيره من الاستعمالات الشعرية الأخرى، وتأتي الجملة الفعلية في المعلّقة على نظامها المألوف حينا وعلى غير النظام المألوف أحيانا أخرى، بحسب الظروف والمناسبات القولية والسياقية، يذكر "عبد الجليل مرتاض" أن العربية القديمة أورثتنا تراكيب سانتكسية وصوتية ومورفولوجية غزيرة عاد استعمالها منذ حلول الخطاب الكتابي محل الخطاب الشفهي من الممنوعات في خطاباتنا الفصيحة، على الرغم من أن بعضها مسجل بأمانة في مختلف المصادر.

وكثرة استعمال الجمل الفعلية في المعلقة جاء ليتلاءم مع كثرة الأحداث وتنوع الوقائع التي تشتمل عليها المعلقة.ولعلّ أبرز المواقف التي تتطلب استعمال الجملة الفعلية أكثر من الاسمية، تلك المواقف العاطفية، والانفعالية الحماسية كالشكوى والحنين التي نجدهما في كثير من مقدمات المعلقات، فالشعر العربي القديم « طافح بالمضمون الدرامي، لكن هذه الخطابات الدرامية لم تَتعدّ تصوير انفعالات الشاعر العاطفية إزاء نفسه وقبيلته ومغامراته وافتخاراته أو توظيف تجربته وممارساته في الحياة ليصوغها في قالب حكمي أو فلسفي أحيانا» [1].

كما نلاحظ تنوع أوصاف الأفعال في المعلقة ما يتناسب مع مراد هذا الشاعر، والجملة الفعلية تكون وفق مستويين؛ البسيط والمركب.

فإنّ الجملة البسيطة هي التي يبدأ منها البناء اللغوي، ويبدأ منها التقعيد النحوي وأية دراسة للغة أو تحليل لها؛ لأنها الخلية التي يتوقف عليها النسيج اللغوي، وإحكام العبارة [2].

ولاشك أنّ الفعل في العربية يحتل المركز الأساس في التركيب مهما كانت رتبته، وبتعدده في الجملة يتغير نوع التركيب؛ ومن هنا، فإن الجملة الفعلية تتنوع بين التعقيد والبساطة بتعدد المسند (الفعل) فيها؛ كما تتمثل قيمته بتعلق العناصر الإسنادية به.

إذا، الجملة الفعلية البسيطة(التركيب البسيط) [3] هي الجملة الإسنادية التي تضمنت فعلا في العناصر المكونة للإسناد، وهي ما توفرت فيها عملية إسنادية واحدة [4]، سواءٌ اشتملت على مُتعلِّقات بعنصري الإسناد أو بأحدهما أو لم تشتمل. وقد تكون العلاقة بين عنصري الإسناد في الجملة البسيطة علاقة ارتباط، نحو: زيد رجل كريم، وقد تلجأ العربية إلى الربط بينهما لأمن اللبس نحو: زيدٌ هو الكريم [5].

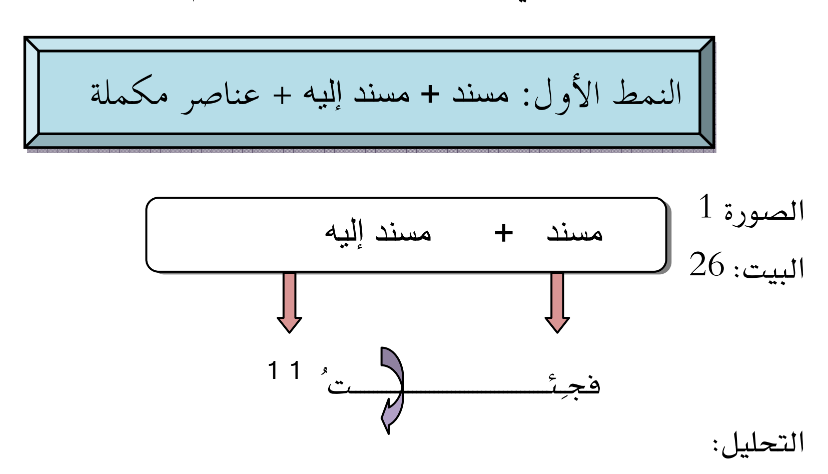
كما تعتبر الجملة البسيطة الوحدة الكلامية التي تضمنت عملية إسناد واحدة، وتتركب هذه الوحدة النطقية من مسند ومسند إليه كلايهما كلمة واحدة، أو يتعددان بأدوات تعطف أحد العناصر على الآخر، [6] وتسمى أيضا جملة النواة [7].

الجملة الفعلية المثبتة: سنتناول في هذا البحث عدة أنماط من التراكيب المثبتة التي تفيد الإثبات العادي إذا تجرّدت من علامات الجمل الأخرى، أي: إذا عَرِيت من وسائل النّفي والتّوكيد [8]، سنتحدث عن التركيب التام، يقول سيبويه: " هذا باب المسند والمسند إليه، وهما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبد الله

أخوك، وهذا أخوك، ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بد للفعل من الاسم، كما لم يكن للاسم من الآخر في الابتداء"[9]. ويقول المبرد: " والفعل قد يقع مستغنيا عن المفعول البتة حتى لا يكون فيه مضمرا، ولا مظهرا، وذلك نحو قولك: تكلم زيد، وقعد عمر، وجلس خالد"[10]، والتركيب الناقص؛ أي الذي يكون فيه الفاعل ضميرا مستترا، يكون مقدرا لتقدم ذكره في جمل سبقت، وقد تدخل في هذه التراكيب عناصر لها علاقة متينة بالمسند والمسند إليه أي هي تابعة لأحدهما أو متعلقة كالجزء منه لا يظهر ويكتمل معناها إلا به .

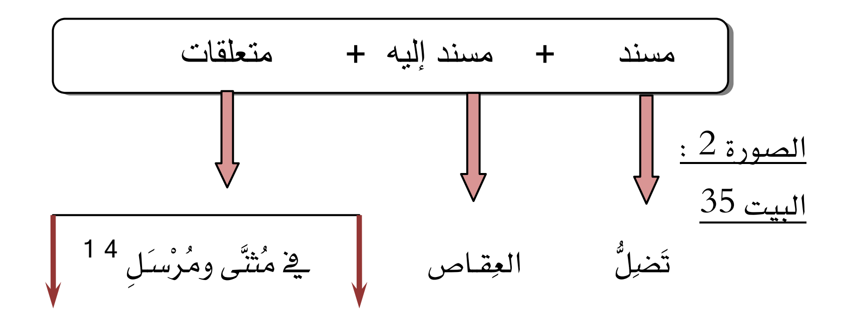
ومن الصعب أن نطمح إلى تحليل كل هذه التراكيب، وإن كانت رغبتنا تظل قائمة وتواقة إلى الوقوف على كل التراكيب لسبر حقيقة بنيتها التي تميزها.

1- 1) الجملة المثبتة التي ورد فيها الفعل مبنيا للمعلوم :



التحليل:

فجئت: الفاء حرف عطف، جئت: فعل وفاعل ورد ضميرا متصلا[12] والجملة الفعلية معطوفة على جملة "تجاوزت" في البيت رقم "24"، يسميها بعض الدارسين الجملة الأساسية وتتكون من عنصرين أساسين هما المسند والمسند إليه، هذا من حيث اللفظ أما من حيث المعنى فتتركّب من ثلاثة معان وظيفية هي: الحدث، وزمانه، والقائم به[13].



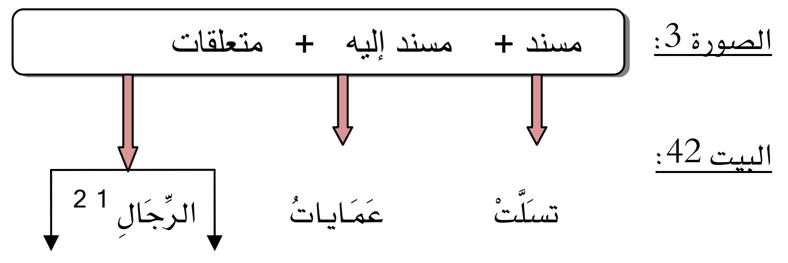
الصورة 2 :
البيت 35

التحليل:

وردت الجملة مؤلفة من فعل مضارع وفاعل ظاهر "تضلُّ العقاصُ، وجاء الجار والمجرور" في مثنّى "وعطف "مرسل" على مثنى بالواو العاطفة [15]، يروى"تضلُّ المَدارَي" [16]موضع العقاص جمع "مِدْرَى"والأصل بكسر الراء، فقلبت الكسرة فتحة، ثم قلبت الياء ألفًا مقصورة لتحركها وانفتاح ما قبلها، وذلك للتخفيف [17] وهوالمشط وهذه رواية الأصمعي، ومعناها أن شعر رأسها لكثرته بعضه مرفوع وبعضه مثنى وبعضه مرسل [18]، ويُروى "يَضِلُّ العِقاصُ" بالياء، والفعل من الضلال والضلالة، على أنَّ العقاص واحد، قال ابن كيسان: هو المِدْرَى، فكأنه يستتر في الشَّعر، لكثرته [19]، وقد وصفها بكثرة الشعر والتفافه [20].

إنّ المسند الذي يشكل النواة هنا الفعل"تضلّ"، لأن كل ما يليه من وحدات وصور مرتبطة أو متعلقة به بصورة أو بأخرى، دون أن ننسى أن البنية العميقة لهذا التركيب توضح حاجتة إلى مسند إليه، فقد جاء المسند إليه معرفا، ظاهرا، وورد الجار والمجرور تاليا للفعل والفاعل.

الصورة 3:



البيت 42:

التحليل:

تسلَّت فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث، وسلا فلان عن حبيبته يسلو سلواً، وانسلى انسلاء أي زال حبه من قلبه أو زال حزنه [22].

عماياتُ فاعل ،جمع عماية، وهي الجهالة [23]، وهو مضاف. الرجال مضاف إليه. عن الصِّبا: يروى "عن هواكِ" و"عن صباه"، الصِّبا: أن يفعل فعل الصِّبيان؛ يقال صبا إلى اللهو يصبو صباءً وصبوًّا [24]جار ومجرور [25]. زعم بعضهم أن "عن" في البيت بمعنى بَعْدَ، تقديره: انكشفت وبطلت ضلالات الرجال بعد مضي صباهم، بينما ظل فؤادي في ضلالة، وتلخيص المعنى: أنه زعم أن عشق العشاق قد بطل وزال، وعشقه إياها باقٍ ثابت لا يزول ولا يبطل [26].

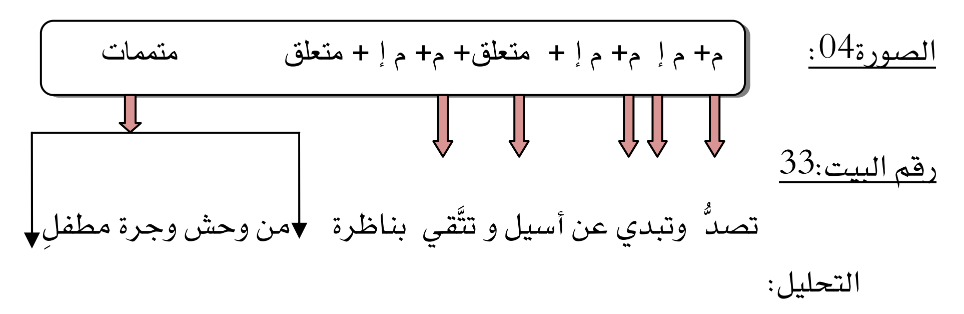
ورد الفعل في صيغة الماضي " تفعَّل" وهي دالة على الماضي المنقطع أي الذي حدث وتم قبل زمن التكلُّم،كما اتصل الفعل بتاء التأنيث الساكنة، والنحاة يوجبون تأنيث الفعل حين يرد الفاعل مفردا، ومؤنثا حقيقي التأنيث متأخر عن الفعل، غير مفصول عنه، فإن تقدم الفاعل وجب تأنيث الفعل سواء أكان حقيقي التأنيث أم مجازيا، وحين يرد الفاعل مفردا مجازي التأنيث يجوز تأنيثه [27]،كذلك يرى النحاة جواز تأنيث الفعل مع الفاعل إذا كان جمع تكسير لعاقل أو غيره والفاعل مؤخر [28]؛ وفي الواقع نقول فعل ماض مبني على الفتح، وليس على الفتحة المقدرة على الألف، لأن الألف هي زيادة تمكين وإشباع للفتحة.

إنّ المسند هنا الفعل"تسلت" هو الذي يمثل تجربة المتكلم أو الصائغ لهذا التركيب، فهو مرتبط أو متعلق بعناصر التركيب والبنية العميقة لهذا التركيب توضح حاجته إلى مسند إليه، فقد جاء المسند إليه معرفا، ظاهرا، وجمعا مؤنثا، وورد المضاف إليه تاليا للفعل والفاعل.

في الصور السابقة من الأنماط، هذا الفصل لم تكن هناك ضرورة لتغير مواقع التركيب لأمر يتعلق بالمعنى، فإن المستويين يتطابقان (البنية السطحية والعميقة)، فالجمل التي تشير إلى تغيير في ترتيب الكلمات لتغيير في المعنى هي التراكيب التي تمثل البنية العميقة فتخرج في بعض الأحايين عن القواعد النحوية، فقد جاءت الجمل على منهج الأصل، محققة المعنى الذي يرمي إليه المتكلم من تضام بين الكلمات فانطبقت بذلك قواعد النحوية مع المعنى المراد تحقيقه.

إذا، المسند في الجملة البسيطة لا يخرج عن كونه محققا لذات المسند إليه، أو محققا لصفة من صفاته؛ أي يكون المسند هو المسند إليه، في المعنى.

وسنتطرق في هذه الصورة إلى عدد من الجمل البسيطة التي ترتبط فيما بينها بواو العطف.



التحليل:

تصدُّ: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر يعود إلى من يتحدث عنها الواو حرف عطف. تبدي: فعل مضارع، والفاعل مستتر، عن أسيل جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، الواو حرف عطف. تتقي: فعل مضارع وفاعل. بناظرة: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، من وحش جار ومجرور وقعت "ناظرة"و "من وحش" صفة لموصوف محذوف والتقدير: بعين ناظرة من عيون الوحش، ووحش مضاف وجرة مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف، مطفل صفة وحش(نعت ناظرة حسب الأنباري).

هذه الجملة تحويلية، وهي البنية السطحية لمعان ذهنية مجردة يمكن تمثيلها بالجمل النواة التالية:

- تصدّ وتبدي عن أسيل.
- تبدي وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفلِ.
- تصد وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفلِ.

يتم ربطها ببعضها، أو يتم تحويلها لتولد منها الجملة التحويلية الكبرى ويتم هذا التحويل بواسطة عدد من العناصر التي تستخدم لربط جمل النواة ببعضها، وهي ليست مركبة، فقد لاحظنا أن هذه الجمل بسيطة كل واحدة فيها تؤدي معنى يحسن السكوت عليه، كذلك لاتوجد عملية إسنادية ثانية في عناصرها الأساسية، فهذه الجمل يرتبط كل منها بالواو التي تكتفي بالعطف البسيط الذي يمكن من إقامة علاقة تقابلية مع التراكيب الإسنادية في الجملة.

تأخذ هذه الجمل صفة التوازي (Parataxe) وهي صفة للجملة البسيطة التي ترتبط بغيرها بالعطف، فيكون من ذلك تراصّ وتواز ليس فيه تعقيد.

ومعنى تصدّ: تعرض، تبدي: تظهر، عن أسيل: أي خدّ ناعم طويل، تتقي: أي تتقي بعينها من تخافه. ومعناه أنّها تُعرض عنّا استحياء، وتبسم، فيبدو لنا ثغرها، وتتقي أي تلقانا، بعد الإعراض عنّا، بملاحظاتها، كما تلاحظ الظبية طفلتها [29].

1- 2 الجملة المثبتة التي ورد فيها الفعل متعديا:

إنّ مبحث التعدي واللّزوم في العربية متصل بوظيفة الفعل في التركيب ومعناه.

والتعدي لغة: "يقال تعد ما أنت فيه إلى غيره أي تجاوزه، وعد عما أنت فيه أي أصرف همك وقولك إلى غيره، وعديت عن الهم أي نحيته، ويقول لمن قصدك عني إلى غيري، ويقال: عد هذا الأمر أي تجاوزه إلى غيره." [30]

اصطلاحا: يقول ابن يعيش: "المتعدّي ما يفتقر وجوده إلى محلّ غير الفاعل، والتعدي التجاوز، يقال عدا طوره أي تجاوز حدّه، أي أنّ الفعل تجاوز الفاعل إلى محلّ غيره، وذلك المحلّ، هو المفعول به، وهوا لذي يحسن أن يقع في جواب: بين فعلت؟ " [31].

لقد حرص النحاة على أن يلخصوا هذه العلاقة القائمة بين الحدث والمنصوب أي المفعول به، بواسطة وصف هذا المنصوب بأنه وقع عليه الفعل، فإذا قلنا ضرب زيد عمرا،أو يضرب زيد عمرا أو زيد ضرب عمرا،أو زيد يضرب عمرا، أو زيد ضارب عمرا، أوضارب زيد عمرا،أو فليضرب زيد عمر...الخ من تغير في التركيب لهذه الجملة.

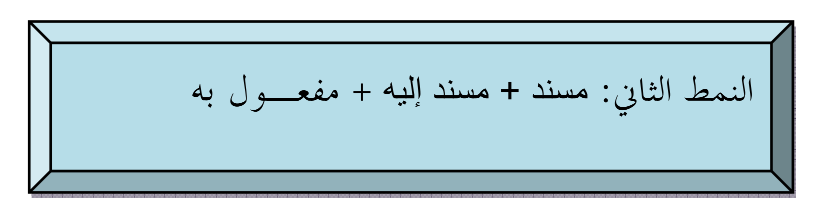
إنّ إسناد الضرب إلى المسند إليه في كل مثال مما سبق مخصصا بوقوعه على عمرو أي كان الوقوع على عمرو وكان مقيدا في إسناد الضرب إلى من أسند إليه، وكان أيضا جهة من الضرب حالت بينه وبين أن يفهم على إطلاقه فطوعته لأن يفهم جهة وقوعه على عمرو وهذا المعنى الذي قصدت إليه بقولنا أن المفعول هنا يعتبر تعبيرا من الجهة وأن التعدية تخصيص لعلامة الإسناد التي بين الضرب وبين من أسند إليه [32].

والتّعدية قرينة معنوية هي (التخّصيص)، فهي تخصيص لعلاقة الإسناد التي بين الضرب وبين من أسند إليه.

ولقد قام تمام حسان بتعداد القرائن الدّالة على المفعول به في جملة (ضرب زيد عمر). [33]

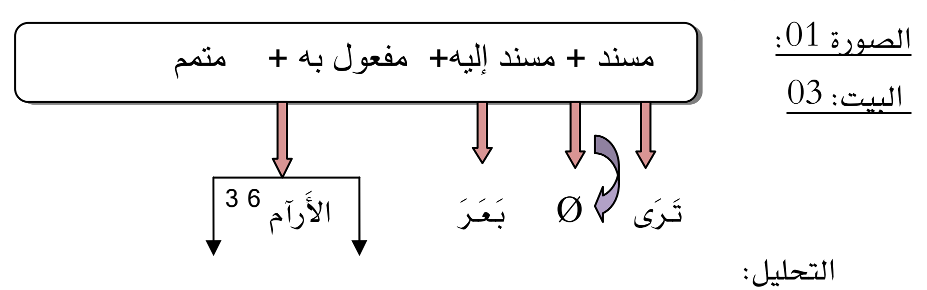
- أنه ينتمي إلى مبنى الاسم (قرينة الصيغة)
- أنه منصوب (قرينة العلامة الإعرابية)
- أن العلاقة بينه وبين الفعل علاقة تعدية (قرينة التعليق)
- أن رتبته من كل من الفاعل والفعل هي التأخير (قرينة الرتبة) [34]

يقول عبد القاهر الجرجاني: "كذلك إذا عديت الفعل إلى المفعول فقلت ضرب زيد عمرا،كان غرضك أن تقيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه" [35].



يتميز هذا النمط بترتيب اعتيادي لعناصر التركيب مع وجود المفعول به وإن عدّه بعض النحاة فضلة، فهو لا يؤثر في ائتلاف الكلام، ذلك أنّك تجد أفعالا لا مفعول لها ولكن لا تجد أفعالا لا فاعل لها. ومعنى الفضلة هو أنّها ليست طرفا من طرفي الإسناد، ولو اجتمعت الفضلات على أن تأتي بجملة تامة ما استطاعت الإتيان بها.

الصورة 01:
البيت: 03



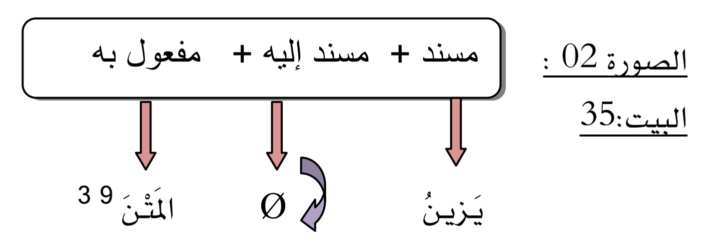
التحليل:

ترى: فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف المقصورة منع من ظهورها التعذر والفاعل ضمير مستتر تقديره " أنت". بعر: مفعول به وهو مضاف والآرام مضاف إليه، في عرصاتها: جار ومجرور متعلقان بالفعل، والهاء مضاف إليه. وقيعانها: معطوف على عرصاتها .الأرآم: الظباء البيض، واحدها رئم والعَرَصات وهي الساحة. والقيعان وهو الموضع يستقع فيه الماء [37].

يقول: انظر بعينيك ترَ هذه الديار التي كانت مأهولة بأهلها مأنوسة بهم خصبة الأرض كيف غادرها أهلها واقفرت من بعدهم أرضها، وسكنت رملها

الظباء ونشرت في ساحاتها بعرها حتى تراه كأنه حب الفلفل في مستوى رحباتها [38].

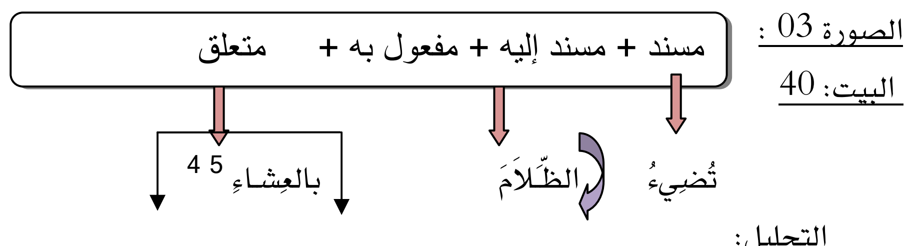
الصورة 02 :
البيت:35



التحليل :

يزين: فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره "هو [40]. المَتْنَ مفعول به،المتن والمتنة: ما عن يمين الصُّلب وشماله من العصب واللَّحم، الهواء [41] يقول: وتبدي عن شعر طويل تام [42]، يزين ظهرها إذا أرسلته عليه، ثم شبه ذؤابتيها بقنو نخلة خرجت قنوانها، والذوائب تشبه بالعناقيد، والقنوان يراد به تجعدها وأثاثتها. [43] الْمُتَعَثْكِلِ ما عُلِّقت على الهَودَج من عِهن أو زِينَة أو صُوف فتَذَبذَبتْ في الْهَوَاء [44].

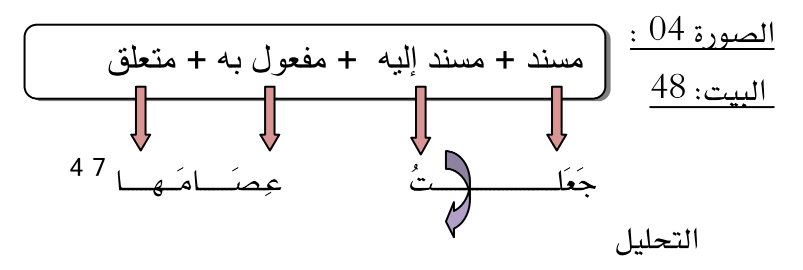
الصورة 03 :
البيت: 40



التحليل:

تضيء: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره "هي". الظلام: مفعول به، بالعشاء: جار ومجرور متعلقان بالفعل تضيء. [46] معناه، هي وضيئة الوجه زهراء مشرقة الوجه، إذا تبسمت بالليل رأيت لثناياها بريقا وضوءاً؛ وإذا برزت في الظلام استنار وجهها وظهر جمالُها حتَّى يَغلب الظلمة.

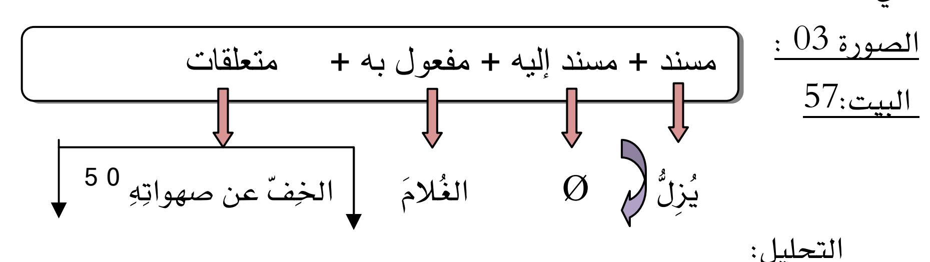
الصورة 04 :
البيت: 48



التحليل

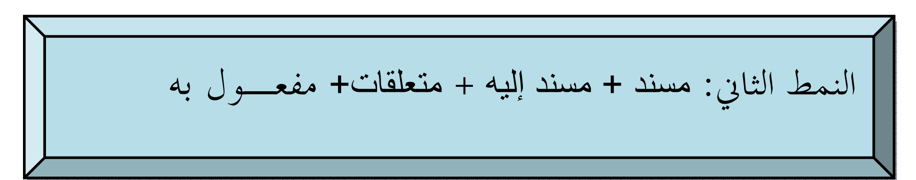
جعلت: فعل وفاعل، عصامها مفعول به. عصام القربة: الحبل الذي تُحمَل به ويَضعُه الرّجُل على عاتقه وعلى صدره، والعِصام القربة أو الأدوات [48]، يقول: ورب قربة أقوام جعلت وكاءها على كاهل ذلول قد رحل مرة بعد مرة أخرى مني [49].

الصورة 03 :
البيت:57



التحليل:

يُزلُّ: يُروى بالضم على أنّه من "أزل" الرباعي فيكون متعديا،ويكون "الغلامَ" مفعولا به، ويروى بفتح ياء المضارعة على أنّه زل الثلاثي فيكون لازما والغلام فاعل، الخف: صفة، عن صهواته: جار ومجرور، والجملة الفعلية ترد صفة من الفرس الموصوف.

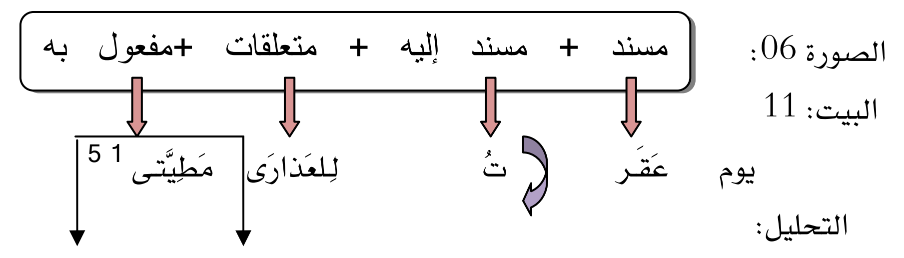


النمط الثاني: مسند + مسند إليه + متعلقات+ مفعـــول به

يتميز هذا النمط بالفصل بين المسند والمسند إليه بالجار والمجرور ويكون هذا الفصل لتجنب الثقل في الجملة، تبرز هنا إحدى خصائص التركيب النحوي وهي ترتيب العناصر في الجملة، فقد جاء الترتيب غير اعتيادي، وسنورد في هذا النمط صور هذا الفصل.

الصورة 06:

البيت: 11



التحليل:

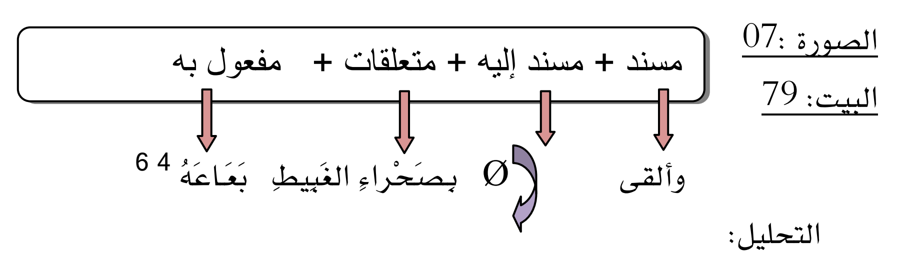
يوم: معطوف على يوم في البيت السابق رقم- 10- "ولاسيَّما يوم" على جميع أوجه إعرابه؛ إعراب يوم فيه ثلاثة أوجه: النصب بفعل مضمر، والجرُّ عطفاً على اليوم الذي قبله، والثالث أن يكون مرفوع الموضع مبنيَّ اللفظ لإضافته إلى فعل مبنيّ[52]؛ وعند الكوفيين يجوز أن تبنى ظروف الزمان مع الفعل المستقبل، ولا يجوز ذلك عند البصريين، لأنّ المستقبل مُعرب، يقول الفراء: «لا يجوز أن يكون "يوم عقرتُ" مردوداً على قوله " ألا ربَّ يوم لك منهن صالح لأنه مضافٌ غير محض وهو معرفة، فلا يجوز لربّ أن تقع على المعارف»، وقال غير الفراء: اليوم منصوب بفعل مضمر، كأنّه قال: وأذكر يوم عقرت وقالوا معناه التعجب[53]. عقرت: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة يوم إليها، للعذارى: جار ومجرور متعلقان بالفعل، إذا قلت: عذارى جمع "عذراء" فالألف بدل من الياء، لأنّها أخفُّ منها[54]، فإن قال قائل: فلم لا أبْدِلُ الياء في "قاض" ألفًا ؟ فزعم الخليل أنّ "عذارى" إنّما أبدلت من الياء فيه الألف، لأن لا يُشْكِل، إذ ليس في الكلام "فعالَلُ"؛ ولم تُبدَل الياء في "قاض"، فيقال "قاضاً" لأنه في الكلام "فاعل"، نحو: طابقٍ، وخاتمٍ. فإن قال قائل: فلم تُنوّن "عذارى" في موضع الرفع والجرّ، كما تفعل في "عذارٍ" ؟ فالجواب في هذا أنّ "سيبويه" زعم أنّ التنوين في "عذارٍ"، وما أشبهها، عوض من الياء لم يجز أن تعوض من الياء شيئا آخر[55]، وأورد "ابن هشام" هذا البيت على أنّ لاَم لعذارى للتعليل[56] مطيتي: مفعول به، وياء المتكلم ضمير متصل في محل جر مضاف إليه.[57]وتأتي لا الجر بعدة معان ومنها التعليل، كقوله: للعذارى[58]، وقوله تعالى: (لإِيلاَفِ

قُرَيشٍ) [59] وتعلقها ب (فَليعبُدُوا رَبَّ هذا البَيتِ) [60]، وقيل: بما قبله، (فَجَعلهُم كَعَصفٍ مَّأكُولٍ) [61].

وفي اللِّسَان: عَقَرَ الناقة؛ إذا فعل بها ذلك حتى تَسقط فَنَحَرَها مُستَمكِنا منها وكذلك كلّ فَعيل مصروف عن مَفعول به فإنّه بغَيرِ هاء. وقَول امرِئ القيس: ويومَ عَقَرتُ للعَذارَى مَطِيَّتي؛ فمعناه نَحرتها فمعناه أنه نحرها لهن [62]. ذكر"ابن فارس" تُعقر النّاقة حتى تسقط، فإذا سقطت نحرها مستمكنا منها [63]، ويذكر "البغدادي" أن العقر: الضرب بالسيف على قوائم البعير، وربّما قيل عَقره: إذا نحره.

الصورة :07

البيت: 79



التحليل:

الواو: حرف عطف، ألقى: فعل ماض، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على المطر، قال الأنباري: ألقى فعل للسَّحاب، المعنى: وألقى السَّحابُ بصحراء الغبيط بعَاعَه [65]، بصحراءِ: جار ومجرور متعلقان بالفعل، وصحراء: مضاف، الغبيط: مضاف إليه، بعاعه: مفعول به، والهاء: مضاف إليه [66].

فعل متعد أصالة، وهو يتعدى بنفسه إلى مفعول به واحد، كما جاء المفعول به متأخرا في الترتيب عن الفعل والفاعل أو نائبه، ولكنه لم يتقدم على الفعل وهو الأصل فيما يرى النحاة، يقول "المبرد": «والفاعل في الحقيقة قبل المفعول» [67]، ورد المضاف إليه متضامنا مع العناصر الاختيارية، ومع الجار والمجرور.صحراء الغبيط: الحزن، وهي أرض بني يربوع، وقال: الغبيط: نَجفة يرتفع طرفاها ويطمئن وسطها، بعاعه: ثقله [68]، قال: والبعاع: ثقل السحاب من المطر [69]، ألقى بصحراء الغبيط فأنبت الكلأ وضروب الأزهار وألوان النبات

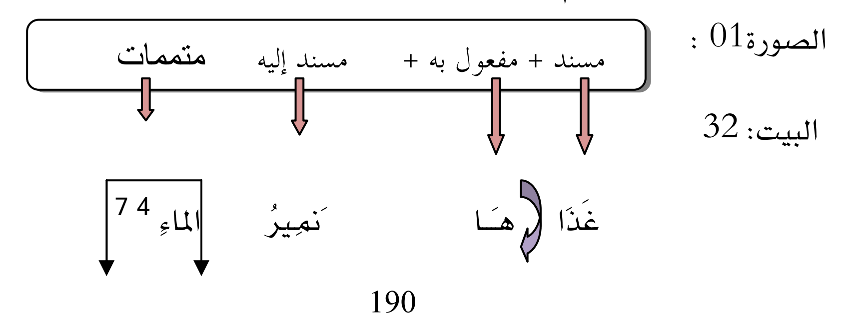
فصار نزول المطر به كنزول التاجر اليماني صاحب العياب المحمل من الثياب حين نشر ثيابه يعرضها على المشترين [70].

النمط الثالث : مسند + مفعول به + مسند إليه

في الواقع لا توجد لغة واحدة ترتيب الكلام فيها جامد لا يتحرك، كما لا توجد لغة واحدة تسير في ترتيب كلماتها بحرية مطلقة [71]، وعليه فإن كل لغة من اللغات يعرض لها تقديم وتأخير في ترتيب كلماتها وجملها على نحو ما نجده في عناصر الجملة العربية، وخاصة في لغة الشعر، ويتحدث "عبد القاهر الجرجاني" عن ظاهرة التقديم والتأخير، حديثا مهما وبخاصة لغة الشعر فيقول: "ولا تزال ترى شعرا يروقك مسْمعُه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان" [72]، فالتقديم والتأخير ليس لمجرد العناية والاهتمام بل إنه يؤدي وظائف جمالية.

يتحدث "ابن جني" عن أهمية المفعول به حين يقول: "ينبغي أن يعلم ما أذكره هنا، وذلك أن أصل ذكر المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل كضرب زيد عمرا، فماذا عناهم ذكر المفعول قدّموه على الفاعل" [73].

فابن جني يقرر أن تقديم المفعول، يكون لغاية بلاغية هي الاهتمام به والعناية بشأنه، وأن هذه العناية تكون بنسب متفاوتة، حسب الحالات التي تكون عليها صور التقدم.



التحليل:

غذاها: فعل ماض. والهاء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به. نمير: فاعل هو الماء العذب الذي يبقى في الأجواف وهو مضاف والماء مضاف إليه [75].

وفي هذا يصف امرؤالقيس أنَّ بياضها تُخالطه صُفرة، وليست بخالصة البياض فجمع في البيت معنيين: أحدهما أنها ليست بخالصة البياض، والآخر أنها حسنة الغذاء، وقيل: إنه يريد بالبكر هنا الدّرة التي لم تثقب، وهكذا لون الدُّرة ويصف أنّ هذه الدُّرة بين الماء المِلح والعذب، فهي أحسن ما يكون.

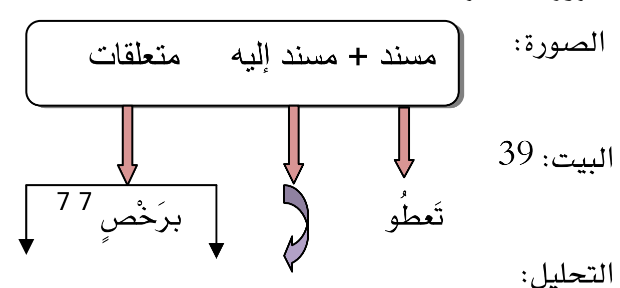
ورد الفعل مفصولا عن فاعله بعنصر واحد وهو الضمير، وقد تعدى بنفسه إلى مفعول به واحد، كما ورد المسند إليه ظاهرا، مفردا، مذكرا، وجاء المفعول به ضميرا متقدما على

الفاعل فاصلا بينه وبين الفعل.

مسند+ مسند إليه+ مفعول به (مجرور)

قد يتعدى الفعل بحرف جر لا يمكن الاستغناء عنه، يقول ابن جني: "«فالمتعدي بحرف نحو قولك: مررت بزيد، ونظرت إلى عمرو، وعجبت من بكر، ولو قلت: مررت زيدا أو عجبت بكرا فحذفت حرف الجر لم يجز ذلك إلا في ضرورة الشعر» [76].

الصورة:



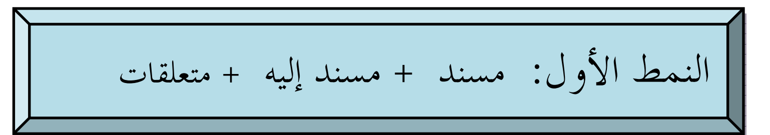
البيت: 39

التحليل:

الواو: الواو حرف عطف، تعطو: فعل مضارع، متعد [78]، واو تعطو وتغزو أصلية لأنها من غزوت وعَطَوت، إذا تناولت، قال تعالى: ﴿ فَنَادَوا صَاحِبَهُم

فَتَعَاطَى فَعَقَر)[79]، قيل فتعاطى فقتلها، وحقيقته في اللغة فتناول الناقة فقتلها[80]، أبدلت لام الفعل تاء في أعطيت واستشهد بأنّ لام "آديت" لقولهم في جمع أداة أدوات، ومن هذا قيل لما يستصحب فيه الماء في الأسفار إداوة، إنما هي فِعالة من الأداة[81] والفاعل يعود إلى من يتحدث عنها، برخص: جار ومجرور متعلقان بالفعل، تعطو: تتناول، برخص معناه ببنان رخص، والبنان: الأصابع والشثن: الكزّ الخشن، وظبي: اسم كثيب[82] اليسروع والأسروع: دود تكون على الشوك والحشيش، ونسبها إلى الظبي لأن الظباء تأكل هذا النوع من الدّود[83]، إسْحِلٌ: شجر تتخذ منه المساويك[84] ومعنى البيت أنها تتناول الأشياء ببيان رخص لين ناعم غير غليظ، كأن تلك الأنامل تشبه هذا الصنف من الدود أو هذا الضرب من المساويك.[85]

1- 3 الجملة المثبتة التي ورد فيها الفعل مبنيا للمجهول

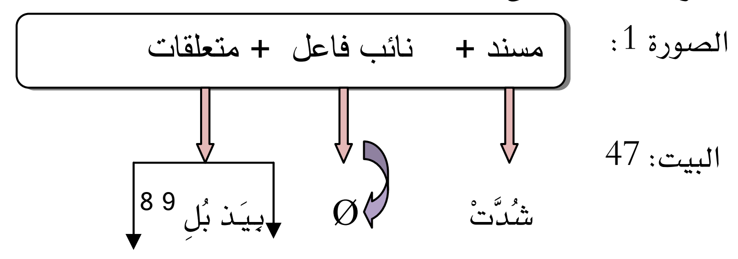


اختلف النحاة في الجملة التي يأتي خبرها جملة فعلية، ، فالبصريون الذين اشترطوا للفاعل أن يتأخّر عن فعله وجوبا، جعلوا الاسمية كبرى، والجملة الواقعة خبرا جملة صغرى[86]، على حين أنّ الكوفيين الذين رأوا أنّ الفاعل من قام بالفعل سواء تقدّم عن فعله أوتأخّر[87]، هذا ما قد نسميه تحويل لبعض أركان الجملة الفعلية وأجزائها إلى موقع الصدارة وبناء جملة اسمية جديدة. ويسمّى المبتدأ الجديد في الطريقة الموصوفة بالمحوَّل، ويمتاز هذا المبتدأ المحوَّل بأنه العنصر المهمّ في الجملة، ولذلك يمتنع تأخيره وحذفه- وصور تحويل أركان الجملة الفعلية إلى مبتدأ متعدّدة[88]، والذي يهمنا هو التحوّل من نائب الفاعل، كما تجدر بنا الإشارة إلى أن البلاغيين قد وقفوا كثيرا في حديثهم

على التقديم والتأخير، عند الابتداء بالمسند إليه وبناء المسند عليه، لما في ذلك من بلاغة واستقامة للمعنى.

الصورة 1:

البيت: 47



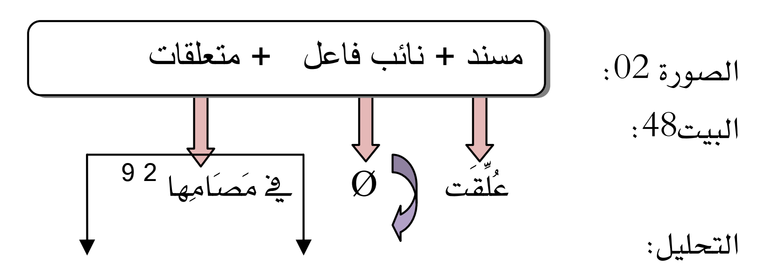
التحليل:

شدّت: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره (هي) يعود إلى نجومه، بيذبل: جار ومجرور متعلقان بالفعل شُدَّت؛ وصرف يذبل لضرورة الشعر. جاء الفعل مبنيا للمجهول، متعديا إلى مفعول به واحد فصار نائب فاعل، كما وردت الجملة الفعلية تامة [90]. أصلها شُدَّتْ نجومه بِيَذ بُلِ

يقول امرؤ القيس مخاطبا الليل: فيا عجبا لك من ليل كأنّ نجومه بكل مغار الفشل شُدَّت بيذبُلِ، وهو جَبَل معروف [91]، و"المغار": المُحكمُ الفتلِ بأمراس كتان، يعني رُبطت، فحذف الفعل لدلالة الكلام على حذفه.

الصورة 02:

البيت48:



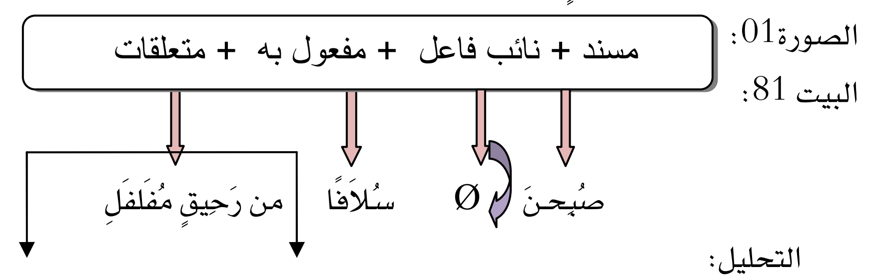
التحليل:

علقّت: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره(هي) يعود إلى الثرياَ. في مصامها: جار ومجرور متعلقان بالفعل، والهاء: ضمير متصل في محل جر بالإضافة. جاء الفعل مبنيا للمجهول، متعديا إلى مفعول به واحد فصار نائب فاعل.

أمراس: الحبال، وفيه تفسيران: أمّا أحدُهما فإنه يصف طول الليل، يقول: كأنَّ النجوم مشدودة بحبال إلى حجارة، فليست تمضي، ومصامها: موضع وقوفها.

والتفسير الثاني، على رواية من يروي هذا البيت مؤخرًا عند صفته الفرس، فيكون شَبَّه تحجيل الفرس، في بياضه، بنجوم عُلقَت في مقام الفرس بحبال كتّان إلى صمّ جَندلٍ، وشبّه حوافره بالحجارة.[93]

الصورة01:
البيت 81:



التحليل:

صُبحِنَ: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون ونون النسوة ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل. وصُبحنَ من الصَّبوح، وهو شُرب الغداة والسُّلاف: أول ما يُعصَر من الخمر، والرّحيق: الخمر؛، فأراد أنَّ المكاكيَّ تغرّد كأنّها سكارى من الخمر[94] سلافا: مفعول به، من رحيق: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة سلافا، مفلفل: صفة رحيق.

ورد الفعل مفصولا عن فاعله بظرف الزمان، غير مضاف فاصلا بين الفاعل المقدم والفعل.

لقد بدا لنا جليّا من خلال تحليل المعلقة أن الجمل البسيطة أقل أنواع الجمل ورودا بها، فقليلا ما نعثر على تركيب واحد مستقل بنفسه، ويمكن أن نعتبر هذه الجمل بسيطة، إذا نظرنا إليها مستقلة عما قبلها، رغم أنّها تأتي مفسرة، لجمل ترد في تركيب سابق، فهي ترتبط ارتباطا دلاليّا بما قبلها.

من الملاحظ أنّ التفرقة بين الجمل البسيطة والمركبة صعبة جدّا، ذلك أنّ بين النوعين تداخلا كبيرا، حيث أنّنا كثيرا ما نجد امرأ القيس يبدأ بجملة

بسيطة يمكن أن نعتبرها أساسية ثم يفرع عنها تراكيب أخرى تكون صفة أو حالا لأحد أركان التركيب السابق، كما نلاحظ وجود الجمل التي يسبقها ظرف الزمان تتسم بالبساطة، كما وجدنا جملا مستقلة ترتبط فيما بينها برابط العطف يمكن أن نطلق عليها الجملة التركيبية، فهي في الأصل تحتوي على جمل بسيطة ترتبط دلاليا لتؤدي المعنى الذي يرمي إليه الشاعر.

مصادر البحث

الإحالات والتعليقات

1- عبد الجليل مرتاض، "في علم النص والقراءة"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط 2007م، ص129.

2- الشريف ميهوبي، "الربط الإسنادي في الجملة العربية البسيطة- دراسة لسانية"، مجلة الأثر ورقلة، العدد 6، ماي 2007م، ص166.

3- التركيب البسيط والتركيب المديد مصطلحان حديثان استعملا في كتاب الأصول لتمام حسان وبناء الجملة العربية لمحمد حماسة؛ والتركيب البسيط هو المؤلف من جملة واحدة، والمديد هو المؤلّف من جمل عدّة مترابطة تؤدي معنى مكوّنا من جمل، والبسيط عكسه المركب، ويمكن أن يقال عنه لغة ممدود؛ ينظر، سعد الدين المصطفى؛" التركيب البسيط والمديد في العربية"، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 81، (مجلة المجمع العلمي العربي سابقا)، مطابع دار البعث، دمشق 558\3.

4- منصف عاشور؛ "التركيب عند ابن المقفع في مقدمات كليلة ودمنة"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص21.

5- مصطفى حميدة؛ " نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ص149.

6-منصف عاشور، المرجع السابق، ص 21.

7 -أحمد شوقي عبد الجواد رضوان، "مدخل إلى دراسة الجملة الفارسية"، دار العلوم العربية بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، ص25.

8- محمد خان، " لُغة القرآن الكريم- دراسة لسانية تطبيقية للجملة في سورة البقرة"-، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ط، 2004م ط1، ص39.

9- سيبويه؛ " الكتاب"، 9\1

10- المبرد؛ " المقتضب"، 4\50

11- الديوان، ص27.

ورد هذا البيت في لسان العرب 15\329 مادة "نضا "، أبو زيد القرشي؛ " جمهرة أشعار العرب" ص98

12-ابن هشام الأنصاري-جمال الدين عبد الله-؛ "شرح شذور الذّهب ومعه منتهى الطلب بتحقيق شرح شذور الذهب ورحلة السرور إلى إعراب شواهد الشذور ليوسف هبود" تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت-لبنان، ط2003،1م، ص301.

13- ينظر: منصوري ميلود، "التراكيب النحوية ودلالاتها في الفضليات، ص12.

14- الديوان، ص 34

ورد هذا البيت برواية " تضل المدارى"بفتح الميم جمع مِدْرى، وهو مثل الشوكة تحك به المرأة رأسها ينظر، العيني،-بدر الدين بن موسى(ت 855ه)-" المقاصد النحوية "، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ط1، 3\546.

15- الأنباري، " شرح القصائد السبع الطوال "، ص 73.

16- التبريزي، " شرح القصائد العشر"، ص60.

17 -الأزهري، "شرح التصريح على التوضيح "، 2\700-701.

18- الشنقيطي- أحمد بن الأمين(ت)- ؛ " شرح المعلَّقات العشر وأخبار شُعرَائها"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ص63.

19- التبريزي؛ "شرح القصائد العشر"، ص60، ينظر، الزوزني، "شرح المعلقات السبع"، ص79. ينظر؛ ابن النحاس؛ "شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات"، 1\24.

20- ورد البيت عند ابن منظور، "المرجع السابق"، مادة "عقص"، 7\56، وينظر، الزبيدي،"تاج العروس من جواهرالقاموس"، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، مادة (شقأ)، 1\283. القريشي- "جمهرة أشعار العرب"، 1\30، وينظر، البغدادي-عبد القادر بن عمر(ت1093هـ)-؛ "خزانة الأدب ولَبّ لباب العرب"، تحقيق: إميل يعقوب بديع، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1 1998م، 3\48

21- امرؤ القيس؛ " الديوان"، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط1 2008م، ص40

22- الزوزني – أبو عبد الله الحسين بن أحمد(ت)-؛ "شرح المعلقات السبع"، تقديم ظافر فروكوجان، دار اليقظة العربية، بيروت، د. ط، 1969م ص83. ينظر؛ ابن النحاس-أبي جعفر

بن يونس المَرادي النحوي(338هـ)-؛ "شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات"، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، د .ط،د.ت ،30\1.

23- التبريزي–أبو زكرياء يحي بن علي- " شرح القصائد العشر"، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980م، ص 66.

24- ورد هذا البيت بلا نسبة عند ابن منظور؛ "لسان العرب"، ط1، 1992م، مادة (صبا) 449\14، مادة (عمي)، 98\15.

25- الدرّة- محمّد علي طه؛ "فتح الكبير المتعال، إعراب المعلقات العشر الطوال"، مكتبة السوادي للتّوزيع، جدّة، ط2، 1989م، 105\1.

26- الزوزني؛ "شرح المعلقات السبع"، ص83.

27- الأشموني، "شرح الأشموني على الألفية"، 173\1.

28- نفسه، 174\9.

29- ينظر: التبريزي؛ " شرح القصائد العشر"، ص57-58.

30- ابن منظور؛ "لسان العرب"، مادة (ع د أ)،713\2

31- ابن يعيش، "شرح المفصل"، 62\7

32- حسان تمام، "اللغة العربية معناها ومبناها"، ص195.

33- أحمد حساني،"التعدية والتضمين في الفعل"، ص12

34- تمام حسان، " اللغة العربية معناها ومبناها"، ص196

35- عبد القاهر الجرجاني،" دلائل الإعجاز"، ص83.

36- الديوان ص11.

37 - الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال "، ص23

وروى هذا البيت أبو عبيدة. وقال الأصمعي: هو منحول لا يعرف، وقال: الأعراب يروونه فيها.

38 الزوزني؛ " شرح المعلقات السبع"، ص56

39- الديوان ص33

ورد عجز البيت في لسان العرب مادة "أثت" 110\2، مادة" أثث"، جمهرة أشعار العرب ص99 تاج العروس 153\5(أثت)، 480\21(فرع).

40- الدرّة، " فتح الكبير المتعال"،14\1.

41 - الخليل بن أحمد الفراهيدي–أبو عبد الرحمن بن أحمد (ت175هـ)، "معجم كتاب العين" تحقيق: مهدي المخزومي – إبراهيم السّامرائي، دار الرشيد، العراق، د. ط، 1980م،308\2.

42 – الزبيدي، تاج العروس،21\480 مادة (فرع).

43 – الزوزني، "شرح المعلقات السبع"، ص79

44 – الزبيدي، تاج العروس 5\153(أثت).

45 – الديوان ص38

ورد البيت في لسان العرب 15\280 مادة "مسا"، وتاج العروس (مسا)

46 – الدرّة؛ " فتح الكبير المتعال"، 1\103.

47 – الديوان ص43، القرشي؛ "جمهرة أشعار العرب"، ص 10.

يذكر الزوزني، لم يرو جمهور الأئمة هذه الأبيات الأربعة في هذه القصيدة، وزعموا أنها لتأبط شراً، أعني: وقربة أقوام... إلى قوله: وقد أغتدي.

48 – ورد هذا البيت في كتاب العين منسوبا إلى الشاعر تأبط شرا،ينظر؛ الفراهيدي– عبد الرحمان الخليل بن أحمد(ت175هـ)–؛ "معجم كتابُ العين"، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السّامرائي،1\311.

49 – الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال"، ص80.

50 – الديوان، ص50.

51 – الديوان، ص17.

52 – التبريزي؛ " شرح القصائد العشر"، ص37.

53 الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال"، ص34.

54- الأزهري؛ "شرح التصريح على التوضيح"، 2\701،

55– سيبويه، "الكتاب"، 1\394

56 – ابن هشام، "مغني اللبيب"، 2\558.

57 –الدرّة، "فتح الكبير المتعال"، 1\49.

58 – السيوطي، "شرح شواهد المغني"، 2\558، ابن هشام، "مغني اللبيب"، 1\209.

59 – سورة قريش الآية الكريمة "1"

60- سورة قريش الآية الكريمة "3"

61- سورة الفيل الآية الكريمة 5

62 – ورد هذا البيت في لسان العرب 4\592 مادة "عقر"، تاج العروس 13\102، مادة "عقر". تهذيب اللغة 1\218،

63 – ابن فارس–أبي الحسن أحمد (ت395هـ)–؛ "معجم مقاييس اللغة"، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1 1991، مادة (عقر) 4\ 90

64 – الديوان ص 66

ورد عند الأنباري، روى الأصمعي : كصَرع اليَمَانِي ذي العيابِ المخوَّلِ

ورد هذا البيت في لسان العرب 8\17، القرشي،" جمهرة أشعار العرب"، ص104

65 – ينظر: الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال"، ص109

66 الدرّة؛ "فتح الكبير المتعال"، 1\158.

67 المبرد؛ "المقتضب"، 4\102.

68 الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال"، ص109

69 ينظر، الأزهري؛ "تهذيب اللغة"،1\119مادة (بع)، ويروى: "كصرع اليماني ذي القباب المخول، ينظر، الزبيدي؛ "تاج العروس" 19\508.

70– الزوزني؛ " شرح المعلقات السبع"، ص107

71– فندريس،" اللغة"، ص137

72– عبد القاهر الجرجاني، "دلائل الإعجاز"، ص83.

73– ابن جني، "المحتسب"، 1\65–66.

74 – الديوان ص31

ترتيب البيت مختلف عنه، عند الأنباري، والتبريزي، عند التبريزي "غيرَ المُحلَّلِ"، وعند الأنباري "غيرَ مُحلَّلِ".

ورد البيت في لسان العرب 11\169، مادة "حلل". وأورد لسان العرب عجز البيت 5\236 مادة "نمر". تاج العروس مادة "حلل"، القرشي، "جمهرة أشعار العرب"، ص98.

ورد الشطر الأول في رسالة الغفران، للمعري، ص163. وقد زعم المعري في إشارة إلى حديث دار بينه وبين امرئ القيس، أنّ "البياضِ" تروى بالكسر.

75 – الدرّة؛ "فتح الكبير المتعال"، 1\93.

76 – ابن جني، اللمع"، ص134.

77 – الديوان ص37.

ورد البيت في لسان العرب 8\153 مادة "سرع"، 11\331 مادة "سحل"، 13\232 مادة "شثن" 15\24 مادة "ظبا"، القرشي، جمهرة اللغة ص363، 543، تاج العروس مادة "سحل"، "ظبا".

78 – الأحمدي– مُوسى بن محمّد بن الملياني–، "معجم الأفعال المتعدية بحرف"، دار الملايين بيروت، ط1، 1979م، ص241.

79 – سورة القمر الآية الكريمة"29"

80 – النحاس–أبو جعفر أحمد بن إسماعيل(ت238هـــ)–؛ "إعراب القرآن"، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2009م، 4\198.

81 – ينظر، الفراء؛ "معَاني القرآن"، 2\251.

82 – الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال"، ص66

83 – الفراهيدي؛ "معجم كتاب العين"، 1\331.

84 – ورد البيت عند ابن جني، "المنصف"، 3\58

85 – الزوزني؛ "شرح المعلقات السبع"، ص82.

86- ابن هشام، "مغني اللبيب"، \340.

87- براجشتراسر، "التطور النحوي للغة العربية"، ص132–133.

88– أحمد محمد قدور،" مبادئ اللسانيات"، ص220.

89– الديوان، ص 42.

ورد هذا البيت في خزانة الأدب للبغدادي 1\559، 4\108، القرشي جمهرة أشعار العرب ص100، الزبيدي، "تاج العروس" مادة (ذبل)

الأشموني–علي بن محمد(ت900هـــ)؛ "شرح الأشموني لألفية ابن مالك 2\217،

هذا البيت ورد عند التبريزي والزوزني وتختلف رواية عجز البيت عند الزوزني: بأمراس كَتَّانٍ إلى صُمٍّ جَنْدَلِ

ويلاحظ أن بيتا آخر يوافق عجز هذا البيت في المعلقة: كأنّ الثُريَّا عُلِّقت، في مَصَامِها بأمراسِ كتَّانٍ، إلى صُم جُنْدَلِ.

91 – نفسه، 1\75.

92 – الديوان ص42.

ورد عجز البيت في لسان العرب 11\136 مادة "حبل"، 12\351 مادة (صوم)، تاج العروس مادة (جدل)، (صوم).

93– التبريزي، " شرح القصائد العشر"، ص69.

94- الأنباري؛ "شرح القصائد السبع الطوال"، ص110.

علاقة علم المصطلح بالترجمة

د. روبحي لخضر
جامعة المسيلة –

مقدمة: كانت الترجمة ولا تزال وسيلة للتواصل الحضاري وهي العتبة والأداة التي نعبر بها نحو الآخر، والهوائي الذي نلتقط به علوم وإنجازات الآخرين، فضلا عن كونها سببا قويا ومؤشرا بارزا على مدى التقدم العلمي والثقافي للأمم، وليست هذه الأداة وليدة اليوم أو حتى مئات السنين بل هي صنعة ولدت مع التاريخ. وقد أدرك العرب المسلمون والأوروبيون والمسيحيون فعالية هذه الأداة فترجم العرب علوم اليونان والفرس والهنود، وترجم الأوروبيون ما أنجزه العرب في الطب والفلك والرياضيات. وضروري في هذا الصدد أن نشير إلى أهم عنصر في العمل الترجمي بل قل هو حجر الزاوية في ذلك ألا وهو المصطلح، أي القالب اللفظي الذي يعبر به عن الفكر أو المضمون.

تعريف المصطلح :

1 – الدلالة اللغوية: كلمة (المصطلح) في اللغة العربية مصدر ميمي للفعل (اصْطَلَحَ) من المادة (ص. ل. ح). حددت المعجمات العربية دلالة هذه المادة بأنها «ضد الفساد» [1] . ودلت النصوص العربية على أن كلمات هذه المادة تعنى - أيضا – الاتفاق، وبين المعنيين تقارب دلالي، فإصلاح الفساد بين القوم لا يتم إلا باتفاقهم. وأثبتت المعجمات العربية الجامعة قدرا كبيرا من كلمات هذه المادة الواردة في نصوص عربية. نجد من هذه المادة الأفعال : صَلَحَ، صَلُحَ، صَالَحَ أصْلَحَ، تَصَالَحَ، اصّالَح، والمصادر: صُلْح، صَلاح، ومُصَالَحة وإصلاح واستصلاح، والمشتقات : صَالِح، وصليح، ومُصْلِح، وصلحاء، ومَصْلَحَة .

وقد ورد لفظ الصلح في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) النساء: 128. والإصلاح في قوله عز وجل: (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ) هود: 88.

ونذكر أنه قد وردت بعض الألفاظ المشتقة من الأصل "صلح " في المعاجم اللغوية القديمة مثل اصطلحا وتصالحا وغيرها دون تحديد معانيهما. ويقول صاحب الصحاح: (وقد اصطلحا وتصالحا واصّالحا أيضا مشددة الصاد). وأول معجم لغوي تناول لفظ الاصطلاح هو "معجم تاج العروس" "للزبيدي" حيث يقول : (والاصطلاح اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص) (2).

وفي اللغات الأوربية يكاد يتفق التعبير على لفظ "مصطلح" نطقا وكتابة ففي الإنجليزية يطلق عليه لفظ "Term" وهو نفس اللفظ في الهولندية والدانيماركية والنرويجية والسويدية ولغة ويلز والألمانية و" Terme " في الفرنسية، و"Termine" في الإيطالية، و"Termino" في الإسبانية و"Tremo" في البرتغالية و"Termin " في الروسية والبلغارية (3).

2 – الدلالة الاصطلاحية: لم يرد في كتب اللغويين القدامى تعريف إصطلاحي للمصطلح، إلا تعريف واحد للشريف الجرجاني الذي عرفه بقوله: "هو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شيء باسم ينقل من موضعه الأول"(4) لمناسبة بينهما أو مشابهتهما في وصف أو غيره .

وجاء اهتمام اللغويين المتأخرين بتعريفات المصطلح بعد القرن الثامن الهجري ومن ذلك تعريف محي الدين الكافيجي(5) للمصطلح بقوله: "هو ألفاظ مخصوصة موضوعة لمعان يمتاز بعضها عن بعض باعتبار قيد يميزه عنه وسبب إطلاقها عليها هو الاتفاق على وضعها لمعان لتحصل عند استعمالها مع أداتها إصلاح المعاني ودفع فساد التباسها بعضها ببعض" (6).

ويذكر بعض الباحثين اللغويين أن العرب تطرقوا لموضوع المصطلح وعلم المصطلح من خلال بعض المسميات كالحد مثلا، بحيث ألفوا مؤلفات بهذا

الاسم كالحدود لجابر بن حيان، والحدود والرسوم للكندي، والحدود في النحو للرماني، والحدود الفقهية لابن عرفة وغيرها ...

تعريف علم المصطلح: يعرف علم المصطلح عادة بأنه "العلم الذي يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والمصطلحات اللغوية التي تعبّر عنها"(7).

وهو حسب تعريف المنظمة العالمية للتقييس: "دراسة ميدانية لتسمية المفاهيم التي تنتمي إلى ميادين مختصة من النشاط البشري باعتبار وظيفتها الاجتماعية" (8) .

ميدان علم المصطلح: ومن خلال هذين التعريفين يتضح لنا أنّ لعلم المصطلح ميدانين رئيسين:

أولهما: المفاهيم العلمية، وثانيهما " المصطلحات اللّغوية.

وللاضطلاع بتلك المهمة، يقوم المصطلحي أولا بتقطيع الواقع أو بتقسيم الأشياء والظواهر في الوجود وتصنيفها، وهو تقسيم يتباين من حضارة لأخرى ولهذه الأشياء والظواهر سواء أكانت محسوسة أم مجردة – تمثيلات ذهنية يطلق عليه اسم المفاهيم.

ويتمثل الميدان الثاني من ميادين علم المصطلح في دراسة المصطلحات اللغوية والعلاقات القائمة بينها، ووسائل وضعها وتوليدها، وكيفية دمجها في بنية العلم الذي تنتمي إليه وهذا النوع من الدراسة في صلب علم المفردات وعلم تطور دلالات الألفاظ، وهما من مجلات علم اللغة أو اللسانيات .

علم المصطلح ذو أفق عالمي مثل علم اللغة بصفة عامة، يتطلب التوحيد المعياري للمصطلحات أسسا ونظرية عامة، ولهذا فإن التعاون الدولي الوثيق هادف إلى أن يطور أسسا شاملة لعلم المصطلح ومناهج دقيقة لصناعة معاجم المصطلحات، من أجل تقنين العمل في هذا المجال.

يهتم علم المصطلح بالكلمة المكتوبة ولها عنده المكانة الأولى، في حين أن البحث اللغوي ينطلق أساسا من الصيغة المنطوقة وذلك باعتبار اللغة في المقام

الأول ظاهرة منطوقة مسموعة. ولكن علم المصطلح يجعل المصطلحات في شكلها المكتوب مجالا لعمله، وذلك لأن هذه المصطلحات تستخدم في المقام الأول في المطبوعات العلمية المختلفة، وتستخدم في مرحلة تالية في التواصل المنطوق. وعلى المستوى الدولي هناك مجال كبير لتوحيد المصطلحات على المستوى المكتوب.

يقوم علم المصطلح بتحديد قيمة مكونات المصطلح، ويتضمن التوحيد المعياري للمصطلحات اختيار المصطلح المناسب ووضع المصطلح الموجود، وهو أمر لم يكن يهتم به علم اللغة في اتجاهاته السائدة وكان مقصورا على صناعة المعجم.

وأخيرا فإن علم المصطلح يهتم كذلك بتوثيق المصطلحات لتيسير استعمالها سواء أكان هذا التوثيق آليا (بالحاسوب) أم كتابيا (بالمعاجم المتخصصة).

وهناك من يميز بين نشاطين من أنشطة العمل المصطلحي : علم المصطلح (terminologie) الذي يتناول الجانب النظري بدقتية النظرية العامة والنظرية الخاصة [9]. والمصطلحية (terminogrqphie) الذي يختص في كيفية توثيق المصطلحات وإعدادها للنشر في معاجم متخصصة. والراجح أن المعجمي والمصطلحي الفرنسي ألان راي (Alain Rey) هو في مقدمة الذين أشاروا إلى هذا الفرق وأكدوه [10] .

تعريف الترجمة:

لقد ورد لفظ الترجمان في القاموس المحيط بضم التاء والجيم " تُرْجُمان " وبفتح التاء وفتح الجيم ومعناه المفسّر للسان، وهو مأخوذ من مادة "ت. ر.ج.م" وهذه المادة يطلق عليها الصرفيون اصطلاح "الفعل الرباعي المجرّد" عندما تكون في الصيغة الفعلية "ترجم" ومصدر هذا الفعل "ترجمة". فإذن الترجمة هي التفسير للسان والمقصود باللسان الكلام الأعجمي "غير العربي"، والترجمة عند الإطلاق

تعني النقل من لغة إلى أخرى كما أنها تطلق ويراد بها تاريخ حياة الإنسان ومنها سميت الكتب التي تتناول شخصيات تاريخية بكتب التراجم.

وقد تعرض الجوهري في صحاحه إلى لفظ "ترجم" على المعنى الأول فقال" ويقال قد ترجم كلامه بلسان آخر ومنه الترجمات والجمع تراجم"[11]. وعرّف أنيس المقدسي الترجمة بقوله " الترجمة نقل الأفكار من لغة إلى لغة ؛ أو هي تفسير الكلام بما يقابله في لسان آخر "[12].

والترجمة كلمة معرّبة اشتق منها اسم الفاعل فقيل ترجمان، وهو لقب أطلق في صدر الإسلام على عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقيل: ترجمان القرآن، أي المفسر له.

والترجمة في مفهومها الأكاديمي هي حركة ثقافية ونشاط علمي وعمل لغوي.

تحديد العلاقة:

1 - المعنى بين المصطلحي والمترجم :

من الواضح أن كلا من المترجم الذي ينقل نصا من اللغة (أ) إلى اللغة (ب)، والمصطلحي الذي ينقل مصطلحات من اللغة (أ) إلى اللغة (ب) يُعني بنقل معنى تلك المادة، فكلاهما يسعى إلى الهدف ذاته أي فهم المعنى المقصود ونقله بدقة وأمانة. وهذا يتطلب منهما تمكنا من اللغتين ودراية معمقة ببنياتهما الصرفية وتراكيبهما النحوية وأساليبهما وثقافتيهما. ولهذا يبدو لأول وهلة أن المصطلحي والمترجم يقومان بالوظيفة ذاتها ولابد أنهما يحتاجان إلى ذات الإعداد ونفس التكوين. ولكننا إذا أمعننا النظر في الأمر ألفينا فروقا لا يمكن إغفالها.

فالمصطلحي لا يعنى بنقل المصطلحات من لغة إلى أخرى فقط، فهذه إحدى وظائف المصطلحي، وله وظيفتان أخريان: الأولى توليد المصطلحات باللغة ذاتها من دون الانطلاق من لغة ثانية وإنما انطلاقا من المفهوم المطلوب التعبير عنه

بمصطلح لغوي، والوظيفة الثانية: توحيد المصطلحات القائمة في اللغة بحيث يعبر المصطلح الواحد عن مفهوم واحد ويعبر عن المفهوم الواحد بمصطلح وفي كلتا الحالتين لا يتعامل المصطلحي مع لغتين وإنما مع لغة واحدة.

ومن ناحية أخرى، فإن المترجم يتعامل دائما تقريبا مع نص كامل يرغب في نقله من لغة إلى أخرى، في حين أن المصطلحي لا يتعامل في العادة إلاّ مع مصطلح واحد بسيطا كان أم مركبا، ولا يعالج نصا كاملا إلا إذا كان يقوم بدراسة طبيعة لغة علم من العلوم من حيث بنياتها وأساليبها .

ومن ناحية ثالثة، فإنه على الرغم من أن كلا من المصطلحي والمترجم يعنى بالمعنى ويسعى إلى استيعابه ونقله، فإنه يبحث عن معنيين مختلفين فالمصطلحي يبحث عن معنى (الشيء) أو (المفهوم) الذي يمثله اللفظ المراد ترجمته، في حين يبحث المترجم عن معنى (التسمية) التي يسمى بها ذلك الشيء أو المفهوم. وهكذا فإن المصطلحي مضطر إلى التعريف بماهية (الشيء) وتحديد عناصره الرئيسة والوقوف على جنسه وفصله ليتمكن من إلحاقه بمنظومة المفاهيم التي ينتمي إليها، غير أن المترجم لا تعنيه تلك الأبحاث المنطقية والوجودية بقدر ما يعنيه معرفة معنى الكلمة في السياق الذي استعملت فيه ومن ثم معرفة المعنى الكلي للعبارة والفقرة اللتين يقوم بترجمتها [13].

المصطلحي يستعين بوسائل لغوية محددة لوضع المصطلحات الجديدة أو توحيد المصطلحات القائمة. وهذه الوسائل اللغوية تشترك فيها جميع اللغات على الرغم من تفاوتها في ترتيب أهمية هذه الوسائل أو شيوعها فيها.

وبالعربية ترد وسائل توليد المصطلحات على الترتب التالي: الاشتقاق والمجاز، والتراث، والتعريب، والنحت.

وتتشابك العلاقة بين المصطلح اللغوي والترجمة كما تتشابك أغصان شجرة المعرفة الباسقة المتنامية. فعلم المصطلح علم جديد النشأة شهد القرن العشرين مولده، على الرغم من أن توليد المصطلحات ذاتها بدأ منذ أن شرع

الإنسان باستعمال اللغة أداة للتواصل. ولقرون عديدة خلت كان المترجمون هم الذين يتولون وضع مقابلات للمصطلحات الأجنبية التي يأتون عليها أثناء عملهم في ترجمة الكتب، فشاع بين الناس أنّ المصطلحات يولدها المترجمون حتى بعد أن استقل علم المصطلح بذاته ونأي بنفسه عن الترجمة.

ومنذ أن بدأ الاحتكاك بين الجماعات البشرية المنظمة، والترجمة شفهية أم تحريرية، تقوم بدورها بوصفها أداة للتواصل الإنساني، ولعلّ أقدم أجهزة الترجمة التحريرية المؤطرة بمترجمين مزودين بمعاجم ثنائية اللغة وجدت في الإمبراطورية البابلية في العراق قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام [14].

ومنذ ذلك الحين والترجمة تُعَدُ فَنًا يعتمد على حذق المترجم وتمكنه من اللغتين الناقلة والمنقول منها واطلاعه على ثقافتيهما ومعرفة الموضوع النص المترجم.

وفي حوالي منتصف القرن العشرين الميلادي أخذت المحاولات تتوالى لإخضاع الترجمة لمنهجية علمية ووضع نظريات خاصة بالترجمة. وقد شجع على ذلك ثلاثة تطورات:

أولها، التطور الذي أصاب علم اللغة بشكل عام ونظريات الدلالة بشكل خاص. وثانيها، ظهور نظرية الاتصال على يد باحثين من أبرزهم جارلس مورس[15]. وجورج ميلر وثالثها، الشروع في استخدام الحاسوب في إجراء الترجمات الآلية وما يتطلب ذلك من منهجية وتنسيق وضبط.

هذا وتتفق نظريات الترجمة على أنّ الاتصال اللّغوي بما فيه الترجمة — لا تقتصر عناصره المؤثرة على المرسل والمتلقي والرسالة فحسب، وإنّما تشتمل كذلك عل السياق، والوسط الذي تنتقل فيه الرسالة، أو المؤثرات الخارجية التي ينتج عنها استحالة بلوغ الرسالة إلى المتلقي أو وصولها إليه بصورة مشوّهة أو مختلفة.

وهكذا بحثت نظريات الترجمة في السياق الثقافي والاجتماعي التي تصاغ فيه الرسالة ومدى تأثر الترجمة جرّاء توافق أو تباين اللغتين الناقلة والمنقول منها من حيث بنياتهما الصرفية والنحوية والدلالية والأسلوبية. وما ينجم عن ذلك من ضرورة إحاطة المترجم بالوسط الثقافي والاجتماعي للغتين ليتمكن من سدّ الثغرات الموجودة في اللغة الناقلة عند الضرورة.

وفي مبحث الدلالة تطرقت نظريات الترجمة إلى صيغة المعنى بتحليل العلاقة بين الشيء والمفهوم والكلمة، أو بين الدال والمدلول والدّليل طبقا لمثلث أو كدن وريشاردز[16]

والنص لا يتشكل من قائمة مفردات وحسب وإنما من بيانات نحوية ودلالية وأسلوبية تنتظم بينها تلك المفردات، ولهذا فإنّ معنى النص لا يساوي بطريقة حسابية مجموع معاني المفردات المكونة له.

ولذلك فإن للكلمة الواحدة عدة معان طبقا للسياق الذي ترد فيه. وقلّما نجد كلمة تقتصر على معنى واحد على مرّ العصور نتيجة لظواهر لغوية عديدة مثل (التفسير الدلالي) و(التوسيع الدلالي) و(المجاز) وغيرها، إضافة إلى ذلك فإنّ لكل كلمة إيحاءات وظلالاً هامشية ترتبط بثقافة المرسل والتلقي وخبراتهما العاطفية والاجتماعية.

2 – الترجمة متوقفة على صحة المصطلح ودقته: إنّ نجاح العملية الترجمية ودقتها مرهونان بمدى وعينا بمركزية دور المصطلح في ذلك ويستخلص من ذلك أن : (الترجمة الفاعلة هي تلك التي تنطلق من فهم وتمثل المصطلح في اللغة الأصل وضبط إطاره النظري وكثيرا ما أدى الابتعاد عن هذه الأسس في العمل الترجمي إلى ما يسمى بالاضطراب ...) [17].

وغني عن البيان أن الترجمة من زاوية المصطلح بقدر مالها من شأن ومزية في نقل العلوم والتكنولوجيات والآداب بقدر ما هي أداة لتنمية اللغات وإغنائها فبفضلها تثرى اللغة بالمصطلحات المستحدثة وإلى ذلك أشار المترجم المغربي هيثم

الخياط في قوله : (فالترجمة إذن هي الوسيلة الأولى لدفع القصور عن اللغة وسد النقص في الأدب وكشف الظلام عن الأمة) [18].

فاتضح إذا مما سبق بيانه أن عملية نقل المعارف والعلوم إنما يتبوأ المصطلح فيها ويحتل صدر النادي في الأهمية فمفاتيح العلوم مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى فهي مكمن حقائق العلوم وبها تؤخذ نواصي المعارف وتدرك الفهوم وهي عنوان يتميز به كل اختصاص وعلم عن غيره (وليس من مسلك يتوصل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاتها إلا محاور العلوم ذاته [19].

ولما كان للمصطلحات هذه الأهمية ونظرا لما يشهده العالم من توالد سريع للمصطلحات في جميع المجالات بجميع اللغات، كان لزاما على اللغة العربية أن تدرك جدية المسألة، وتوجب على أهلها تدبر الأمر بإيجاد آليات مناسبة لوضع مقابلات لما يتهاطل من مصطلحات أجنبية، آليات من شأنها ضمان المواكبة والتواصل العالميين.

من هنا، ومن كل ما سبق يمكن القول بأن للمصطلح علاقة بالترجمة. فحاجتهما إلى بعض لا تنتهي، ودائرتهما لا تغلق، ومجالهما لا يحد. فهما علمان دائمان للتجدد والتطور مرتبطان بنمو المعرفة الإنسانية واستيعاب معطيات التقدم العلميّ والتقنيّ.

الهوامش

1-انظر مادة (صلح)، وفي الصحاح: الصلاح ضد الفساد، تقول: صلَحَ الشيء يصلح صلوحا. قال الفراء : وحكى أصحابنا صلَحَ أيضا بالضم ......، الصلاح المصالحة.... والإصلاح نقيض الإفساد. والمصلحة واحدة المصالح. والاستصلاح نقيض الأفساد. انظر النص في: الجوهري، صحاح اللغة وتاج العربية، القاهرة 1956، وفي : الصحاح في اللغة والعلوم، بيروت 1975.

2- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، د ت، د ط. (صلح). ص 867.

3- ينظر د. مصطفى طاهر الحيادرة: من قضايا المصطلح اللغوي العربي. ط 1، 2003 عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ص 15.

4 - ينظر د. جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط 1، 2007 ص 15.

5 – محي الدين الكافيجي عالم من علماء الحديث اهتم بالأدب واللغة وله باع طويل في علم المصطلح، توفي سنة 879 هـــ.

6 – ينظر د. جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية نفس المرجع السابق، ص 15.

7-مجلة اللسان العربي، العلاقة بين علم المصطلح ونظرية الترجمة، د علي القاسمي، العدد 40 1995، ص 106.

8 – د. مصطفى طاهر الحيادرة: من قضايا المصطلح اللغوي العربي، ص 19.

9- مقال: "النظرية العامة والنظرية الخاصة في علم المصطلح"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس عدد خاص 4، (1988) ص15 – 16.

10- Alain Rey La Terminologie Noms et Nations (Paris Puf 1979

11- الجوهري، إسماعيل بن حماد : تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين، مادة : ترجم.

12- مجلة المقتطف، أصول الترجمة والتعريب، أنيس المقدسي، عدد مارس 1929، ص 271 .

13-ينظر مجلة اللسان العربي، العلاقة بين علم المصطلح ونظرية الترجمة، ص 109 – 110.

14 -Gharlesl Morris Signs Language Amd Behaviour New York Prentice –Hall

15 -George Miller Language and communication New York MeGraw- Hill 1951.

16- مجلة اللسان العربي، العلاقة بين علم المصطلح ونظرية الترجمة، ص 108 .

17 – رشيد بن مالك: إشكالية ترجمة المصطلح في البحوث السيميائية العربية الراهنة، نص مداخلة ألقيت في الملتقى السادس حول الترجمة والاختلاف، 2000، جامعة وهران ص4.

18 – محمد هيثم الخياط: أهمية الترجمة في نشر العلم ورفع مستوى التعليم، ندوة حول الترجمة العلمية، الرباط، 1995، ص40، والنص من رسالة للمرحوم حسن الزيات.

19 – أنور لوقا: التساؤل على شفا المنزلق، مجلة فصول عدد، سنة 1987، ص 15 .

الظواهر اللغوية في تفسير القرآن الكريم

- التناوب بين الأسماء والأفعال -

الأستاذة: دلولة قادري
جامعة تيزي وزو

المغايرة بين الاسم والفعل في التَّركيب، طريقة من طرق التَّلوين في الخطاب، ففي القرآن الكريم أبنية متماثلة من حيث الاسميَّة والفعليَّة، فترد في موطن بالصِّيغة الاسميَّة، وفي موطن آخر بالصِّيغة الفعلية. يقول عبد القاهر الجرجانيُّ وهو يتكلم عن الفرق بين الإسناد إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل: "وبيانه أنَّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشَّيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئًا بعد شيء. وأمَّا الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدُّد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء، فإذا قلت: زيدٌ منطلقٌ فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدَّد ويحدُث منه شيئًا فشيئًا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيدٌ طويل وعمرو قصير فكما لا يقصد ههنا إلى أن تجعل الطُّول أو القصر يتجدّد، ويحدُث بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: زيدٌ منطلق لأكثر من إثباته لزيد وأمَّا الفعل فإنَّه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: زيد هاهو ذا ينطلق فقد زعمت أنَّ الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا وجعلته يزاوله ويزجيه."[1] ويقول الفخر الرازيُّ: "الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها، فإذا قلت: زيد منطلق لم يُفِدْ إلا إسنادَ الانطلاق إلى زيد. وأمَّا الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها، فإذا قلت: انطلق زيدٌ أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد، وكلُّ ما كان زمانيًّا فهو متغير

والتَّغيُّر مُشْعِر بالتَّجدد، فإذن الإخبار بالفعل يفيد وراء أصل الثُّبوت كون الثَّابت في التَّجدد والاسم لا يقتضي ذلك"[2]. وإذا كان المراد إفادة التَّجدُّد كان المسند فعلاً، وأمَّا" الحالة المقتضية لكونه اسمًا فهي: إذا لم يكن المراد إفادة التَّخصيص بأحد الأزمنة الثَّلاثة إفادة الفعل لأغراض تتعلَّق بذلك".[3] فإذا كان هناك آيات قرآنيَّة وردت فيها مفردات بالصِّيغة الاسميَّة وفي نظائرها بالصِّيغة الفعليَّة، فلابد أن يكون هناك سبب للتَّخصيص بحيث لا يُمكن أن تقع مفردة مكان نظيرتها، ولو وقعت لاختلَّ النَّظم وسنحاول في النُّصوص الآتية تحليل الفرق في المعنى عند المغايرة بين الاسم والفعل في الأبنية المتماثلة :

أ- بين الفعل المضارع واسم الفاعل: وردت الصِّيغتان يُخرج ومُخرِج في سياق قوله تعالى :(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) [الأنعام 95] حيث جاء المعطوف فيها اسمًا (مُخرج) وفي سياق قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ) [يونس 31، والروم 19] حيث جاء المعطوف فعلاً (ويخرج) .

وقد ظهرت المغايرة في السِّياقين في أحوال المسند بين صيغتي الفعل والاسم وهذه المغايرة تمثِّل في النَّص نوعًا من أنواع التَّرابط، لأنَّ الأصل أن يعطف الفعل على الفعل، والاسم على الاسم .

وقد اختلفتْ نظرة اللُّغويين والمفسِّرين في توضيح تلك المغايرة في قوله (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)، أهو معطوف على الفعل الذي قبله أم على اسم الفاعل في: (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)؟ فذهب الأكثرون منهم إلى أنَّه معطوف على اسم الفاعل (فالق الحب) وهذا ما أفصح عنه الخطيبُ الإسكافيّ[4]؛ اعتمادًا على السِّياق اللُّغويِّ السَّابق في قوله: (فَالِقُ الْحَبِّ) واللاَّحق في قوله: (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) [الأنعام 96]، وعدَّ ذلك من باب التَّناسُب والتَّناسق اللَّفظيِّ في التَّركيب .

وعلى غرار هذا الإفصاح يأتي الزمخشريُّ متسائلاً: "كيف قال: (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ

مِنَ الْحَيِّ) بلفظ اسم الفاعل، بعد قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)؟ قلت: عطفه على (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) لا على الفعل. و(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) موقعه موقع الجملة المبنيَّة لقوله (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)؛ لأنَّ فلق الحبِّ والنَّوى بالنبَّات والشَّجر النَّاميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأنَّ النَّامي في حكم الحيوان ألا ترى إلى قوله تعالى: (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [الروم 19]".[(5)] .ويجاري الإسكافيَّ والزمخشريَّ في تحليلهما: الكرمانيُّ[6]، وابن جُمَّاعة[7] والأنصاريُّ[8] وذكر السَّمين الحلبيُّ[9] وجهين في اسم الفاعل مخرج: الأوّل: ما تقدَّم من كونه معطوفًا على فالق، والثَّاني: أنَّه معطوف على يخرج ويؤول الفعل حينئذ بالاسم، واستدلَّ بقول الشَّاعر[10]:

فَأَلْفَيْتُه يَوْمًا يُبِيرُ عَدُوَّهُ   ومَجْرٍ عَطَاءً يَسْتَخِفُ المعَابِرا

أي: مُبِيرًا .

وقد اختلفت نظرة الرّازيّ[11] عن سابقيه في بيان نكتة المخالفة بين اسم الفاعل والفعل المضارع، وأفاد أنَّ لفظ الفعل يدلُّ على اعتناء الفاعل بذلك الفعل في كل حين وأوان، وأمَّا لفظ الاسم فإنَّه لا يفيد التَّجدُّد والاعتناء به ساعة فساعة، ومثال ذلك قوله تعالى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) [فاطر 3]، فقوله: يرزقكم جاء فعلاً؛ ليفيد أنَّه يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة، وأمَّا الاسم فمثل قوله سبحانه: (وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) [الكهف 18]، فاسم الفاعل باسط يدلّ على الثَّبات والبقاء على تلك الحالة".

ويؤكد الرازيُّ هذه المناسبة بين الاسم والفعل، وهي أنَّ: "الحيّ أشرف من الميت فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحيّ من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحيّ؛ فلهذا المعنى وقع التَّعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل وعن الثَّاني بصيغة الاسم؛ تنبيهًا على أنَّ الاعتناء بإيجاد الحيِّ من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحيّ[12] .

ويستغل ابن عاشور هذا التَّحليل ويعلِّله بأنَّ: "أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه[13]"، وقد استخلص دلالة أخرى من هذا التَّلوين قال: "وأمَّا قوله يخرج الحي بلفظ الفعل عند تقديم إخراج الحيِّ لِمَا في الحيِّ من الحركة التي تعينه عند الخروج، فخروجه أسهل على مخرجه من خروج الميت من الحي فاقتضت البلاغة تقديمه بلفظ الفعل المقتضي للحال والاستقبال؛ ليكون ذكر خروج الميت بعده انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى، وجعل خروج الميت مستندًا إلى لفظ الفاعل المضاف الدّال على المضيّ؛ ليكون خروج الأصعب مفرعًا من وقوعه؛ ليكون أدلّ على القدرة وأبلغ في التمّدح[14]" .

ويفصح الدكتور فاضل السَّامرائي[15] بدلالة أقرب إلى تحليل الرازيّ وإشارة ابن أبي الإصبع، حيث أفاد أنَّ الفعل يدلُّ على الحدوث والتَّجدُّد، وأمَّا الاسم فيدلُّ على الثُّبات، فاستعمل الفعل يخرج مع الحيّ؛ لأنَّ أبرز صفات الحيِّ الحركة، واستعمل الاسم مخرج مع الميت؛ لأنَّ الميت في حالة همود وسكون وثبات .

ومن الصِّيغ التي تتغاير بين الاسميَّة والفعليَّة في سياقهما، صيغتا: أنصح وناصح فهاتان الصِّيغتان كلتاهما وردتا في قصتين مختلفتين الأولى في سياق قصة نوح - عليه السلام - في قوله تعالى :(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ) [الأعراف 62]، والثَّانية في سياق قصة هود - عليه السلام - من قوله تعالى: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) [الأعراف 68].

جاء التَّركيب الأوَّل باستعمال المسند فعلاً: أنصح لكم، وفي التَّركيب الثَّاني جاء المسند اسمًا: (وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)، فما سرُّ المغايرة بين البناءين؟

يُرجع الخطيبُ الإسكافيُّ[16] وجه المغايرة إلى أنَّ نوحًا ضُلِّل من قومه قال تعالى: (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) [الأعراف60]، وأمَّا هود فَسُفِّه من قومه قال سبحانه :(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) [الأعراف 66]، والضَّلال من صفات الأفعال ! والسَّفاهة من صفات النَّفس، وهي معنىً ثابت وضدها الحلم، فلمَّا

عيب نوح - عليه السلام - بفعل مذموم نفاه بفعل محمود بل بأفعال محمودة. وأمَّا هود - عليه السلام - فَرُمِي بالسَّفاهة، وهي صفة مذمومة ثابتة فلا يَتحوّل عنها الإنسان سريعًا، فكان المناسب نفي ذلك بصفة أو صفات ثابتة ناصح أمين، أي ثابت في النُّصح لا أنتقل عنه إلى غشٍّ .

وأقرب من هذا التَّوصيف لتلك المغايرة ما ذهب إليه ابن جُمَّاعة(17) حيث ذكر أنَّ الضَّلال صفة غير ثابتة فيمكن الخلوص منه سريعًا، وهو يتجدَّد بترك الصَّواب إلى ضده فقُوبل في قول نوح - عليه السلام - بفعل يناسبه وأنصح. وأمَّا هود فقد اتُهم بالسَّفاهة، وهي من الصِّفات اللاَّزمة لصاحبها فقابلها بصفة ثابتة كذلك ناصح أمين .

كما أدرك الفخر الرازيُّ دلالة التَّلوين بين الفعليَّة والاسميَّة على التَّجدُّد والثَّبات "فلمّا كان من عادة نوح - عليه السلام - العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم، وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل فقال: وأنصح لكم. وأمّا هود - عليه السلام - فقوله: وأنا لكم ناصح يدلُّ على كونه مثبتًا في تلك النَّصيحة مستقرًا فيها[18]" .

وعلى طريقة الرَّازيِّ في توصيفه يأتي ابن الزُّبير الغرناطيُّ موضحًا الفارق الأساس بين الفعليَّة والاسميَّة في الاستعمال فذكر أنَّ نوحًا في سياق الآية الأولى "بيَّن لهم نصحه واستمراره في إبلاغهم ونصحهم فقال :(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ)، ثُمَّ أتبع بتعريفهم بجهلهم بما عنده من ربه وبعلمه هو بذلك فقال: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)، وإنَّما قال: وأنصح، وأعلم؛ ليعلم بتماديه على النُّصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون... وأمَّا جواب هود - عليه السلام - فإنَّما أتى في إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال: "ناصح أمين، ولم يقل أنصح فيأتي بالفعل؛ ليحصل منه أنَّ ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق، ولم يكن الفعل ليعطي ذلك، فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذي هو أنا[19]" .

ودلالة الصِّيغة الفعليَّة على التَّجدُّد والاستمرار جاء بالتَّأكيد في السِّياق القرآنيِّ على لسان نوح - عليه السلام :- (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) [نوح 5، 9]. وتتجاوب القيمة التَّعبيرية للتَّركيب التي ارتادها ابن الزُّبير ههنا مع مراعاة السِّياق القرآنيِّ لنسق المغايرة بين الفعليَّة الدَّالة على الحدوث والتَّجدُّد والاسمية الدَّالة على الثُّبوت والاستقرار للتَّركيبين: (قَالُواْ آمَنَّا)، و(قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ) في سياق قوله تعالى في وصف المنافقين: (وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) [البقرة 14]، حيث ذكر أنَّ: "المنافقين خاطبوا المؤمنين بالصِّيغة الفعليَّة الدَّالة على الحدوث والتَّجدُّد آمنا، وخاطبوا إخوانهم وشياطينهم بالصِّيغة الاسميَّة الدَّالة على الثبات والدَّوام فقالوا: إنا معكم[20]" .

والتَّحوُّل في التَّركيب من الفعليَّة إلى الاسميَّة؛ إظهار للثَّبات على معتقدهم الفاسد، وأنَّ ما خاطبوا به المؤمنين أمر متجدِّد بسبب لقائهم؛ تُقْية فقط[21]. ويميل الكرمانيُّ[22] للسِّياق اللُّغويِّ؛ لبيان الدَّقيقة التَّعبيريَّة للتَّغاير بين الفعليَّة والاسميَّة في سياقهما، حيث رأى أنَّ مجيء الصِّيغة الفعليَّة أنصح للمناسبة اللَّفظيَّة في صدر الآية أبلغكم، فعطف عليه وأنصح كما عطف الماضي على الماضي في سياق الآية الأخرى (لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) [الأعراف 93]، وأمَّا في قول هود - عليه السلام - فورد اسم الفاعل (ناصح) ليقابل اسم الفاعل في قولهم: (وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [الأعراف 66] فقوبل الاسم بالاسم. ووافقه على هذا التَّحليل النَّسفيُّ[23]، وأبو حيَّان[24] والأنصاريُّ[25].

ومن ثَمَّ تتمثَّل أمامنا - عمليًا - القيمة الجماليَّة والتَّعبيريَّة للتَّلوين بين الفعليَّة

والاسميَّة، ففي قول نوح - عليه السلام - وأنصح ما يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار؛ فإنَّ قومه كانوا يرمونه بالضَّلالة، ومع ذلك لا يترك نصحهم لكراهيته، أو بذاءتهم[26]، فكان - عليه السلام - يُجدِّد في الخطاب والدعوة في كل يوم وساعة في اللَّيل والنَّهار (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا) [نوح 5] فوصفهم إيَّاه بالضَّلال وصف عارض يمكن تركه إلى نقيضه من الهدى، فناسبه الصِّيغة التي تدلُّ على الحدوث، فجاء بعده قوله: وأنصح ليناسب الحدوثُ الحدوثَ[27].

وأما هود - عليه السلام - فقال: ناصح أمين؛ ليدلَّ على أنَّه ثابت في نصحه، وأنَّ النُّصح صفة لازمة له كما يدلُّ على ذلك اسم الفاعل الذي يدلُّ على الثَّبات[28] والسَّفاهة التي وصف بها: صفة لازمة لصاحبها ثابتة فيه، فأتى بالصِّيغة التي تدلُّ على الثُّبات ناصح؛ ليناسب الثُّباتُ الثُّباتَ[29].

ب- بين الفعل المضارع والمصدر

وردت صيغة يكذبون في قوله عزَّ وجل : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ) [الانشقاق 22]، وصيغة المصدر تكذيب في قوله سبحانه :(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) [البروج 19]

استغلَّ الخطيبُ الإسكافيُّ العلَّة نفسها في الكشف عن سرِّ هذا التَّغاير في مبنى الفعلين، فربط بينه وبين السِّياق اللُّغويِّ المتمثِّل في الفواصل في السُّورتين مع صحَّة المعنى واللَّفظ .

فالصِّيغتان معناهما واحد، وإنَّما اختلف اللَّفظان، مراعاة للفواصل فصيغة المضارع؛ مراعاة لما قبلها، وصيغة المصدر جاءت في فواصل مردفة بياء أو واو، يقول: "إنَّ ما قبل الأولى: (فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ) [الانشقاق 20،22] فكانت الفواصل التي تقدمتها على يفعلون فجعلت هذه تابعة لها مع صحة المعنى واللَّفظ، والثَّانية

في فواصل بياء أو واو، وهي قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ، وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) [البروج 17 20] وعلى ذلك بُنيت السُّورة فكان حملها على نظائرها من السُّور أولى مع صحَّة اللَّفظ والمعنى[30]. ووافقه في مراعاته لفواصل الآيات؛ اعتمادًا على السياقين اللُّغويِّ والحاليِّ: الكرمانيُّ[31] والأنصاريُّ[32].

ولحظ ابن الزُّبير الغرناطيُّ إيثار النَّسق القرآنيِّ المغايرة بين الصِّيغتين لسياق الحال في التَّركيبين وعلاقته بالسِّياق السَّابق للصِّيغتين كلتيهما، فآية الانشقاق سبقها وعيد لم يقع، فناسب الإتيان بلفظ المضارع للدَّلالة على الحال والاستقبال .

أمَّا آية البروج فقد سبقها عقاب آل فرعون وأخذهم وقد مضى زمانهم فناسب الإتيان بالمصدر؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك شأنهم فيما سبق وأنَّ ذلك شأنهم أبدًا، فيقول: "إنَّ آية الانشقاق تقدَّمها وعيدٌ أخروي علَّة لم يقع بعد، وهم مكذِّبون بجميعه، فجيء هنا باللَّفظ المقول على الاستقبال.... فأمَّا آية البروج فقد تقدمها قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ❖ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) [البروج 17 18]، وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدَّم ومضى زمانه وهؤلاء مستمِّرون على تكذيبهم فقيل: (في تكذيب) وجيء بالمصدر؛ ليحرز تماديهم وأنَّ ذلك شأنهم أبدًا فيما أخبرهم به[33] .

ولم يقف التَّوجيه الدَّلالي لهذه المغايرة عند حدِّ الفعليَّة والاسميَّة ودلالتهما، بل تعدَّاها لأغراض أخرى يتمخض عنها السِّياق في موضعه، من هذه الأغراض: عدم مماثلة قوم فرعون وثمود لهؤلاء المكذبين، بل هم أشدّ تكذيبًا وطغيانًا، كما أنَّ التّكذيب محاط بهم من كل مكان، هذا ما ألمح إليه الألوسيّ - في توجيه آية البروج - بقوله :(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي من قومك .... (فِي تَكْذِيبٍ) اضطراب انتقالي عن مماثلتهم لهم أي قوم فرعون وثمود، وبيان لكونهم أشدّ منهم في الكفر والطغيان كما نبئ عنه العدول عن(يكذبون) إلى

(في تكذيب) المفيد لإحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق منه [34].

ومعنى الإحاطة التي ذكرها الألوسي مستفادة من السِّياق اللُّغوي في التَّركيب فحرف الجر (في) يفيد معنى الظَّرفية، وهو أصل معانيها، يقول سيبويه: "وأمَّا في فهي للوعاء[35].

الخاتمة

وبعد فتلك محاولة متواضعة للكشف عن بعض أوجه المناسبة بين الأبنية المتماثلة في النَّظم القرآني، وكان من نتائج هذه المحاولة :

1- أظهرت الدِّراسة وظيفة السِّياق اللُّغويِّ الذي أتاح لنا تفسير وتوصيف أنساق التَّعبير القرآني بقيمه الجماليَّة والفنيَّة .

2- أبرزت السِّمات اللُّغويَّة التي يستعملها الخطابُ القرآنيُّ في ظاهرة الأبنية المتماثلة في سياقها .

3- أوضحت مدى ارتباط ألفاظ القرآن بعضها ببعض، حتى كانت كالكلمة الواحدة متَّسقة المعاني منتظمة المبانيّ .

4- أشارت الدِّراسة إلى أنَّ أكثر لطائف القرآن مُودعة في مثل هذه الأبنية التي تُعد وحدة بناء يجعل السُّور أو السُّورة من القرآن بنية محكمة متناسبة المعاني والمباني والمطالع والمقاطع .

5- أظهرت قيمة الصِّيغة في تركيبها؛ لأنَّها تُعدُّ أهم القرائن اللَّفظيَّة التي تعين على فهم الخطاب، ولأنَّها - كذلك قادرة على تفسير السِّياق الخطابيّ، وقادرة - أيضًا - على تحليل النقلة الأسلوبية.

6- ألمحت الدَّراسة إلى أنَّ المغايرة في الأبنية المتماثلة، هو بحث في التَّنُّوع الأسلوبيِّ الخاضع للسِّياق بنوعيه؛ لأنَّ هذا التَّنُّوع هو أحد الوسائل التي تساعد على التَّرابط النَّصِّي .

7- أوضحت أوجه بلاغة السِّياق القرآنيِّ، وهي أوجه المناسبة بين الصيغ المتماثلة في البيان الخطابيِّ للقرآن، وذلك في كيفية انتظام المعاني المتوافقة للصِّيغ المتماثلة مع بيان كيفية مراعاة وحدة السورة وروحها، وجوِّها الخاص في إيراد المعاني المتناسبة، وانتقاء الأبنية لها وبيان - كذلك- كيفية إتيان اللَّفظ بمعناه ومبناه متمكنًا في موقعه لا يسدُّ منه غيره مسدَّه. أظهرت الدِّراسة القيمة الدَّلاليَّة للأبنية المتماثلة في محيطها اللُّغويّ الذي تقع منه في إطار من العناصر اللُّغويَّة أو غير اللُّغويَّة،وهما يشكلان ما يُسمَّى بالنَّص الذي هو "منجز لغويٌّ.

المراجع

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحق محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني القاهرة، 1413 ه، ص 122 .

2- فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحق الدكتور إبراهيم السامرائي ومحمود بركات، دار الفكر، عمان، 1985، ص75 .

3- السكاكي، مفتاح العلوم، د.ط، تحق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت ص210 .

4- محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، تحق الدكتور محمد مصطفى آيدين، ط1، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1422ه ، ص526 .

5- أبو القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل و عيوب الأقاويل في وجوه التأويل: تحق عبد الرزاق المهدي، ط 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001، ج2 ص 374 .

6- محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، تحق أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، ط2، دار الوفاء، المنصورة- مصر، 1418، ص156 .

7- محمد بن إبراهيم بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه والمثاني، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، ط1، دار الشريف، الرياض، 1420ه، ص169 .

8- أبو يحيى زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ط1، تحق محمد علي الصابوني، عالم الكتب، بيروت، 1405هـ، ص125 .

9-السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحق الدكتور أحمد الخراط، ط1 دار القلم، دمشق، 1406هـ، ج5، ص57 .

10- البيت للنَّابغة في ديوانه، ص71 .

11 - فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ط2، دار الكتب العلمية، طهران -إيران -د. ت .ج13، ص93 .

12-المصدر نفسه .

13- محمد بن طاهر بن عاشور التحرير والتنوير، المختصر من "تحرير المعنى السَّديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد"، د.ط، بيروت، د. ت، ج7 ص389 .

14- المرجع نفسه، ج2، ص562 .

15- فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ط4، دار عمار، عمّان، 1427هـ، ص22 .

16- محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي درة التنزيل وغرة التأويل، ص604 .

17- محمد بن إبراهيم بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه والمثاني، ص184 .

18- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير مفاتيح الغيب، ط2، دار الكتب العلمية، طهران - إيران -، د. ت، ج 14، ص156 .

19-ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من أي التنزيل، تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ . ج1 ص401 .

20- المرجع نفسه، ج1 ص402 .

21- ينظر: برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إشراف محمد عبد المعين خان، ط1، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، 1389هـ . ج7 ص430 .

22-الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص171 .

23- عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل تفسير النسفي، المكتبة الأموية دمشق: ج2 ص120 .

24- أبو حيان الأندلسيّ، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، 1412هـ: ج5 ص87 .

25- الأنصاري، فتح الرحمن، ص142 .

26- ينظر : التَّحرير والتَّنوير: ج8 ص194 .

27- ينظر: كشف المعاني، ص179 .

28- ينظر: مفاتيح الغيب: ج14 ص156.

29- ينظر: كشف المعاني، ص179 .

30- الإسكافي، درة التَّنزيل، ص1353 .

31- الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص323 .

32-الأنصاري، فتح الرَّحمن، ص454 .

33- الغرناطي، ملاك التأويل: ج2 ص948 .

34- محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني، دار الفكر بيروت، 1403هـ: ج30 ص119 .

35- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ: ج2 ص308 .

المعاني القرآنية في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء

أ. صافية كساس
جامعة تيزي وزو

مقدمة: لقد دفعت الثورة الجزائرية الكثير من الأدباء إلى إثبات ذواتهم في الحياة الفكرية والسياسية، وهي التي أفرزت جيلا من الشعراء التزموا بقضية الثورة، وذادوا عنها بالفكر والشعر والنفس، وكان "**مفدي زكرياء**" (1908 م - 1977 م) شاعرا فاق غيره في هذا الميدان حين أحس بالثورة قبل أن ينتبهوا إليها، وقبل أن تضرم نيرانها، فأضحت هي الهدف والمبتغى، وبرز ذلك جليّا في دواوينه كـ: "اللهب المقدس، إلياذة الجزائر ...الخ"؛ ومن خلال قراءتنا لهذه الأخيرة: "إلياذة الجزائر" ندرك جيدا مدى تشبع شاعرنا بالمبادئ الأخلاقية والقيم العليا من بيئته الدينية المحافظة، فتشرب العلم والدين والتربية الصحيحة، ومن ثمّ بزغ شاعرا مترفّعا، متساميا عن الدنايا والخطايا، حيث نجد في شعره دلائل كثيرة عن تأثره بالقرآن ومبادئه من خلال الاقتباس للكلمات والمعاني الإسلامية، وفي مواضيع شتّى، وهو دليل على أنّ الثورة قامت على قيم ومبادئ إسلامية فكرا، وسلوكا، وممارسة، وقد التزم مفدي زكرياء بهذه القيم الدينية، ورصد الإيقاع الإنساني لشعب ثائر، ونبض حيّ يتطلع إلى الحرية والتحرر، فأين يكمن هذا التأثر؟ وما مدى استعماله للمعاني القرآنية في شعره؟

حياته: هو مفدي زكريا بن سليمان [1]، أديب وشاعر وسياسي جزائري عرف بلقب: "شاعر الثورة التحريرية الجزائرية"، و"شاعر وحدة المغرب العربي"؛ لقبه آل الشيخ أو "آث الشيخ"، ولد سنة 1908م، بل ذهب بعضهم إلى تحديده

بدقة، وهو يوم الجمعة 12 جمادى الأولى 1326 هـ الموافق 12 يونيه/حزيران 1908م ببني يزقن من قرى وادي ميزاب، ولاية غرداية بالجنوب الجزائري و"مفدي زكرياء" ليس الاسم الفعلي للشاعر، حيث كشف الباحث الجزائري يحيى الشيخ صالح أن "مفدي زكرياء لم تكن كنية الشاعر الجزائري الحقيقية، بل إن أصل هذه التسمية تونسي؛ أما اسمه كما جاء في قائمة أسماء البعثة العلمية الميزابية إلى تونس فهو: "زكريا الشيخ"، وقد أطلق عليه اسم "مفدي زكرياء" في تونس، ولهذا الاسم دلالة على توجهه الثوري الرافض، ويشير صالح إلى أن التسمية تركت أثرا عميقا في شخصية مفدي زكرياء الذي حاول أن يكون اسما على مسمى، وأن تكون هذه "الكنية" وصفا صادقا له وتجسّد ذلك في شعوره النضالي، وقيامه بأدوار الفداء، والتضحية بشكل عميق وفعّال [2]"، كما لُقّب بابن تومرت، وهو اسم مؤسس دولة الموحدين في المغرب.

ومنذ نشأته شبّ على تعاليم الدين الإسلامي، ونهل من العلوم الإسلامية وحفظ القرآن الكريم - وسيكون لهذه النشأة الدينية الأثر الواضح في شعره فيما بعد- حيث بدأ مفدي زكرياء مساره في مسقط رأسه متعلما بكتّاب البلدة، فحفظ جزءا من القرآن ومبادئ العربية والفقه، ثم اصطحبه والده معه وهو ابن سبع سنين إلى مدينة عنابة شمال شرق الجزائر التي كان تاجرا بها وفيها أتمّ حفظ القرآن، ثم جعل يتردد بينها وبين مسقط رأسه، ولم تنتظم دراسته حتى سنة 1922م، إذ قرر والده إرساله إلى تونس [3]، فالتحق بمدرسة السلام القرآنية، وبعد سنتين انتقل إلى المدرسة الخلدونية، ثم تحول إلى جامع الزيتونة، وأخذ عن علمائها دروس اللغة والبلاغة والأصول، وكان خلال ذلك طالبا ذكيا نجيبا، برزت مواهبه الشعرية مبكرا، وشغف بندوات الشعر والأدب، كما كان يتلقف ما يصل إلى تونس من مجلات شرقية تبعث النخوة والوطنية فيتشربها، ويتخذ مواضيعها مجالا للتدرب على الإنشاء والكتابة نثرا وشعرا، حيث كان يعرض شعره على أساتذته في البعثة العلمية الميزابية بتونس

لتقويمه، حتى انقاد له القريض فتخرج سنة 1926م من جامع الزيتونة العريق تعرّف من خلالها على أدباء وشعراء ربطته بهم علاقة قوية، منهم التونسي: أبو القاسم الشابي، والجزائري: رمضان حمود؛ حيث تعدّ فترة مكوثه بتونس مرحلة التكوين الأصيل التي وجهته التوجيه الأدبي والسياسي بعد ذلك فاكتمل وعي مفدي زكرياء الأدبي، وبلغ أعلى قمم شعره وهو في تونس التي ألهمت قريحته أجود أشعاره وأقواها، فنشر بواكير أعماله في الجرائد والدوريات التونسية خلال العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي حتى غدا رمزا من رموز تونس الأدبية وعلما من أعلامها، اتخذ من الكلمة وسيلة لمحاربة الاستعمار الغاشم الذي سعى إلى طمس الهوية المغاربية.

عاد مفدي زكرياء إلى وطنه سنة 1926م لينغمس في أتون الحياة السياسية المتأججة في الجزائر آنذاك، وترأس تحرير جريدة الحياة عام 1933م، كما انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان من شعرائها المرموقين، وقد تتابعت قصائده في صحفها ومجلاتها، ثم رافق الحركة السياسية الوطنية مناضلا بقلمه ولسانه، فكان شاعر الحرية والنضال والدعوة إلى التضحية والفداء في سبيل عزة الوطن وحريته، حيث عيّن رئيسا في اللجنة التنفيذية لحزب الشعب، ثم أمينا عاما له سنة 1937م، وألّف خلال تلك الفترة ما كان يعرف بنشيد الانطلاقة ونشيد الحزب: "فداء الجزائر"؛ وبسبب إشرافه على "جريدة الشعب" زجّ به في السجن سنة 1937م، ثم توالى دخوله للسجون الفرنسية بالجزائر خلال فترة الاستعمار، حيث اعتقل مفدي زكرياء عديد المرات؛ سجن سنة 1937م ودام سجنه حتى سنة 1939م، وسجن من جديد سنة 1940م بتهمة المساس بأمن الدولة ودام حبسه ستة أشهر، كما سجن مرة ثالثة سنة 1945 إثر حوادث 8 آيار/مايو الدامية لمدة 3 أشهر وسجن سنوات: 1949م، 1951م، 1956م، وتعتبر هذه المرحلة من حياة الشاعر مرحلة كفاح عصيبة ذاق خلالها مختلف أنواع التعذيب والتنكيل، كما صودرت جل

ممتلكاته، إلا أن ذلك لم يحبط من عزيمته شيئا بل زاده تعنتا وإصرارا للمضي قدما، فبقدر ما كان الاحتلال الفرنسي يمعن في تعذيبه ويتفنن في التنكيل بالجزائر وتونس يزيد الشاعر من قوة كلمته ومن حماسة شعره، وقد كتب خلال تلك الفترة أهم أشعاره ومنها: النشيد الوطني الجزائري "قسما" سنة 1956م. شارك الشاعر في تظاهرات المغرب الأقصى إثر وفاة محمد الخامس...وأقيمت له لقاءات أدبية تلفزيونية وإذاعية...تغنى بوطنه في شعره فتجسد من خلال حبه لوطنه وتفانيه لهذا الوطن وحرصه الكامل على وحدة المغرب العربي الكبير وقد تجلى كل ذلك في آثاره حتى بزغ فجر الحرية فاستقر بالجزائر في نشاط وفتح مكتبا للتمثيل التجاري، ولكنه كان عاثر الحظ في هذا المجال، ولم تسعفه الظروف للاستقرار، فتوجه إلى تونس سنة 1963م، ومكث بها إلى سنة 1969م حيث يمم شطر المغرب واستقر بالدار البيضاء، وفتح مدرسة للتعليم الثانوي، وفتح خطا لنقل البضائع. وظل يجمع كما دأب طول حياته بين أعماله التجارية والإدارية وإبداعاته الأدبية، وتردد كثيرا بين أقطار المغرب العربي مشاركا في تظاهراته ونشاطاته الثقافية والسياسية، وشارك بشعره ومناقشاته في جل ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر. وختم حياته برائعته الخالدة "إلياذة الجزائر" جمع فيها ما تفرق في غيرها، وأبرز فيها لوح الجمال ولوح الجلال، جمال الطبيعة الساحر، وجلال التاريخ الزاخر، وكانت وفاته يوم الأربعاء 02 رمضان 1397هـ الموافق 17 أوت 1977 م بتونس، وعمره تسعة وستون عاما، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن بمسقط رأسه في بني يزقن - ولاية غرداية.

آثار مفدي زكريا: لمفدي زكريا آثار كثيرة منها الشعرية والأدبية، فمن الدواوين الشعريّة نذكر: اللهب المقدس الذي صدر سنة 1961م، وتحت ظلال الزيتون سنة 1965م، ومن وحي الأطلس 1976م، وإلياذة الجزائر في ألف بيت وبيت 1972م، وأمجادنا تتكلم: تحقيق مصطفى بن بكير حمودة، وتقديم

رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة؛ ولزكرياء بعد هذه الدواوين الخمسة جانب شعر كثير لا يزال متفرقا في الصِّحافة الجزائرية، والتونسية والمغربية، ودواوين معدة للطبع (أو طُبعتْ بعد ذلك) منها: أهازيج الزحف المقدس (أغاني الشعب الجزائري الثائر بلغة الشعب)، و"انطلاقة" ديوان المعركة السياسية في الجزائر من عام 1935م - 1954م، و"الخافق المعذب" من شعر الهوى والشباب، ومحاولات الطفولة التي كتبها الشاعر في صباه، كما كتب مفدي زكريا الأناشيد الوطنية، ومنها النشيد الوطني الجزائري، ونشيد العلم الجزائري، ونشيد جيش التحرير الوطني، ونشيد المرأة الجزائرية، وغيرها من الأناشيد.

هذا بالنسبة للشعر، أما نثره فيتمثّل في: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، جمع وتحقيق: أحمد حمدي، كما كتب مفدي مسرحية بعنوان: "الثورة الكبرى"، واشترك مع الأديب التونسي الهادي العبيدي في تأليف كتاب: الأدب العربي في الجزائر عبر التاريخ (أربعة أجزاء)، وفي كتاب: "أنتم الناس أيها الشعراء"، كما شارك الأديب التونسي الحبيب شيبوب في تأليف كتاب: "صلة الرحم الفكرية بين أقطار المغرب العربي الكبير"، وبمشاركة المؤرخ التونسي محمد الصالح المهيدي كتب عن أقطاب الفكر المغربي على الصعيد العالمي وغيرها من الأعمال المشتركة؛ ومن أعماله النثرية: نحو مجتمع أفضل، وست سنوات في سجون فرنسا، وحواء المغرب العربي الكبير في معركة التحرير وقاموس المغرب العربي الكبير (في اللهجات المغربية)، وعوائق انبعاث القصة العربية، وقصة اليتيم في يوم العيد، والجزائر بين الماضي والحاضر، وأضواء على وادي ميزاب، والكتاب الأبيض، وغيرها.

منابع ثقافة زكرياء والروافد التي استقى منها:

- ✓ القرآن الكريم؛
- ✓ التراث العربي الإسلامي؛

- ✓ البيئة المحافظة؛
- ✓ التحدي الاستعماري لاجتثاث المجتمع الجزائري من ثوابته ومقوماته.

حيث إنّ المطلع على آثار مفدي زكريا، خاصة منها قصائده الشعرية يدرك بجلاء أثر المصادر الدينية الإسلامية فيها، خاصة تأثير القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، والتاريخ الإسلامي الحافل بالأمجاد والبطولات؛ كما أن آثار مفدي الأدبية، لا تخلو من معانٍ فلسفية تتجلى في الفكرة العميقة والحجة القوية، والنقد الجريء، ناهيك عن الرؤية الشاملة في تناول الموضوعات مما ينم عن عبقريته المتفردة. إلى جانب هذا فإن آثار مفدي مملوءة بالتوجيهات التربوية؛ وكانت الأخلاق هي معجزة البرايا كما يراها شاعرنا مفدي زكرياء[4]، ويكمن ذاك في الفضائل من خير، وحق، وجمال وعدالة وحرية[5]، فآثاره وشعره بالأخص يعد مدرسة لتربية الأجيال، تبث القيم النبيلة الداعية للتشبث بالأصالة والروح الوطنية، والسعي للذود عن الدين والوطن.

إلياذة الجزائر: كتب شاعر الثورة مفدي زكرياء رائعته: "إلياذة الجزائر"، وألقاها لأول مرة في جلسات الملتقى السادس للفكر الإسلامي المنعقد في قصر الأمم بالجزائر العاصمة في شهر جويلية 1972، حيث "أنشد مفدي بصوته ستمائة وعشرة أبيات من الإلياذة، وذلك في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي في قاعة المؤتمرات –قصر الأمم- نادي الصنوبر يوم 24 يوليو 1972م، وبعد ذلك واصلت الإلياذة مسيرتها[6]"، إذ في السنة نفسها صدرت الإلياذة في واحد وستين (61) مقطوعة، تضم ست مائة وأحد عشر (611) بيتا وفي السنة الموالية (1973م) صدر نصها الكامل في مائة (100) مقطوعة، تضم ألف بيت وبيتا (1001) من الشعر، أي واصل زكريا نظمها إلى أن بلغت الواحد بعد الألف؛ كتبها الخطاط الأستاذ: عبد المجيد غالب، وكتب تقديمها المرحوم الأستاذ: مولود قاسم نايت بلقاسم الذي كان وزيرا للشؤون الدينية آنذاك وكانت له مساهمة فعالة في ميلاد الإلياذة بما كان ينفح به زكرياء من حقائق

التاريخ ليصوغها شعرا نابضا بالحياة، بالاستعانة بالمؤرخ التونسي الكبير عثمان الكعاك؛ ثم توالى من بعد صدور طبعات مصورة طبقا لأصل طبعة سنة 1973م، وذلك في السنوات التالية: (1986م، 1987م، 1992م، 1995م 2001م، 2002م). وتعتبر هذه الإلياذة رائعته الخالدة، وهي قصيدة مميزة طويلة، تروي تاريخ الجزائر في قالب شعري منذ سنة 300 قبل الميلاد إلى تاريخ نظمها. وقد أطلق عليها هذه التسمية السيد مولود قاسم مصرحا بقوله: "وسميناها إلياذة الجزائر، وإن كانت تمتاز عن إلياذة هوميروس بالفارق العملاق، فبينما هذه الأخيرة أي الإلياذة اليونانية تروي الأساطير، نجد الإلياذة الجزائرية قد خلدت أمجادا حقيقية، وسطرت تاريخ وقائع وأحداث هي من روائع الدهر لا من خلق الجن، ولا من اصطناع شاعر، ولكن من صنع الإنسان الجزائري في الميدان [7]".حيث ترجمت لنا الإلياذة عقليات وموضوعات تلك الفترة وحملت لنا تاريخها بوصفها لطبيعتها، وحروبها، وحضارتها بكل ما تحتويه.

موضوع الإلياذة: إن موضوع الإلياذة هو الجزائر بطبيعتها، وعمرانها وتاريخها القديم والحديث، وأبياتها تنقسم إلى موضوعات جزئية تحددها المقاطع، وهي كالآتي [8]:

- 1- طبيعة الجزائر وعمرانها: وهي تستغرق تسعة عشر (19) مقطعا.
- 2- تاريخ الجزائر القديم من قبل الميلاد إلى بداية الاحتلال الفرنسي: تستغرق خمسة عشر (15) مقطعا.
- 3- مقاومة المستعمر ابتداء من الاحتلال إلى قيام الثورة المسلحة سنة 1954م: وهي تستغرق ستة عشر (16) مقطعا.
- 4- الثورة المسلحة إلى الاستقلال من 1954م إلى 1962م: وهي تستغرق خمسة عشر (15) مقطعا.

❖ 5- ثورة البناء واسترجاع الاستقلال: وقد خصّ لها خمسة وثلاثين (35) مقطعا.

وكما أشرنا فإنّ كل هذه الأجزاء تتمحور حول موضوع واحد كلي هو: "الجزائر"، مضمونها ملحمي يحكي قصة الشعب الجزائري، وكفاحه ضد الاحتلال الأجنبي باختلاف أنواعه وشتّى أزمانه، تعبر عن الجماعة وتصور الأحداث الجماعية، وحتى في تناولها فردا معيّنا يكون الهدف البعيد الجماعة التي ينتمي إليها. والذي نلمسه من خلال اطّلاعنا على أسلوب الشاعر أنه ابتعد عن أسلوب السرد القصصي، ووقع في أسلوب الوعظ والإرشاد، وخاصة عند حديثه عن المشاكل الاجتماعية بعد الاستقلال، وهذا ما يقلل من قيمة العمل الملحمي.

الخصائص الملحمية في إلياذة الجزائر: يمكن تقسيمها إلى العناصر الآتية [9]:

➢ **1- العنصر القصصي**: وقد بدا باهتا على الرغم من المجهودات المبذولة من قبل الشاعر لإنجاحه، والسبب كما يلاحظ هو الاختصار بالنسبة للموضوع المتناول، فقد تطرق زكرياء إلى تاريخ الجزائر "من القرن الثالث قبل الميلاد إلى العقد السابع من القرن العشرين [10]" وهذا لا يتأتى في هذه العجالة من الأبيات إلا لشاعر بارع مقتدر حقا.

➢ **2- الموضوعية**: وقد تجسدت بصورة عامة في الإلياذة، وذلك بتناولها تاريخ الجزائر وأبطاله، ولم يكن هذا العنصر مطبقا من بداية الإلياذة إلى نهايتها، إذ نسجل بعض التداخلات من قبل الشاعر ليتكلم عن نفسه.

➢ **3- الخوارق**: لا نلمس هذا العنصر كطابع عام في إلياذة الجزائر وذلك لالتزامها الدقة التاريخية وحتى خوارق الأعمال التي يقوم بها الأبطال والمجسدة في الوصف الطبيعي، وهي لا تخرج عن حرفية التاريخ ولا عن

التخطيط الجغرافي، أما الخوارق المعهودة في الأعمال الملحمية فلا نكاد نعثر عليها إلا في إشارات عابرة كما جاء ذلك في قوله في أثناء حديثه عن المدينة:

مَلاَئِكَةَ اللهِ هَلْ نَقلُوهَا   أَجَل مَنْ رَأَى حُسْنَهَا صَدَقَا

وفي إشارة أخرى من هذا النوع قال في حديثه عن جمال تلمسان [11]:

أَفِي رَفْرَفِ الْخُلْدِ؟ قَدْ وَجَدُوا   تِلِمْسَان...فَاخْتَطَفُوهَا اخْتِطَافا؟؟؟

➢ **4- البطولة**: وقد تمثلت في الإلياذة أحسن تمثيل، وهي بطولة متطورة تساير مقتضى الحال، بالإضافة إلى أنها بطولة اجتماعية لا فردية.

➢ **5- العنصر الديني**: وهو من الركائز الأساسية المعتمدة في إلياذة الجزائر، وإذ كان الدين في إلياذة هوميروس متمثلا في تعدد الآلهة، فإن الدين في إلياذة مفدي هو الدين الإسلامي، وأصدق مثال على ذلك مطلع الإلياذة [12]:

جَزَائِرُ يَا مَطْلَعَ الْمُعْجِزَات   وَيَا حُجَّةَ اللهِ فِي الْكَائِنَات

ويمكن تتبع ذلك بالتفصيل من خلال الألفاظ الدينية التي تواجدت بشكل مطّرد جدا في جلّ أشعاره، وفي إلياذته خاصة، فكيف كان هذا التأثر؟ وما هي الآيات التي اقتبس منها؟

تأثره بالقرآن الكريم في تأليف الإلياذة: يستخدم مفدى زكرياء أسلوب الاقتباس من الآيات القرآنية، وهي سمة مميزة لشعره تشهد بقدرته على الاستقاء من هذا النبع الفياض الذي نعرفه لدى الشعراء الذين حفظوا كتاب الله، واستوعبوا التراث اللغوي والتعبيري في الأدب العربي بما وهبوا من طاقة شعرية، ويظهر ذلك في مدى توفيقه في استخدام ألفاظ من كتاب الله في رائعته: "إلياذة الجزائر" في عدة أبيات منها، وذلك في مثل قوله [13]:

وَيَلْتَفُّ سَاقٌ بِسَاقٍ، فَنَصبُو   فَيَغْمُرُنَا مُلْتَقَى الفِكْرِ نُصْحَا

حيث تأثر في هذا البيت بقوله تعالى: **(وَالْتَفَت السَّاقُ بالسَّاق إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاق)** (القيامة: الآية 29).

وقال [14]:

فَيَخْجَلُ هَامَانُ مِنْ صَرْحِهِ   وَيَعْجَزُ أَنْ يَبْلُغَ الْمُشْتَهَى

تأثر بقوله عزّ وجلّ: **(وَقَالَ فِرْعونُ يَا هَامَان ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِي أَبْلُغُ الأَسْبَاب)**" (غافر: الآية 36).

وقال كذلك في إلياذته [15]:

وَسَبَّحَ للّه مَا فِي السَّمَا   وَاتِ، وَالْأَرْض، مِلْءُ شَفَائِف شَفَا

حيث أخذ هذا من قوله سبحانه وتعالى: **(سَبَّحَ للّه مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)** (الحشر: الآية 1).

وهو كذلك من قال [16]:

وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا   فَطَارَ بِهَا العِلْمُ ...فَوْقَ الخَيَال

حيث اقتبس من قوله تعالى: **(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا)** (سورة الزلزلة: الآيتان 1 و2).

وقال أيضا [17]:

وَأَوْقَفْتُ رَكْبَ الزَّمَانِ طَوِيــــلاَ   أُسَائِلُهُ عَن ثَمُودَ ..وَعَاد

وَعَنْ قِصَّةِ الْمَجْدِ ...مِنْ عَهْدِ نُوحٍ   وَهَلْ إِرَمُ ...هِيَ ذَاتُ الْعِمَادِ؟

حيث نرى هنا أثر الاقتباس واضحا وجليا من قوله تعالى في سورة الفجر: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَاد إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يخلَقْ مِثْلها فِي الْبِلاَدِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)** (الفجر: الآيات: 9/8/7/6).

وقال كذلك متأثرا بقوله تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة)** (سورة القيامة: الآية 22) [18]:

وَفِي قُدْس جَنَّاتُنَا النَّاضِرَة   وُجُوهٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة

وقال كذلك مقتبسا من قوله جل وعلا من سورة يوسف: **(وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ)** (يوسف 43) [19]:

يَغْمُرُ أُسُنَ الشَّهْمِ ضَاقَ اصْطِبَارَا   وَغَالب خَمْسِينَ عَامًا عِجَافَا

وقال أيضا [20]:

وَتغْرِي الْكَرَاسِي ضِعَافَ الْعُقُولِ   كَنَارِ جَهَنَّمَ، تَرْجُو الْمَزِيدَا

حيث تأثر هنا بقوله تعالى: **(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ اِمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيد)** (سورة ق: الآية 30).

وهو من قال [21]:

وَذَوبُ الْعَرَاجِنُ فِي صَدْرِهَا   عَلَى لَحْنِ جَدْوَلِهَا السَّلْسَبِيل

متأثرا بقوله تعالى: **(عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً)** (سورة الإنسان: الآية 18).

وقال [22]:

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيْلَةَ قَدْرِ   وَأَلْقَى السِّتَارَ عَلَى أَلْفِ شَهْرِ

حيث تأثر بقوله سبحانه وتعالى: **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)** (سورة القدر: الآيات: من 1 إلى 5).

وقال كذلك متأثرا بقوله تعالى من سورة البقرة: **(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لاَ يَعْقِلُون)** (البقرة: الآية 171) [23]:

وَكَانَ الْفَرَنْسِيسُ صُمًّا وبُكْمَا   وَعُمْيَا، فَأَصْغَى لَنَا منْ تمَارى

وقال أيضا متأثرا بقوله تعالى من سورة الرحمن: **(سَنَفْرُغُ لَكُم أَيُّهَا الثَّقَلاَن)** (الرحمن: الآية 22) [24]:

سَلاَمٌ عَلَى الْبَغْلِ، يَعْلُو الْجِبَالَ   ثَقِيلاَ، فَيُكْبِرُهُ الثَّقَلاَن

وقال كذلك مقتبسا من قوله تعالى: **(وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً)** (سورة الأنعام: الآية 116)، ومتأثرا بقوله عزّ وجلّ: **(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةَ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَة)** (سورة الواقعة: الآيتان 1 و2) [25]:

وَتَمَّتْ بِهَا كَلِمَاتُ الْإِلَهِ   الَّتِي وَقَعَت بِاسْمِهَا الْوَاقِعَة

وقال [26]:

مَنَارَاتِ عِلْمٍ بِعَرْضِ الْبِلاَد   فَفِي كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ مَنَارَة

حيث اقتبس متأثرا بقوله تعالى: **(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيق)** (سورة الحج: الآية 27).

كما قال مفدي في إلياذته [27]:

وَأَلْقَيْتُ فِي السَّاحِرِينَ عَصَا ... يَ، تَلْقَفُ مَا يَأْكُلُونَ بِسِحْرِي

إذ تأثر بقوله تعالى: **(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْكُلُونَ)** (الشعراء 45).

وقال [28]:

وَقَالُوا هَجَرْتَ رُبُوعَ الْبِلاَدِ ... وَهِمت مَعَ الشُّعَرَاءِ فِي كُلِّ وَادِي

متأثرا بقوله تعالى: **(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُم الْغَاوُون، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُون)** (سورة الشعراء: الآيات: 224، 225، 226).

وكذلك هو يقول [29]:

وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ... وَضَجَّ لِغَاصِبِكَ النَّيرَان

حيث يبدو هنا متأثرا بقوله تعالى: **(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا)** (سورة الزلزلة: الآية 1).

ومن هنا نستنتج أن ثقافة مفدي زكرياء الدينية العربية قد صقلت موهبته، وأثرت على أسلوبه، فألفاظ القرآن الكريم والشعر العربي مجسدة في شعره مميزة لأسلوبه، وهو دليل على أنّ الثورة قامت على قيم ومبادئ إسلامية فكرا، وسلوكا وممارسة، وقد التزم مفدي زكريا بهذه الأخلاق، ورصد الإيقاع الإنساني لشعب ثائر ونبض حيّ يتطلع إلى الحرية والتحرر؛ حيث تشبع شاعرنا بالمبادئ الأخلاقية والقيم العليا من بيئته الدينية المحافظة، فتشرب العلم، والدين، والتربية الصحيحة، إضافة إلى تربيته الإبداعية المثلى التي انطبعت في نفسه فبزغ شاعرا مترفعا متساميا عن الدنايا والخطايا، حيث كان للتعلّم دور في تنمية إحساسه الجمالي، وفي إذكاء علمه وفكره.

1- ينظر مفدي زكريا، اللهب المقدس، ومحمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضـــال والثورة ص 7. ويحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا – دراسة فنية تحليلية – ص 38/ 39.

2- شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء في أحضان تونس – http://www.alhiwar.net.

3- ينظر: حواس برّي، شعر مفدي زكريا –دراسة وتقويم- الجـزائـر: 1994م، ديـوان المطبوعـات الجـامعية، ص35- 39- 50-51.

4- ينظر: مصطفى عبده، مقدمة في فلسفة الأخلاق، ط 2. القاهرة 1999، مكتبة مدبولي، ص 22.

5- فايزة أنور أحمد شكري، القيم الأخلاقية بين الفلسفة والعلم، مصر: 2002، دار المعرفة الجامعية، ص82 ، 89.

6- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المقدمة، ص 12.

7- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المقدمة، ص 12.

8- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا – دراسة فنية تحليلية – ص 209.

9- نور الهدى لوشن، إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء –دراسة دلالية–، رسالة دكتوراه، الجزائر: 1990، ص 55، 56.

10- يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء – دراسة فنية تحليلية – ص 249.

11- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، الجزائر: 1987، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص51.

12- نفسه، ص 19.

13- مفدي زكريا، ص 26.

14- نفسه، ص 32.

15- نفسه، ص 34.

16- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص 36.

17- نفسه، ص 37.

18- نفسه، ص 46.

19- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص 53.

20- نفسه، ص 65.

21- نفسه، ص 75.

22- نفسه، ص 69.

23- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص 80.

24- نفسه، ص 81.

25- نفسه، ص 83.

26- نفسه، ص 113.

27- مفدي زكريا، إلياذة، ص 115.

28- نفسه، ص 117.

29- نفسه، ص 118.

دراسة وصفية تحليلية تقويمية لكتاب السنة الخامسة من الطور الابتدائي. -كتابي في اللغة العربية-

إعداد: قرج أوريدة
جامعة تيزي وزو

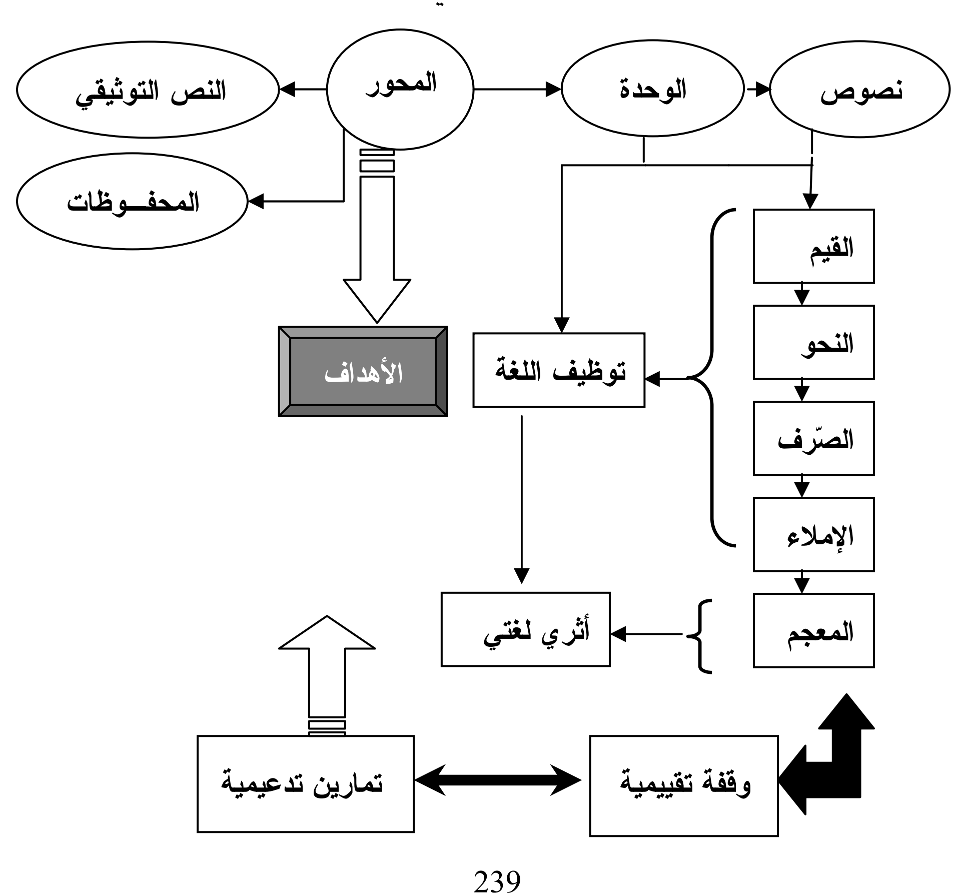
مقدمة: تعدُّ اللغة بالنسبة لأيّة أُمّة قلبها النابض الذي تحيا به، فهي الأساس في نشوء العلاقات الإجتماعية وتحقيق التواصل الفعال بين أفرادها، وفي ذلك إثبات لشخصيتها وضمان لوجودها بين سائر الأمم الأخرى، ولمّا كانت كذلك، فإنّ أمرَ العناية بها يعدّ ضمن أولى الأولويات، وخاصة إذا علِمنا أنّ نجاح سياسة تجذير اللغة في صلب رحم أهلها، يبدأ مع أضعف مرحلة وأعقدها على الإطلاق، ألا وهي مرحلة الطفولة التي يمرّ بها الإنسان، ذلك أنه يولد صفحة بيضاء لم يكتسب بعد لغة هويّته الحقيقية، ومن أجل ذلك؛ تلعب المدرسة إلى جانب المحيط الأسري والإجتماعي دورا لا يستهان به في مسار إدماجه كمواطن مثقف ناطق بلغة وطنه ومتشبع بالمبادئ والقيم الإنسانية، إذ تمثّل نقطة تحوّل بالنسبة للطفل وانتقاله إلى عتبة التعلّم وبداية تعامله مع الآخرين، واكتشاف ذاته وقدراته وفق ماتُوفّره المدرسة كجهاز تعليمي إشرافي توجيهي، ولعل أهم ما يربط الطفل بهذا الوسط الجديد في المرحلة الأولى من تعلّمه (الابتدائي)، هو احتكاكه المباشر بالمعلّم وبالكتاب المدرسي الذي يحتل الصدارة في قائمة الوسائل التعليمية المسخّرة للتعلّم من حيث الأهمّية والمردود والتعليمي، كونه يمثّل حلقة وصل بينه وبين المعلّم من جهة والمحتوى التعلمي المبرمج من جهة أخرى.

لمّا كان الكتاب المدرسي بهذا القدر من الأهمية، فلا بدّ أن يكون المحتوى والرّصيد اللّغوي الموظّف فيه مناسب لهذه المرحلة الحسّاسة من التّعلم وفقا لما ينسجم والحاجة التبليغية للطفل، وما يتناسب وبيئته الإجتماعية التي لاتنفك تتاثّر بما يُستجد من المعطيات الحضارية، وعليه؛ أردت إنجاز دراسة حول الكتاب المدرسي الخاص باللغة العربية والموسوم بـ " **كتابي في اللغة العربية** " متّخذة بذلك السنة الخامسة نموذجا للمعاينة باعتبارها آخر سنة في سلم هذا الطور، وكان هدفي من وراء ذلك؛ تقييم نسبة ملاءمة الرّصيد اللغوي الموظّف فيه لمستوى المتعلّم الجزائري المنتمي لهذه المرحلة، ومدى مساهمته في نماء معجمه الخاص، خصوصا إذا ما علمنا بالتّنوّع اللغوي الذي تعرفه البيئة الجزائرية، وحتّى تكتسي هذه الدراسة المصداقية العلمية التي تستحقها قدر الإمكان، عمدت إلى تتبّع الانشغال المطروح فيها من خلال وصف وتحليل وتقويم الرصيد كما هو قار في هذا الكتاب بغضّ النّظر عمّا قرّر في الرّصيد الوظيفي لهذه المرحلة، مادام السعي إلى التماس الحقيقة من الميدان هو نقطة الفصل في ذلك، عبر توزيع بعض ما أُتيح لي توزيعه من الاستبانات لمعلّمي هذا الطور باعتبارهم الأكثر دراية بمدى تجاوب المتعلّمين مع المحتوى واستثمارهم للرّصيد المبرمج.

1/ وصف عام للكتاب: إنّ هذا الكتاب المدرسي الموسوم بـ: "**كتابي في اللغة العربية**" قد بُرمِج لتلاميذ السنة الخامسة من التعليم الابتدائي، ويصدر ضمن سلسلة رياض النصوص، وقد أشرف على تأليفه - شريفة غطّاس- (أستاذة التعليم العالي) بمساعدة مؤلّفيْن آخريْن وهما: - مفتاح بن عروس- (أستاذ مكلّف بالدروس) و- عائشة بوسلامة- (معلّمة) في حين قام بالتصميم والتركيب والمعالجة والإخراج كلّ من: _فوزية مليك، زهية يونسي، كريم حموم، ويوسف قاسي واعلي- وقد تولى إصدار الطبعة الأولى لهذا الكتاب 2007- 2008 الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية بعد المصادقة عليه من قبل

لجنة الاعتماد والمصادقة للمعهد الوطني للبحث في التربية (وزارة التربية الوطنية) طبقا للقرار رقم294/ م.ع/2007 المؤرّخ في 04 مارس 2007م، ولقد عرف هذا الكتاب كغيره من الكتب المدرسية الخاصة بالأطوار الأخرى هيكلة جديدة من حيث المنهاج ونوعية المحتوى في إطار عجلة الإصلاح التي عرفتها المنظومة التربوية بهدف تحسين مستوى أداء المدرسة الجزائرية.

ولقد استعرضت الصفحات الأولى من الكتاب طريقة استخدام الكتاب من باب التعريف بالمنهجية المعتمدة فضلا عن إثرائها بصور ورسومات كمنطلق توجيهي وتدعيمي تساعد المتعلّم على حسن استثماره للكتاب، ثمّ يليه التوزيع السنوي الخاص بالمحتوى التعليمي، وقد تضمّن هذا الأخير عشرة محاور تتوزع على امتداد صفحات الكتاب وفق النحو الآتي:



2) وصف وتحليل لمحتوى الرصيد اللغوي المبرمج في الكتاب: إنّ وحدات محتوى هذا الكتاب تستهدف بلورة كفاءات التلاميذ وإظهار مهاراتهم في القراءة والكتابة والتعبير بنوعيه الشفهي والكتابي، والتمكّن من توظيف اللغة بمستوياتها المختلفة (المستوى النحوي والصرفي والمعجمي والدلالي) توظيفا سليما يتيح له سهولة التواصل مع محيطه ومجتمعه والاندماج مع العصر، باعتباره كائنا اجتماعيا، وهذا هدف أساس من عملية التعلّم، وربّما أفضل تعريف يمكن أن يقدم للتعلّم في هذه المرحلة هو «مساعدة الطفل على خوض غمار الحياة في المستقبل، بالتدريب والممارسة، والتوجيه السّليم» [1]، ويشكّل الكتاب المدرسي أحد فضاءات تحقيق ذلك بل ويعدّ «الإناء الذي يحوي المادة التعليمية التي تعمل على تغيير سلوك المتعلّم،... وأهميته تكمن في أنه يقدّم للمتعلّمين المواد الدراسية بشكل مبسّط وممنهج لتحقيق أهداف المنهاج، أضف إلى ذلك ما يوفره من الحد الأدنى من المعارف والمعلومات والخبرات لكلّ معلّم في مستوى دراسي معيّن، ووظيفته تتجاوز تأسيس عادات القراءة والمطالعة إلى إنماء الميل للتّثقيف الذاتي» [2] وانطلاقا من هذا التعريف، وبعد تفحّص محتوى الكتاب وعلى هدي المخطط السابق، ارتأيت تقديم وصف لمضمون (رصيد) كل نشاط وإتباعه بالتحليل، واعتمدت في ذلك التقسيم الذي أتى عليه في الكتاب وذلك عبر الجداول التالية:

●**الجدول الأوّل/ نصوص القراءة:** (ما يمكن أن يكتسبه من قيم):

عناوين محاور المحتوى	**مواضيع نصوص القراءة**	**القيم المدرجة لها في الكتاب**
القيم الإنسانية	_ رسالة سلام _ الوعد المنسي(1) _ الوعد المنسي(2)	_ احترام رأي الآخر _ احترام الوعد _احترام الحقوق والواجبات
العلاقات الاجتماعية	_ رأفة الفقراء _ الأصدقاء الثلاثة _ النّمل والصرصور	_ التضامن مع الضعفاء _ قيمة العمل والاجتهاد _ قيمة التّبرّع
الخدمات الاجتماعية	_ فوكس والحماية المدنية _ حارس الليل والغزال _ قصة قرية	_ قيمة الخدمة الاجتماعية _ روح التضامن والتضحية _ روح التعاون والتآزر
التوازن الطبيعي والبيئة	_ قصة الحيتان الثلاثة _ بين التمساح والطيور	_المحافظة على البيئة البحرية _ المحافظة على البيئة الحيوانية _ المحافظة على الماء
الهوية الوطنية	_ عاصمة بلادي الجزائر _ من تقاليدنا _لوحات من صحراء بلادي	_الاعتزاز بالتّراث الثقافي المعماري _ الاعتزاز بالصحراء _ الاعتزاز بالتقاليد الوطنية

الصحة والرياضة	_ سبانخ بالحمص _ ابن سينا الطبيب الماهر _ رامي بطل السباحة والغطس	_ التعامل الإيجابي مع التغذية _ التعامل الإيجابي مع الأدوية _ الرّوح الرياضية والتنافس الإيجابي
غزو الفضاء والاكتشافات العلمية	_ كوكب الأرض _ الأقمار الاصطناعية _ إسحاق نيوتن والأرض	_ التحسيس بالخطر على طبقة الأوزون _ التفاعل الإيجابي مع الاختراعات العصرية
الحياة الثقافية والفنيّة	_ حفلات عرس _ في مهرجان الزهور _ مسرح عرائس الجراجوز	- الاعتزاز بالتراث الثقافي(أعراس، مهرجانات) _ التفاعل الإيجابي مع الفنّ المسرحي والسينمائي
الصناعات التقليدية والحرف	_ النفخ في الزجاج _ تصنعان من الطين تحفا	_ الاعتزاز بالحرف المحلية وإعادة الاعتبار لها
الرحلات والأسفار	_كريستوف كولومبس مكتشف أمريكا. _ مع ابن بطوطة في رحلته إلى الحجّ.	_ التّفتّح على العالم _ إثارة الفضول وحبّ المغامرة

يتّضح من خلال الجدول أن هذه النصوص المقدمة لمتعلّم هذه المرحلة والخاصة بنشاط القراءة تنوّعت بتنوّع القيم التربوية المستهدفة فيها، _والتي هي ضمن الأهداف المسطّرة_ قصد غرسها في شخصيّته، لكن الملاحظ بعد قراءة وتتبّع معاني هذه النصوص ومقارنتها بالقيمة التي تمّ وضعها لكلّ نصّ، عدا بعضها التي تشترك في نفس القيمة المستهدفة، تبيّن وجود بعض الهنات أو المآخذ في بعضها، ومن مظاهر ذلك: تحميل النّص قيمة غير التي يحملها في الأصل، أو بتعبير آخر؛ إدراج نصوص غير مناسبة لحمل القيمة المبرمجة ضمن الأهداف التربوية، ومن أمثلة ذلك ما أدرجناه من خلال الجدول التالي:

النص	القيمة المدرجة	القيمة المحتملة والمعبرة للنص
• الوعد المنسي (1) الوعد المنسي (2)	_ احترام الوعد _احترام الحقوق والواجبات	_ بعد قراءة النّص المكوّن من جزأين والتمعّن فيه، تبيّن أنّ كلّ النّص يخدم القيمة الأولى أكثر باعتبارها الأقوى لأنّ في احترام الوعد التزاما بالحقوق والواجبات
الدليل من النص	الجزء الأول من النص (أرجو أن تعدوني...أن تعتنوا بأخيكم الأصغر ولا تتركوه وحيدا أبدا... قال الأبناء...أبدا أبدا، لن نترك أخانا الأصغر وحيدا...وقبل أن تموت [الوالدة] ذكّرت ولديها بوصيّة أبيهما فوعداها بذلك) الجزء الثاني من االنّص :(قال لها الأخ الأكبر بحزن ... لن يعود أبدا إلينا، لأنّ الذئاب اعتنت به و... ولم تتركه وحيدا، بكت الأخت، وتذكّرت الوعد الذي أعطته لأبيها وأمها)	

• **النملة والصرصور**	_ قيمة التبرّع	- الحفاظ على الكرامة أو- الحرية تؤخذ ولا تعطى
الدليل من النص	- (لكنّه لم يقُل للنمل شيئا بل بقِي محتفظا بكرامته وانسحب إلى وكره، ...أرسلت[ملكة النمل] وفدا إلى الصرصور ترجوه أن يغني ليبثّ النشاط في حركة النمل وتقدم له بالمقابل طعاما لكل شتاء، ... في إحدى المرات أراد أن يغنّي أغنية خاصة به، لكنّ ملكة النمل أمرته إن يغني غناء العمل فقط، حينئذ قال الصرصور: أنا لست عبدا لها، فقال الحارس: بل أنت عبد، وعليك أن تنفّذ ما تريده الملكة منك...صرخ [الصرصور] بأعلى صوته: أنا لست عبدا لملكتكم، أغانيّ أغنّيها متى شئت وكيفما شئت، أخبر ملكتك أنني اعرف كيف أجمع مؤونتي).	
• **بين التمساح والطيور**	- المحافظة على البيئة الحيوانية	_ في النّص حديث عن نمط حياة التمساح وخطورته وطريقة تعايشه السلمية مع الطيور لكن الحيوانات ليست دائما في حالة صداقة. لذا ليس هناك إشارة حول طريقة الحفاظ على هذا الصنف من الحيوانات في قالب قصصي مثل قصة الحيتان الثلاثة.

الدليل من النص	(كان التمساح... يظهر نائما، فإنّ عينيه تحرسان كل النهر، وهو مستعد للانزلاق في الماء بهدوء نحو كل حيوان ... فيقبض عليه بأنيابه القوية،...حينما يولد تمساح صغير، فإنهم[التماسيح] يتركونه لحاله،...فجأة رأى [التمساح الصغير] طيورا تحط على ظهر التمساح الكبير، ... قال التمساح الصغير: سيلتهمها... لكن التمساح الكبير فتح فمه الضخم ولم يدر رأسه وبقي بدون حركة...غير أن الطيور لم تشعر بالخوف وتقدّمت إلى فم التمساح وبدأت تنقر هنا وهناك بين أسنانه... بقي فم التمساح الكبير مفتوحا، والطيور تُنظّف أسنانه وتلتقط ما علق بينها من فضلات اللحم، فينشرح لها التمساح... قال التمساح الصغير: إذا الطيور أصدقاؤنا ولكن ... رأى فجأة طائرا ضخما يتقدم نحوه بسرعة ... وعرف أن الطيور ليست كلها أصدقاء)

- **توظيف اللغة (النحو، الصرف، الإملاء، المعجم):** سنعرض في الجداول الآتية مجمل ما أدرج في الكتاب مما تناوله هذا العنصر من أنشطة وظيفية مستمدّة من النصوص السابقة، أو ما يعرف بالمقاربة النصية التي « تقوم...على جعل النص محورا تدور حوله مختلف الفعاليات اللغوية ولذلك فإن النص يشكل دوما نقطة انطلاق الأنشطة اللّغوية الأخرى، فهو يتناول موضوعا يقرؤه المتعلم ثم يمارس من خلاله التّعبير الشّفهي والتواصل ويتعرّف على كيفية بنائه كما يتلمس من خلاله القواعد النحوية والصرفية والإملائيّة ليتوصل إلى إنتاج نصوصه الخاصّة... وهكذا تبرز العلاقة الوطيدة بين القراءة والكتابة فلا

يمكن تحقيق كفاءة القراءة بدون التدريب على إنتاج النّصوص »[3] وذلك ما سوف تُظهره هذه الجداول:

توظيف اللغة	القواعد النحوية المدرجة:	طريقة تقديم النشاط في الكتاب
1)- **النحو:**	- الجملة وأنواعها = الجملة الإسمية (الخبر جملة، الخبر شبه جملة). = الجملة التعجّبية= الجملة الاستفهامية. - النّداء، خبر "كان" (مفردا، جملة، شبه جملة). - خبر " إنّ" (مفرد، جملة، شبه جملة). - الصّفة، الحال (جملة، شبه جملة)، التمييز. - أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة، الاستثناء. - المفعول فيه، المفعول لأجله، المفعول معه، المفعول المطلق. - التوكيد اللفظي، التوكيد المعنوي. - الأفعال الخمسة، إعراب الفعل المعتل.	- تعريف الظاهرة المراد تدريسها للمتعلمّ من خلال استخدام عبارة **(أتعرّف على)** بالخط العريض وباللون الأخضر مثل: **أَتَعرَّفُ على الخبر جُملة،** - إدراج مقطع من نصّ القراءة واستثماره في تعيين الظاهرة النحوية، ومن أجل شدّ انتباه المتعلّم إلى النّص، تمّ توظيف عبارة **(أُلاحِظ)** بالخط العريض وباللون الأحمر مع تدعيم النّص برسومات معبّرة عن دلالته. _ تعيين الجمل المقصودة بلون مغاير (الوردي) - استخلاص حكم القاعدة الخاصة بتلك الظاهرة مع استثمار الألوان في تبيانها مع استخدام كلمة (أتذكّر) _ وضع تدريبات متنوعة لدعم النشاط، مثل: أكمل الجمل..

		عيِّن الخبر، اضبط الجمل بالشكل...الخ
2)- **الصرف**	_ الصيغة_ المجرّد والمزيد_ الفعل الصحيح _ الفعل المعتل_ الفعل المثال_ الفعل الأجوف_ الفعل الناقص_ الفعل اللّفيف _ الفعل الجامد_ الفعل المشتق_ الاسم الممدود_ الاسم المقصور _ جمع التكسير_ النّسبة_ علامات التأنيث _ في الأسماء_ تصريف الفعل [الأجوف] .	- تمّ الاعتماد في هذا النشاط على نفس الطريقة الأولى من حيث توظيف العبارات المفاتيح أو في استخدام الألوان عدا الرّسومات فهي غائبة.
3)- **الإملاء**	_ الشّدّ _ الهمزة على الألف في وسط الكلمة_ الهمزة على الواو في وسط الكلمة_الهمزة على النّبرة_ الهمزة في آخر الكلمة_ همزة القطع _ همزة الوصل_ الهمزة المنفردة_ اللاّم المتّصلة بالأسماء المعرّفة_ " ما " الاستفهامية مع حروف الجر _ حذف	_ تمّ الاعتماد كذلك على نفس الطريقة في التقديم من ناحية الإجراءات المسخّرة فيه، لكنّ الفرق الذي يميّز هذا النشاط عن النشاطين السابقين هو توظيف عبارة **(أكتب جيِّدا)** والتي تعبّر عن كيفية الكتابة الصحيحة للظواهر الإملائية.

	النون من الأسماء المضافة_ زيادة الألف في الماضي _.	
4)- المعجم	_ التعامل مع القاموس- البحث في القاموس- الترادف- الاشتقاق- التضاد- الرصيد الخاص بالحماية المدنية- الترادف في الصفات- الرصيد الخاص بعمل الكشافة- توظيف الاشتقاق_ الرصيد الخاص بـ :البحار_ المعالم الأثرية_ الاحتفالات الوطنيّة والأيّام الوطنيّة_ الصّحراء_الأطباق المحلّية والعالمية_ الميدان الطّبي_ التعامل مع القاموس_ التعرف على: الكواكب_ الأقمار الصناعية_ بعض العلماء_ الرصيد الخاص بـ: الأعراس_ عالم الأزهار_المسرح والسينما_ حرفة الزجاجي _ الخزف_ الرحلات_ عالم البحارة.	_ إنّ هذا النشاط تدلّ عليه عبارة **(أُثري لغتي)**، _ الانتقال مباشرة إلى التدريب من خلال البحث في القاموس أو عبر تدريبات تطبيقية تُعين على إثراء الرّصيد الخاص بالمتعلّم من خلال ماتمّت برمجته في الكتاب من الرصيد الوظيفي الخاص بمستوى هذه المرحلة.

إنّ ما يمكن ملاحظته من خلال هذا العرض هو الاعتماد على وحدة الطريقة في كيفية هيكلة محتوى الأنشطة وفي طريقة تقديمها كذلك وفقا للمنهاج الجديد، إلاّ أنّ اللافت للنظر هو غياب تسمية كل نشاط بمصطلحه المعروف في هذا الكتاب، والاكتفاء بذكر ماقرّر فيه فقط، خاصة مع نشاطي النحو والصرف حيث نلاحظ توظيف نفس عبارة **(أتعرف على)** في كليهما دون وضع حدود فاصلة بينهما مما قد يوقع التلميذ في اضطراب نتيجة هذا الالتباس، خاصّة إذا لم يتلقّ توجيها مسبقا ومعرفة كافية بكيفية استعماله لهذا الكتاب.

• **المشاريع الكتابية والمحفوظات:** تعدّ المشاريع الكتابية تمثيلا لمسعى المقاربة الجديدة القائمة على إدماج مكتسبات المتعلّمين من خلال ما حصّله على مدى العام وعبر ما قُرّر في المادة التعليمية الخاصة بهذا الكتاب، وتستهدف المشاريع المقدّمة في الكتاب نماذج تدريبية متنوعة، أمّا نشاط المحفوظات فيأتي مدعّما لرصيد التلميذ اللغوي والمعرفي ناهيك عن «إثارة العواطف النبيلة في نفس المتعلم، وبعث السرور في وجدانه، كما يخاطب عقله وينمي فكره ويثري قاموسه اللغوي استعدادا للتذوق الأدبي، ويساعده على التعبير الشفهي والكتابي من خلال ما يكتسبه من أفكار ومعان سامية وصور خيالية»[4] ويمكن تبيان هذين العنصرين من خلال الجدول التالي:

النماذج التدريبية المستهدفة من خلال المشاريع الكتابية	كيفية تقديمها واستثمارها من خلال الكتاب	مواضيع المحفوظات المدرجة ومصدرها
_التعرّف على ماهية النص ومكوّناته + كيفية كتابة نصّ متكامل.	_ تقديم نموذج كمثال تمهيدي لتدريب المتعلم عليه، مثل نموذج: وصف شخصية داخل	- الثعلب المتنكر: خضر بدور - من أنغام الطفولة- - النملة – من أغاني

- كتابة قصّة بشخصياتها الرئيسية (كيفية التعبير عن الأحاسيس). - كيفية تلخيص نص. - كتابة نص(كيفية وصف مكان، كيفية تقديم الشرح). - إنجاز بطاقة لكتاب. - إنجاز ملصقة إشهارية. - كتابة كيفية صنع شيء ما. - حكاية رحلة باستخدام ضمير"أنا ".	القصة، قُدّم مثال فيه وصف لصفات النّجار المهمل. _ تقديم أسئلة حول النموذج المثال، _ وضع تطبيقات تدريبية . _ تكليف المتعلّم بكتابة نموذج على منوال النموذج السابق. مثلا: كتابة قصة تكون فيها الشخصية شخصية خيالية،وصفها وصفا مفصّلا. - إعطاء فرصة للتلميذ لتقييم نفسه بنفسه عبر الاختبار المَوضُوع في نهاية المشروع وتدلّ عليه عبارة **(أراجع قبل ان اكتب في كراسي)**	الطفولة- - الكشاف لـ: احمد سحنون - الغدير الطموح لـ: إيليا أبو ماضي + الماء سرّ الحياة لـ: محمد الأخضر السائحي - نشيد لوطني لـ: محمد الأخضر السائحي - نشيد الألعاب الرّياضية- كتاب القراءة للسنة الخامسة_ - القمر لـ: عباس محمود العقاد - شجرة الياسمين- من كتاب أناشيد ومحفوظات/ج3 - النّجار لـ: محمد الأخضر السائحي - الحمامة المهاجرة لـ: حسن رمضان فحلة، - أنغام الطفولة-

إنّ أهم ما يمكن ملاحظته عبر هذا الجدول بالنسبة للمشاريع الكتابية التي تناولها الكتاب هو السعي من خلالها إلى محاولة تحريك القدرات والمكتسبات الكامنة في التلميذ وإخراجها على شكل كفاءات متعدّدة تُستَثمر لإنتاج تلك النماذج المستهدفة سلفا، وبعد تفحّص بعض النماذج المقترحة والتي يُكلّف بإنجازِها مجموعة من المتعلّمين، نجد أنّ بعضها تحتاج إلى تسخير الإمكانات اللازمة للعمل من مادية ومعرفية، فضلا عن احتمال صعوبة إنجازها بسبب تباين المحيط البيئي والاجتماعي للمتعلّمين من منطقة إلى أخرى، ناهيك عن كون بعضها لا تتناسب من حيث طريقة طرح الأسئلة مع هذه المرحلة من التعلّم التي قد لا يستوعبها المتعلّم، أو لا يجد المفردات الملائمة للتعبير عنها، منها على سبيل المثال: طريقة طرح الأسئلة في صفحة إنجاز ملصقة إشهارية...، أمّا بالنسبة لما يتعلّق بنشاط المحفوظات، فقد كان انتقاء الموضوعات المدرجة للمتعلّم في أغلبها انتقاء راعى مستوى الطفل سواء من ناحية اختيار المضمون أومن ناحية العبارات الموظفة، والأهم من ذلك أنّ معظمها من إنتاج جزائري ومرجعيّتها وطنية، نذكر منها: الكشاف لأحمد سحنون، النّجار لمحمد الأخضر السائحي، النملة- من أغاني الطفولة- ومع ذلك وُجدت بعض المحفوظات التي قد تكون فوق طاقة استيعاب التلميذ نظرا للغموض الذي يكتنف مفرداتها، وبالتالي غموض معانيها كتلك التي عنوانها - الغدير الطّموح- لشاعر كإيليا أبي ماضي المعروف باتّجاهه الرمزي و تعابيره الغامضة.

أمّا ما يخص النصوص الموسومة بالنصوص التوثيقية، فهي ربما النقطة الأكثر لفتا للأنظار، فمن الجيّد التعريف ببعض الحقائق والانجازات التي حدثت وسُجّلت في العالم وفي التاريخ العربي الإسلامي لمتعلّم هذا الطور، بيد أن إدراج هذا النوع من النصوص في هذا الطور المبكّر من تعلم الطفل، قد يكون ضرره على الطفل أكبر من نفعه، إذا ما نظرنا من الناحية النفسية للطفل وقدراته الاستيعابية، فقد تترك فيه انطباعا سيّئا تمتد آثاره إلى درجة النفور مما

يدرس تحت مظلة اللغة العربية، بسبب غموض ماتتحدّث عنه، وبُعْدِ مستوى المعاني التي تحملها بعباراتها التي ليست بمستوى الفهم البسيط لتلميذ هذه المرحلة، منها على سبيل المثال: النص الذي يتحدث عن ظاهرة كونية غريبة هي مذنّب هالي، وقد تمّ تعريفه بنفس اسمه(مذنب هالي هو مذنّب مضيء)♦ دون أن يدرك المتعلم دلالته الحقيقية التي تظهر خطورة هذه الظاهرة الكونية وكذلك عبارات أخرى من النص (كالذعر التسّمم، ضجّة عالمية،..) الخ دون إتباعها على الأقل بشرح بسيط لتلك المفردات غير المعروفة لديه.

كان هذا مجمل ما أمكن رصده من واقع محتوى الرصيد الموظّف في هذا الكتاب وحتى تكون الدراسة أكثر مصداقية في نقل مدى توافقه وانسجامه مع تطلعات المتعلّم في هذه المرحلة، عدنا إلى الواجهة الحقيقة لرؤية الأمور بمنظار أوضح وهي المتمثّلة في الميدان لتقييم نسبة تقبل التلميذ لمحتوى هذا الرصيد من خلال تفحّص العينة الموزّعة على المعلمين باعتبارهم على صلة دائمة ومباشرة بالكتاب والتلميذ، حتى يكون ذلك دعما لتقويم هذا الكتاب المدرسي بناء على أسس علمية مثبتة.

تحليل محتوى العيّنة الموزّعة: بعد فحص الاستبانات التي وزّعت توزيعا عشوائيا على بعض معلّمي المدارس الابتدائية التابعة لولاية – تيزي وزو_ تمّ استرجاع حوالي 18 من أصل 20 استبانة موزّعة وبهذا قّدّرت نسبة العينة التي مثّلت مجتمع الدراسة حوالي **90**٪ من النسبة الإجمالية، ولقد جاءت نتائج محتوى الإجابات على النحو الآتي:

- **التعرّف على المستجوب:** أدرجنا هذا العنصر بهدف الاستعلام حول جنس وخبرة المعلّم المستجوَب.

- **الجنس:** لقد تأرجحت الكفّة لصالح فئة الإناث التي مثّلت النسبة السّاحقة والمقدّرة بـ: 88.88٪ في حين كانت نسبة فئة الذكور قليلة جدا وتقدّر بـ: 16.66٪.

• **الخبرة:** يوحي هذا العنصر إلى مجموعة التجارب التي كوّنها المعلّم في سلك التعليم، ومن خلال العيّنة وجدت أنّ خبـــرات المستجوبـــين تراوحـــت بيـــن (2 إلى 30 سنة) وهو ما يوضحه الجدول الآتي:

الخبرة بالسنوات	العدد	النسبة
سنتان	02	٪11.11
3 سنوات	02	٪11.11
4 سنوات	03	٪22.22
6 سنوات	03	٪11.11
17 سنة	01	٪5.55
30 سنة	01	٪5.55

بيّن لنا هذا الجدول أن أكثر المعلّمين خبرة وأقدميّة أقلّهم عددا، حيث مثّلت نسبتهم ٪5.55، في حين أنّ أقلّ المعلّمين خبرة هم أكثرهم عددا، ولقد تراوحت النسب التي مثّلتهم بين ٪11.11 إلى ٪22.22، بينما ما بقي من النسبة الغائبة في الجدول راجع إلى عدم إفصاح باقي المستجوبين عن ذلك، ولعلّ هذه النتائج تشير إلى ضرورة إمداد المعلمين الجدد بدعم تكويني، بل وحتى الأقدمين نظرا لتعودهم على الطريقة التقليدية «فكلّما تلقى المعلّم تدريبا كافيا كان أداؤه جيّدا، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنّه يصبح من الصعب على المعلّم إتباع الأساليب الجديدة المستحدثة والتّمكّن من تطبيقها» [5] وهذا خاصة مع تبنّي المدرسة الجزائرية للمقاربة الجديدة القائمة على الكفاءات.

2/- محتوى نصوص القراءة: يشكّل نص القراءة بالنسبة للتلميذ المتعلم نافذة مفتوحة تفسح له المجال لاستثمار مهاراته النطقية وتدريب لسانه على الأداء السليم للكلمات والعبارات والجمل فضلا عن تدعيم رصيده بالمفردات الجديدة وفهمها من خلال تمثل معاني النص المقروء وممارستها، لاسيما في عصرنا الحاضر الذي يعج بالألسنة الأجنبية الدخيلة جراء تفشي العولمة، لهذا «اهتمت

الطرق التعليمية قديمها وحديثها بتعليم مهارة القراءة بأكثر جدية... باعتبارها وسيلة لفك رموز اللغة وفهم مضمون الكتابة، ولكسب المعلومات والخبرات وتكاد المادة الأساسية في الحصول على المهارات الضرورية بما تتيحه للفرد من الإطلاع على أنواع مختلفة من الثقافات والمعلومات عن طريق المطالعة الواسعة» [6]، وعليه كان فحوى السؤال المطروح هو:

2- 1/ مدى ملامسة المعلم من تحسن في مستوى أداء التلميذ لنشاط القراءة من خلال المتابعة وكيفية أدائه لهذا النشاط في القسم: لاحظنا من خلال إجابات المعلمين أنّ جميعها اتجهت إلى القول بتحسن مستوى أداء التلاميذ لهذا النشاط، فغطت بذلك النسبة الإجمالية للعينة والمقدرة بـ 90٪؛ ولقد حاولت تقصي مرجعية هذا التحسن من خلال اقتراح أربع احتمالات، فجاءت نتائج الإحصاء على النحو التالي:

سبب ومرجعية التحسن	العدد	النسبة
1- طريقة تقديم النصوص في الكتاب	01	5.55٪
2- الاعتماد على المقاربة النصية	05	27.77٪
3- توفير فرص للقراءة الفردية	05	27.77٪
4- التحضير الجيد للنص	02	11.11٪
5- الاحتمال الثالث والرابع	04	22.22٪

فكما نلاحظ من خلال هذا الجدول أن أعلى نسبة سُجلت فيه، عادت إلى كل من الاحتمال الثاني والثالث، حيث حصّلا على نفس النسبة والمقدرة بـ 27.77٪، ما يدل على أن المقاربة النصية التي بُنِي عليها المنهاج الدراسي لهذه المرحلة، أسهمت في تعزيز هذا النشاط أكثر، باعتبار نص القراءة فضاء تدور فيه مختلف الأنشطة الأخرى، وبالتالي تعزيز وترسيخ لعادة القراءة لدى المتعلّم كما أسهم توفير فرص القراءة الفردية في بلورة هذا التّحسّن الملاحظ في أداء المتعلمين للقراءة، وهناك من المستجوَبين من أرجع هذا التّحسّن إلى كل من

الاحتمال الثالث والرابع والذي مثّل نسبة 22.22٪ في حين كان أدنى نسبة مسجلة من خلال الجدول هي 5.55٪ والخاصة بالاحتمال الأول.

2- 2/ رأي المعلمين حول مدى استجابة مضامين النّصوص المبرمجة في الكتاب لمختلف مستويات التلاميذ داخل القسم: لعل من أهم شروط نجاح التأليف المدرسي هو حسن التدرج في اختيار مضمون المادة التعليمية وفقا لحاجات المتعلّم التبليغية وبحسب محيطه الاجتماعي، وباعتبار الكتاب المدرسي« الوثيقة التعليمية المطبوعة التي تجسّد البرنامج الرسمي لوزارة التربية الوطنية والموضوعة من أجل نقل المعارف للمتعلّمين، وإكسابهم بعض المهارات ومساعدة كل من المعلّم والمتعلّم على تفعيل سيرورة التعلّم» [7]، وعليه؛ أدرجت هذا السؤال من باب تقييم نسبة تجاوب المتعلم مع محتوى نصوص الكتاب وقد أسفرت النتائج عما يلي:

- تعود أغلب إجابات المعلّمين إلى القول باستجابة مضامين النصوص المبرمجة لمختلف مستويات التلاميذ داخل القسم وبنسبة بلغت حولي:61.11٪ في حين ذهبت باقي الإجابات التي مثّلت حوالي 38.88٪ إلى القول بعدم استجابة المضامين كلّية لمختلف مستويات التلاميذ، ذلك أنّ بعض النصوص لم تراع التنوّع الثقافي والجغرافي الذي يجب أن تبنى على أساسه المناهج.

2- 3/ رأي المعلّمين حول أسئلة نصوص القراءة المقترحة في الكتاب: إنّ الهدف من توظيف الأسئلة في الكتاب المدرسي كما هو معروف هو تعويد المتعلّم على إعمال فكره وتنشيطه من أجل فهم مختلف القيم المستهدفة من النص وربطها بحياته الاجتماعية والعملية، فضلا عن إدراكه لمختلف الظواهر اللغوية واستيعابها، فهي إذن تشكّل أحد الدعائم التي يتكئ عليها في تقييم مدى استيعاب المتعلم لمحتوى النشاط التعليمي، ومن شروط تحقيق ذلك وضوح هذه الأسئلة، وهو القصد من خلال هذا السؤال المطروح؛ ومن خلال إجابات

المعلمين، تبيّن أن كل العيّنة التي مثّلت 90٪ صادقت على وضوح الأسئلة المقترحة لنصوص القراءة وسهولة إدراكها من قبل التلميذ.

2- 4/ مدى تلبية المفردات المختارة (المشروحة) لفهم معاني نصوص القراءة لحاجات التلميذ التبليغية: إنّ من أهمّ ما نصّت عليه اللّسانيات التربويّة المعاصرة هو «التّركيز على المتعلّم واحتياجاته وحال الخطاب..أي معرفة حاجياته الحقيقية، وإعداده بما يحتاج إليه من ألفاظ وعبارات وتراكيب وهذه الاحتياجات تختلف باختلاف السّن والمهنة والمستوى العقلي وما يحيط بالمتعلّم» [8]، وبعد تفحّص الإجابات العائدة، أظهرت النتائج ما يلي:

- اتّجهت معظم إجابات المستجوبين إلى القول بتلبية هذه المفردات لحاجات المتعلّم التبليغية بنسبة: 66.66٪ أي بمعدّل 12 إجابة، في حين اتجهت فئة أخرى من المعلمين إلى القول بعدم مناسبتها لحاجات المتعلّم التبليغية بنسبة 44.44٪، أي ما يعادل 08 إجابات.

3/ توظيف اللغة: إنّ تمكّن متعلّم هذه المرحلة من توظيف اللغة التي تتجلّى في مختلف الأنشطة التي حواها هذا الكتاب لمؤشّر هام على حصول الاستيعاب وبداية امتلاكه للمهارات والكفاءات التي تعينه على حل المشكلات في المواقف التعليمية المختلفة، لكن هذا التمكّن مرهون بمدى وضوح محتوى الأنشطة والطريقة التي أتت عليها كذلك، ذلك ما سنتعرف عليه من خلال ما طرحته من أسئلة في هذا العنصر.

3- 1/ مدى مناسبة ووضوح مختلف الأنشطة المقدمة في الكتاب لمستوى المتعلّم: وبعد إحصاء الإجابات، تبيّن أن هذه الأنشطة ليست كلّها قد امتازت بالوضوح والملاءمة، بنسبة قدّرت بـ:94.44٪، في حين مثّلت النسبة الباقية 5.55٪ إجابة واحدة فقط اتجهت إلى قول العكس، ومن أجل معرفة أي نوع من الأنشطة التي تطرح أكثر هذه الصعوبة، عمدت إلى تعيينها، فعادت النتائج وفق ما يبيّنه الجدول التالي:

نوع النّشاط الأكثر طرحا للصعوبة	العدد	النسبة
1- النحو	06	33.33٪
2- الإملاء	02	11.11٪
3- الصرف	01	5.55٪
4- المعجم	01	5.55٪
5- المشروع الكتابي	08	44.44٪

نلاحظ من خلال الجدول أنّ أكثر الأنشطة التي أثارت بعض الصعوبات والتي حظيت بأعلى نسبة من الإجابات هي: المشروع الكتابي الذي سجّل نسبة: 44.44٪، ويليه نشاط النحو بنسبة: 33.33٪، ذلك أن المشروع الكتابي- حسب تعليل المستجوبين- يستغرق وقتا لانجازه وذلك قد يكون على حساب الأنشطة الأخرى، أما ما يخصّ نشاط النحو فقد ذهب بعضهم إلى أن دروس النّحو لم تُستق من أمهات الكتب في النّحو التعليمي التي تعالج الظواهر النحوية معالجة وظيفية، بينما توزّعت باقي النسبة على الأنشطة المتبقّية وهي: 11.11٪ بالنسبة لنشاط الإملاء وتحصّل كل من نشاط الصرف والمعجم على نفس النسبة المقدرة بـ: 5.55٪، وهي النسبة الأدنى، ولعلّ ذلك ما يدل على مناسبة محتوى هذين النشاطين لمستوى التلميذ.

3- 2/ مدى مساهمة التّدريبات الخاصّة بهذه الأنشطة في تعزيز مكتسبات التلميذ والكشف عن إمكانياته في استثمار قدراته: يُعدّ التطبيق نوعا من أنواع التقويم المستمر الذي يعتمد متابعة مستوى تطوّر إمكانيات التلميذ وقدرة استيعابه، وهو« عبارة عن استثمار التلميذ للمعلومات المكتسبة في مواقف تعليمية جديدة»[9]، ولقد حققت إجابات المعلّمين النسبة الكلية للعيّنة: 90٪، من خلال اقتناعهم التّام بمساهمة التطبيقات المدرجة في الأنشطة في بلورة وإنماء المستوى التعليمي عند المتعلّم.

4/نسب تقييمات المعلمين لمستوى مساهمة الأنشطة في رفع أداء المتعلم:

كان إدراجنا لهذا العنصر من منطلق تقديم - ولو بالتقريب- حوصلة بلغة الأرقام لمدى مساهمتها في تحسين مستوى المتعلم فجاءت النتائج على النحو التالي:

4- 1/ نسبة تمكّن التلميذ من نشاطي النحو والصّرف: وقد وضعت لهذا السّؤال جملة من النسب المحتملة، لقياس مردود المتعلّم في هذين النشاطين فعادت النتائج على النحو الآتي:

تقييم نشاطي النحو والصرف		
النسبة المحتملة	عدد الاجابات	النسبة
٪70	10	٪55.55
٪50	08	٪44.44
٪30	0	٪0
٪10	0	٪0

يبرز لنا هذا الجدول أن نسبة تمكّن المتعلّم من هذين النشاطين من خلال تقييمات المعلمين يتراوح بين70٪ بعدد 10 إجابات وبنسبة قدّرت بـ: 55.55٪ إلى 50٪ بعدد 08 إجابات، أي بنسبة 44.44٪، وهي نتيجة على الأرجح باعثة للارتياح، لأنّ القصد من التمكن هنا هو السعي إلى إكساب المتعلّم مهارة إجراء القواعد النحوية والصرفية في واقع ممارسته اللغوية.

4- 2/ نسبة مساهمة نشاط (أُثري لغتي) في نمو الرصيد المعجمي للتلميذ وتحسين أدائه: إنّ تسلّح المتعلّم بزّاد معجمي متنوّع وثريّ يسمح له بالتعبير عن حاجاته اليومية، ناهيك عن تحقيق تواصل فعال مع محيطه الاجتماعي واستثماره كذلك في مجالات متعددة مستقبلا، وانطلاقا من العينة التي بين أيدينا، فإنّ نسبة مساهمة هذا النشاط في نمو الرصيد الخاص لدى

المتعلّم في هذه المرحلة متوقّف على ما سيظهره لنا الجدول الآتي من نتائج إجابات المعلمين:

تقييم نشاط (أثري لغتي)		
النسبة المحتملة	عدد الإجابات	النسبة
٪70	04	٪22.22
٪50	14	٪77.77
٪30	0	٪0
٪10	0	٪0

نلاحظ عبر الجدول أن النسبة التي حظيت بأعلى الإجابات هي 50٪ بمعدّل 14 إجابة وقدّرت بحوالي77.77٪، في حين مثّلت النسبة الباقية والمقدّرة بـ: 22.22٪ من ذهب إلى القول بمساهمة النشاط بـ:70٪، أي ما عادل 04 إجابات، وهي نسبة تشير إلى مردود مقبول عموما.

4- 3/ نسبة مساهمة نشاط (المشروع الكتابي) في إدماج معارف المتعلّم عمليّا: تعدّ المشاريع الكتابية «الوجه الحقيقي للمقاربة بالكفاءات، لأنّ فيها يُفسح المجال رحبا للمتعلّم حتى يُفصح عن إمكانياته الفردية، لكنّها تحتاج إلى تعديل وتكييف بما يتناسب والواقع المعيشي للمتعلّم »[10]، معنى ذلك أن هذه المشاريع هي نوع من تهيئة المتعلّم تهيئة تنقله من دائرة التحصيل النظري إلى دائرة التجسيد الفعلي في الحياة العملية، ولقد أسفرت إجابات العينة عما يلي:

تقييم نشاط المشروع الكتابي		
النسبة المحتملة	عدد الإجابات	النسبة
٪90	01	٪5.55
٪70	07	٪38.88
٪50	09	٪50

٪5.55	01	٪20

يتّضح من خلال الجدول، أن اغلب آراء المعلمين ذهبت إلى القول بمساهمة هذا النشاط بنسبة 50٪ بعدد 09 إجابات قُدّرت نسبتها 50٪، في حين سجّلت 07 إجابات بنسبة مقدّرة بـ: 38.88٪ ، قالت بمساهمته بـ: 70٪، بينما عبّرت النسبة المتبقّية من الإجابات عن النسب الأخرى الموجودة في الجدول.

• **نتائج الدراسة:** إنّ هذه الدراسة التي لا ندعي أنها كافية وشافية من كلّ جوانبها، هي محاولة متواضعة لتقويم هذا الكتاب المدرسي المعتمد في كل المدارس الابتدائية الجزائرية من زاوية المحتوى الموظّف فيه، ومدى تحقيقه للأهداف المسطّرة في منهاج السنة الخامسة، ولقد خلصت إلى مايلي :

- إنّ هذا الكتاب المدرسي من ناحية الهيئة الخارجية والشكلية التي أتى عليها ملائم وجذّاب بالنسبة للمتعلّم الخاص بهذه المرحلة، كونه مازال يعتمد على الصور والرسومات كعامل أساس لإنماء قدراته الذهنيّة، وعلى الألوان كحافز نفسي لاستقطاب انتباهه واستمالة حواسه على متابعة المحتوى التعليمي باهتمام، حيث أثبتت الدراسات النفسية « أنّ الحواس مفاتيح العقل وهي الطريق الموصلة إليه» [11].

- إنّ واقع محتوى الرصيد الموظّف في هذا الكتاب رغم المساعي الطيّبة التي بُذلت لتنويعه وتجديده وانتقائه، وفقا لمتطلبات العصر ومستويات المتعلمين وما حمله من مزايا في ظل المقاربة الجديدة، سواء من حيث طريقة تقديمه وجودة النصوص المقترحة، فإنّه ما زال يُسجّل بعض المآخذ استنادا إلى التحليل وآراء المعلّمين وهي: طول نصوص القراءة خاصة مع تقليص الحجم الساعي للحصة الواحدة، أضف إلى ذلك أنّ بعض القيم التربوية المستهدفة من خلال مضامين هذه النصوص ليست مطابقة للدلالة الحقيقية التي تضمّنتها.

- إنّ طريقة المقاربة بالكفاءات التي يستظلّ بها هذا الكتاب والتي تسعى إلى إدماج معارف المتعلّم عبر الاعتماد على المقاربة النّصية أمر محمود

جدّا، شرط أن يكون النص قادرا بالفعل أن يكون محورا تستثمر من خلاله باقي الأنشطة الأخرى، وليس على حساب تحميله أكثر مما يحتمل من أجل تجسيد ما برمج من محتوى تلك الأنشطة.

- إن بعض المفردات التي حواها الرصيد الموظف في الكتاب عموما مناسبة، لكنها مازالت بعيدة عن مستوى نضج متعلّم هذا الطور، خاصة ما يتعلّق منها بالنصوص التوثيقية التي أُقحِمت في هذا الطور وزادت أكثر في تضخيم المحتوى، وأكثر من ذلك نلمس ابتعاد بعض المفردات المشروحة - التي سُخرت لفهم معاني النص - من الشرح إلى تعقيد الشرح منها على سبيل المثال (ماسورة = قطعة مجوّفة من الحديد مفتوحة الطرفين)

- غياب المصطلحات المعروفة (النحو، الصرف، الإملاء،...) التي تعرّف بالأنشطة من خلال متن الكتاب.

- ومع ذلك فإن أكثر ما يُحمد في هذا الكتاب هو الالتزام بإدراج محفوظات أغلب قصائدها واضحة ومرجعيتها من الثقافة الوطنية.

- **بعض الحلول المقترحة لتذليل نقائص الكتاب:**

- الحرص على توظيف القيم التربوية المستهدفة في مسارها الصحيح من خلال انتقاء النصوص المعبرة عنها بالفعل.

- مراعاة التّنوّع الثقافي والبيئي والجغرافي أثناء انتقاء النصوص.

- إعادة تسمية الأنشطة المتعلقة بتوظيف اللغة بمصطلحاتها المعروفة في متن الكتاب خاصة نشاطي النحو والصرف حتى تتيح للمتعلم إدراكها والتعرّف عليها.

- استثمار الرّصيد اللّغوي الوظيفي المقرّر للطور الابتدائي في وضع المعاجم المدرسية للتلميذ وتوزيعها عبر كامل المدارس تدعيما لرّصيده الشخصي.

- التقليل من كثافة محتوى البرنامج من خلال حذف بعض النصوص غير الملائمة لمستوى التلميذ في هذه المرحلة كالنصوص التوثيقية، والتي تدرس بعضها في نشاط التاريخ والجغرافيا.

- الحرص على مراعاة الاستعدادات الذهنية والإمكانات اللازمة لتجسيد المشاريع الكتابية.

1- محمد وطاس، أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعلّم عامّة وفي تعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دت، الجزائر: 1988م، ص 23.

2 – صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومه، الجزائر:2003م، ص 85.

3 - موقع قوقل: http://www.onefd.edu.dz/، الوثيقة المرفقة لمنهاج مادة اللغة العربية. ص07.

4- موقع قوقل: الوثيقة المرفقة لمنهاج اللغة العربية، ص 14.

♦– كتابي في اللغة العربية، للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي، وزارة التربية الوطنية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، ص132.

5– طه علي حسين الديلمي وسعاد عبد الكريم الوائلي، الطرائق العملية في تدريس اللغة العربية ط01، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان– الأردن: 2003م، ص21.

6– محمد وطاس، أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعلّم عامة وفي تعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، ص216.

7– محمد الصالح حثروبي، نموذج التدريس الهادف أسسه وتطبيقاته، دار الهدى، الجزائر: 1997م، ص 80.

8– صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، ص78.

9– محمد الصالح حثروبي، نموذج التدريس الهادف أسسه وتطبيقاته، ص32.

10 – مقابلة أجريت مع بوعبد الله سعيد، مفتّش التعليم الابتدائي، دائرة ذراع لميزان، تيزي وزو: أكتوبر 2009م.

11– محمد عطية الإبراشي، روح التربية والتعليم، دار الفكر العربي، القاهرة:1413هـ– 1993م، ص 230/231.

تعليمية النص الشعري الوطني الجزائري الموجه لتلاميذ المرحلة المتوسطة

- دراسة في الحضور والموضوعات -

الدكتور: عبد اللطيف حني

المركز الجامعي بالطارف

ملخص: سعت المنظومة التربوية في الجزائر إلى تحديث مناهج التربية والتعليم من خلال اعتماد مقاربات جديدة تعمل على تفعيل دور التعليم في الحفاظ على مقومات الأمة، وذلك بإعادة تأليف الكتب المدرسية في جميع المواد التعليمية والاهتمام بشكلها ومضمونها، وقد مس هذا التغير التعليم المتوسط، وعليه يستمد هذه المقالة شرعيتها في البحث في النصوص الشعرية الجزائرية المختارة وجمالياتها الفنية والأسس التي بني عليها اختيارها وتجليات البعد الوطني فيها بوصفه ركيزة من ركائز الشخصية الوطنية تهدف المنظومة التربوية إلى تحقيقه.

Abstract:

Expanded the educational system in Algeria to update the education curricula and education through the adoption of new approaches to activate the role of education in protecting the fundamentals of the nation, and by re-authored textbooks in all educational materials and attention to form and content, has touched this change segendaire school, and it derives this article legitimacy in the search for poetic texts Algerian selected and aesthetic art, and the foundations on which the selection and the manifestations of the national dimension as a pillar of the national character of the educational system aims to achieve.

بسط منهجي : اعتمدت وزارة التربية في الجزائر على مقاربات ومناهج تعليمية حديثة، تهدف من خلالها إلى تفعيل دور التعليم في النهوض بالمجتمع وبناء مقوماته وحفظ تاريخه، وتنمية وتثبيت مكونات شخصية المتعلم الوطنية وحمايته من مختلف حملات الغزو والتغريب وتطعيمه ضد أمراض العولمة، وهذا لا يتأتى إلا من خلال التكوين والتعليم المدروس الذي يحقق أهدافه ويصل بالمتعلمين إلى بر الأمان، وقد ظهرت هذه الجهود من خلال تحديث البرامج التعليمية في مختلف الأطوار التعليمية، وإعادة تأليف الكتب الموجهة للتلاميذ في مختلف المواد الدراسية والأنشطة التعليمية، وقد مس هذا التغيير التعليم المتوسط، إذ شهد نقلة نوعية وتغييرا مثمرا، وعرفت مادة اللغة العربية تغييرا في المنهجية وطريقة تقديم الأنشطة، من خلال الكتاب المدرسي في السنوات الأربع، حيث روعي فيه الجوانب الروحية والوطنية والاجتماعية وتنمية الذوق الأدبي والفني والعديد من المسائل التعليمية والبيداغوجية.

1- مصطلح الوطن بين الدلالة والأهمية:

أ- **مفهوم الوطن:** لقد تناول القدماء مادة- وطن- في مصنفاتهم المعجمية تناولا مستفيضا، وممن تناول ذلك ابن منظور في لسان العرب، حيث يقول : «الوطن :المنزل نقيم به، وموطن الإنسان ومحله..وقد ذكر في موضعه والجمع أوطان الغنم والبقر، مرابطها وأماكنها التي تأوي إليها»[1]، وتستقر بها، ويكون القصد هنا المكان الذي نحل به سواء كان منزلا أم أرضا حيث يقول: «وَطَنَ بالمكان وأَوْطَنَ أَقام الأَخيرة أَعلى وأَوْطَنَهُ اتخذه وَطَناً يقال أَوْطَنَ فلانٌ أَرض كذا وكذا أَي اتخذها محلاً ومُسْكَناً يقيم فيها»[2]، ونسمي مواطن لتلك الأرض«كقولك إذا أتيت فوقفت في تلك المواطن فادع الله لي ولإخوانك»[3].

أما في معجم متن اللغة فكلمة الوطن تعني المكان أيضا فنقول: «وَطَنَ يَطِنُ وَطَنًا بالمكان أقام فيه، اتخذه موطنا، إتطن المكان: أقام به، توطن

المكان: اتخذه وطنا، الوطن: المنزل تقيم فيه، الوطن كذلك، الموطن: المكان الذي تتخذه موطنا ... »[4].

وقد عرف الجرجاني كلمة الوطن في كتابه التعريفات: «الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه، وطن الإقامة : موضع ينوي أن يستقر فيه خمسة عشر يوما أو أكثر من غير أن يتخذه مسكنا»[5].

كما جاء في المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عن مادة وَطَنَ: «وطن بالمكان: (يطن) وطناً أقام به، أوطن البلد: اتخذه وطنا، توطّن: أقام فيه»[6] وعلى العموم فإن كلمة وطن هي من وطن يطن وطنا بالمكان أي أقام فيه، ووطن نفسه على كذا مهدها له وحملها عليه، والوطن هو المنزل نقيم فيه (الواو والطاء والنون كلمة صحيحة) تعني محل الإنسان أو فاتخذ من الأرض وطنا [7].

أما مفهوم الوطن اصطلاحا فقد أخذ مفهومه منذ القدم إلى العصر الحديث عدة معان ودلالات مختلفة اصطلاحية منها ما يعني« المنزل الذي يحل به المرء وينزل فيه مع أهله وعشيرته، لأن تجمع العرب قديما في بقعة ما كان على أساس بشري قبلي لا على أساس جغرافي مكاني»[8]، هذا المعنى ساد عند العرب قديما، لأن حياتهم كانت تمتاز بالتنقل، وعدم الثبات في أرض معينة خاصة منهم البدو لقساوة الطبيعة وبخلها عليهم بالكلأ والماء والمناخ المساعد على الاستقرار، ومن هذه الزاوية نستنتج أن مفهوم الوطن«كان مرتبطا منذ الجاهلية بظروف الحياة المادية، الحياة في مكان ما تستمر مادام هذا المكان ... يهيئ له حياة هنيئة سعيدة»[9].

وأصبح المفهوم في العصر الحديث، يعني المدينة التي يقطن بها الإنسان مع أهله، وتربطه بها عدة عرى وثيقة، منها المولد والنشأة، فتأخذ منه عاطفة الحنين واشتداد الشوق، عندما ينأى عنها، لتواجد أهله فيها، وقد تأخذه الذكريات المملوءة بمشاهد من أيام الطفولة والصبا في ربوع تلك المدينة، ومن ثم

فإنه لا يستطيع مشاركة وطنه أفراحه وأحزانه، وما تأتي به الحياة من ظروف قاسية أليمة، لا يهونها إلا صديق أو أخ عزيز.

ومن المفكرين المعاصرين من يخالف هذه النظرة للوطن على أساس الارتباط المكاني، ويرون(الماديون) أنه المكان الذي يوفر الحياة الكريمة والأمن والسلام، ولو كان غريبا بعيدا عن الفرد ولا تربطه به روابط وهؤلاء يجنحون في ذلك وجهة اقتصادية، تسقط أمامها كل الصلات الاجتماعية والنفسية، وقد سادت هذه النظرة الوطن العربي في عصرنا الحالي بحثا من أبنائه عن توفير الحياة المريحة البعيدة عن المعاناة والأتعاب المختلفة، إذ يتسابقون إلى الهجرة لأماكن غير أوطانهم التي ألفوها وشبوا على أرضها وتسامروا في روضها.

والمتفق عليه حاليا أن مصطلح الوطن، هو البقعة الجغرافية الواضحة الحدود، والمعترف بها عالميا، والتي تضم شعبا ولغة وتاريخا مشتركا وعادات وتقاليد معينة، وديانة خاصة في معظم الأحوال، إذ سبب ظهور هذا المفهوم يرجع في الحقيقة لعدة عوامل منها الحربان العالميتان الأولى والثانية، اللتان قلبتا موازين العالم رأسا على عقب، وكثافة موجة الاستعمار الذي أصل مفهوم الوطن لدى الشعوب المظلومة، فتولدت عن ذلك مصطلحات عدة منها: المطالب الوطنية، الحقوق الوطنية، الدولة الجزائرية، الوطن الجزائري ... إلخ من الوطنيات المحدد بهذا المقياس.

وقد أدى ظهور القوميات والتيارات المتعددة الاتجاهات إلى اتساع مدلول الوطن أكثر إذ أصبح شاملا لمجموعة من الدول والشعوب التي تشترك في معتقد واحد وفي انتماء عرقي واحد أو سمة حضارية واحدة، ويكون«المعنى أشمل إذا قصد بالوطن، وطن قومية من القوميات كالوطن العربي مثلا، ويكون أكثر شمولية إذا نظرنا من الوجهة الإسلامية حيث وطن المؤمن...هو العالم أجمع والأصل عنده الإسلام»[10].

ب- الشعر الوطني: ويذهب الكثير من الدارسين والباحثين إلى أن الشعر الوطني «هو الذي يدور حول قضايا الوطن ومشكلاته السياسية والاجتماعية والذي يصور حب الإنسان لوطنه ولأبنائه إنه تعبير عن مواقف وآراء قامت في ضمير أبناء الوطن، فوعاها الشعراء وأدركوا أبعادها، وتأثروا بها فغدت لديهم تجربة شعورية حادة، فعبروا عنها تعبيرا صادقا، وأسبغوا عليها من عواطفهم فغدت قادرة للتأثير في نفوس مواطنيهم»(11)، وهو الشعر الذي ارتبط بالوطن منافحة ودفاعا وتمكينا وتغنيا وتمجيدا إنه «صورة لوجدان المواطنين وتعبيرا عن أمانيهم وأحلامهم وتجسيدها نفسية الشاعر»(12).

فالشعر الوطني بعد أن كان أبياتا في قصائد فإذا به يصبح في العصر الحديث قصائد قائمة بذاتها، بل فنا أبحر فيه الشعراء وعاشوه بكل حواسهم ولعل أروع مثال في الشعر الوطني الظاهرة التي سادت الشعر المهجري في العصر الحديث، وكذلك الشعراء الوطنيين ومن أشهرهم: أبو القاسم الشابي القروي، أحمد شوقي، في أخريات حياته، شعراء الأرض المحتلة (إبراهيم طوقان، محمود درويش، سميح القاسم).

2- موضوعات الشعر الوطني الجزائري في كتاب المرحلة المتوسطة (السنوات الأربع): برزت جهود القائمين على تحديث البرامج التعليمية في مختلف الأطوار التعليمية، من خلال إعادة تأليف الكتب الموجهة للتلاميذ في مختلف المواد الدراسية والأنشطة التعليمية، وقد مس هذا التغيير التعليم المتوسط، إذ شهد نقلة نوعية وتغييرا مثمرا، وعرفت مادة اللغة العربية تغييرا في المنهجية وطريقة تقديم الأنشطة، وتنوعا ثريا في نصوص الكتاب المدرسي في السنوات الأربع، حيث تنوعت موضوعات الكتاب بين التربوية التعليمية والوطنية والقومية والاجتماعية ترفيهية والاقتصادية والعلمية والطبيعة وجمالها وغيرها التي من شأنها تنمية الذوق الأدبي والفني والعديد من المسائل التعليمية والبيداغوجية.

وقد شكل الشعر الوطني خاصة الجزائري في الكتاب المدرسي للمرحلة المتوسطة أحد الموضوعات التي تجلب انتباه التلميذ واهتمامه، وتسهم بشكل فعال في تنمية مقوماته الشخصية وتعزيز روح الانتماء إلى بلده الجزائر وتجذر هذا الحب في نفسه، فللتربية والتعليم دور كبير في تربية التلميذ على الفضائل الكريمة والقيم الرفيعة والعمل على تنشئته تنشئة صالحة تؤهله للمنافحة عن وطنه، لذلك فهو في حاجة إلى أن يعرف ذاته ، ويعرف البيئة المادية المحيطة به والكتاب من خلال موضوعاته «يسهم في تهيئة الفرص اللازمة لتلك المعرفة حيث يقدم مجموعة من الخبرات فيها حكمة الإنسان وآماله وطموحاته وآلامه وأخطاؤه ورغباته وشكوكه، والأطفال يميلون بصدق إلى أن يتذوقوا هذا السجل الحافل، ولا أدل على ذلك من شغفهم بالقصص التي تروى عليهم أو يقرؤونها، ومحاولتهم الجاهدة لفهم الكلمات المكتوبة الزاخرة بهذا السجل»[13].

ولعل الشعر الوطني الجزائري أصدق شعر وطني في أعظم ثورة في الوطن العربي، الذي اجتهد المؤلفون للكتاب المدرسي الاستفادة منه بما يتوافق مع سن ومرحلة التلميذ في هذا الطور، خاصة أن الشعراء الجزائيين استطاعوا تسجيل الثورة بأحداثها في جميع مراحلها وفتراتها التاريخية، وتغنوا بالجزائر وطنا ومسكنا وأرضا وأما وحبيبة وصوره في أجمل الصور وزينوه بأبهى الحلل بقصائد رائعة متطلعين ليوم الحرية، ومخلدين تاريخهم لأبنائهم صغارا وكبارا فهم «لا يتلمسون في ملامح الجزائر الثائرة إلا ملامح قصيدة أزلية في دوي الرصاص وجماجم الموتى، وتدفق النجيع متسع الالتماس بالأوزان والقوافي والبحور»[14].

والمتفحص للكتاب المدرسي الموجه لتلاميذ المرحلة المتوسطة، يلاحظ حضور الشعر الوطني، وهذا لتحقيق الأهداف العامة للتربية والتعليم وتوجهات القائمين عليه وهي تنمية حب الوطن والاعتزاز برموزه، وذلك بنصوص شعرية

جزائرية وغير جزائرية، وسنحاول التركيز على موضوعات الشعر الوطني الجزائري المدرجة في الكتاب وهي كالتالي :

أ- الوقوف عند المحطات التاريخية للثورة التحريرية: وقف الشعر الجزائري على الإشادة بحب الجزائر فالشاعر «غارق في حب وطنه إلى أعمق أعماقه لأنه معذب بهواه هائم فيه ولذا عاش مؤرقا بحب وطنه متشوقا إليه لا يهدأ من هجبة الحنين إلا ويعاوده هذا الحب مما جعل حب الوطن يتضخم كلما كبرت المأساة وكلما عاوده القلق وتملكه الخوف»(15) واهتم القائمون على الكتاب المدرسي بتنمية هذا الحب من خلال ربط التلميذ بتاريخه عن طريق النصوص الشعرية الجزائرية التي خاضت التجربة الوطنية بحق وكان شعرها يصدر عن صدق وحب وعمق عاطفي ومن هذه النصوص القليلة جدا في الحقيقة، قصيدة نوفمبر لمفدي زكرياء مقتطفة من الألياذة، حيث يقول الشاعر: (16)

نوفمبر جل جلالك فينا	ألست الذي بث فينا اليقينا
سبحنا على لجج من دمانا	وللنصر رحنا نسوق السفينا
وثرنا نفجر نارا ونورا	ونصنع من صلبنا الثائرينا
ونلهم ثورتنا مبتغانا	فتلهم ثورتنا العالمينا
جمعنا لحرب الخلاص شتاتا	سلكنا به المنهج المستبينا
ولولا التحام الصفوف وقانا	لكنا سماسرة مجرمينا

شغلنا الورى وملأنا الدنا

يشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

فالنص موجه لتلاميذ السنة الأولى متوسط ضمن وحدة الأعياد الوطنية ومدرج تحت قسم النص الأدبي الذي يقرأه التلاميذ، وتوجه لهم جملة من الأسئلة التي تختبر فهمهم للنص تحت عنوان البناء الفكري والبناء الفني مع شرح

للمفردات الصعبة، إن هذا النص لشاعر الثورة مفدي زكرياء الذي عرف بمواقفه الثورية من خلال الإلياذة التي خلدت تاريخ الجزائر ووصفت جهادها ومعاناتها من الاستعمار، فالنص غني بالدلالات الثورية والمشاعر الوطنية التي من شأنها الارتقاء بالتلميذ إلى حب الجزائر والاعتزاز بتاريخها خاصة شهر نوفمبر الذي كان مطلع الثورة التحريرية ولحظة التحول إلى المطالبة بالحرية مهما كان الثمن، فالنص يصف القيمة التاريخية لنوفمبر فهو ملهم الشعب الجزائري اليقين بالاستقلال والتحرر من الاستعمار، فبذل في سبيل هذا المطلب الغالي والنفيس وقد تحقق بفضل الإتحاد والتضامن والتكافل والإجماع على كلمة الاستقلال ومحاربة الظلم وتغذية الثورة بقوافل الشهداء الأبرار.

كما يتضمن كتاب السنة الثانية نصا شعريا لمفدي زكريا في المطالعة الموجهة بعنوان يا سيل قف يصف فيه الزلزال العنيف الذي ضرب منطقة الشلف (الأصنام سابقا) في السنة الثانية التي اندلعت فيها الثورة التحريرية، حيث يركز النص على معاناة الجزائريين إثر هذه الحادثة التي صادفت الثورة التحريرية وهي تشق طريقها إلى النجاح، لكن الزلزال أثر سلبا على حالة الشعب الجزائري الاجتماعية والاقتصادية حيث يقول : (17)

أمانــــا ألا يـا سمـا أقلعــي	فقد صبــت الأرض أنكالها
ويـا أرض رحمـــاك لا تبلعــي	صبايـــا البـلاد وأطفـــالها
ويا سيـل قـــف واحتشـــم إن في	طريقـــك أكبـاد يرثـى لها
كأنــــك والنــــاس حيـــهم	كمن مـات قد جئت غسالها
جرى ما كفى هل كفى ما جرى؟	كفى بالجـــزائر مـا نالها
ويا خطب رفقـا بهـــذي البـلا	د ألـــم تر يا خطب أحمالها
ألــم ترهـا بيــن جهـل وفقـر	تـجـرر للـمـوت أذيـالها

إن النص يعرض لحادثة تاريخية مأساوية أصابت الجزائر وهي الزلزال الذي ضرب احد مناطقها، فزاد الهموم والآلام على أفراده الذين يعانون أعباء

الاستعمار و سوء الأوضاع في مختلف المجالات، فالشاعر يشتكي لله تعالى هذا الوضع ويدعوه أن يخفف الوضع ويرأف بفئات الشعب، لأنه يعاني من قسوة الفقر والجهل والتشريد والأمراض التي فرضها عليه الاستعمار بغاية إضعافه وذله، فالنص يضع التلميذ في قلب الحدث ويبعث في نفسه حب الوطن والاعتزاز بثواره وشعبه الأبي الذي عانى الأمرين للفوز بالحرية، كما يبين ظلم الاستعمار الفرنسي الذي لم يرحم ضعف الجزائريين، ويصف النص بشكل عام معاناة الشعب الجزائري في مختلف الظروف القاسية، وهذا يزيد من حب الوطن والاعتزاز باستقلاله وكذلك يكسبه ثقافة تاريخية للأحداث المصاحبة لثورة الفاتح نوفمبر 1954.

ب- الاعتزاز بالراية (العلم): من الأبعاد الوطنية التي اهتم بترسيخها الكتاب المدرسي في شخصية التلميذ من خلال الشعر الجزائري التغني بالراية الوطنية (العلم) والاعتزاز بها، وذلك في الوحدة السابعة المعنونة بالحنين للأوطان، وقد أدرجت قصيدة العلم للشاعر مبارك جلواح في نشاط النص الأدبي التي يقول فيها: (18)

عش هكـــذا في علو أيها العلـم	فإننا بـــك بعـــــد الله نعتصـم
جـــاءت تحييك من قــرب مبيـنة	أفراحهـــا بك فانظر هذه الأمم
إن العيـــون قريرات بمـا شهدت	والقلب يفـــرح والآمال تبتسـم
إن احتقرت فإن الشعــب محتـقر	أو احتــرمت فإن الشعب محترم
الشعب أنت وأنت الشعب منتصبا	وأنت أنت جلال الشعب والعظم
فإن تعش سالمــا عاشت سعادتـه	وإن تمت ماتت الآمــال والهمم
هذا الهتاف الذي يعلــو فتسمعـه	جميعه لـــك فاسلـم أيـها العلم

فالشاعر يعتز براية الجزائر هذه الراية من خلال القصيدة التي بدورها تثبت هذا الشعور في نفس التلميذ الذي يقف في تحية طيلة الأسبوع للعلم مرددا النشيد الوطني، في شموخ وأنفة، حيث تزدحم المشاعر المحبة للوطن، ورموزه

ومنها الراية التي استشهد لأجلها الآلاف لأنها «راية العز والسيادة باخضرارها واحمرارها، وبنجمتها الخماسية أنها راية دولتنا التي يجب أن نعتز بها، ونمكن لها وندافع عنها لأنها تظلل المجاهدين في الجبال والوهاد، فهي ترفرف دوما إنها راية الأمجاد والأجداد وراية الأحرار»[19].

إن القصيدة تجعل التلميذ في هذا المرحلة يقدس العلم الجزائري ويؤمن به كرمز للوطن وحريته، فالعلم بتاريخه الطويل ذو مكانة في نفوس الشعب، فهو صورة الوطن المصغرة، وجدير «بأن يحظى من الشعر بوقفات تقديس وإجلال ولفتات افتتان وهيام فتخفق في خفقاتها أوزانه وقوافيه، ولم يقل الشعر عن السلاح وفاء للعلم الجزائري فلطالما حياه بطرف مطرق وقلب خاشع»[20] يدل على عظمته في نفسه، فالتلميذ يدرك من خلال القصائد الوطنية المشيدة بالعلم أن الشاعر يصفه ويرسمه بريشته الشعرية وبالألوان التي «يستمدها من الطبيعة الجزائرية وأخلاق أبناء الجزائر ومواقفهم البطولية فالعلم فلذة من أكبادهم ودفقة من دمائهم وقطعة من وطنهم الأخضر ونسيج من عروقهم النابضة فهو بذلك أهل لأن يفدى بالغالي والنفيس»[21]

ج- التغني بالحرية والاستقلال: شكل موضوع التغني بالحرية أحد موضوعات النص الشعري الوطني الجزائري في الكتاب المدرسي إذ الغاية منه تظهر «في إذكاء هذه القيمة في نفس الطفل وتنميتها، وتعريفه بها، لتصبح احد مكونات شخصيته التي لا يغادرها أبدا مهما اختلفت الأوقات وتعددت الظروف، إن إشباع الطفل بقيمة الحرية وأثرها على الحياة بواسطة صور واقعية من تاريخ وطنه، الذي سيكتشف الاعتزاز به ويتعرف على قيمة حريته ما قاساه في ماضيه وما ينتظره من تحديات في مستقبله»[22].

وقد اختار المؤلفون لكتاب السنة الثالثة متوسطة محور الإنسان والحرية وأدرجوا فيه نصا شعريا للشاعر الجزائري حمود رمضان "الحرية" في نشاط المطالعة الحرة وقد تضمنت القصيدة ستة عشر بيتا يقول فيها الشاعر: [23]

لا تلمنـــي في حبــــها وهـــواهـا	لست أختار مـا حييت سواها
هـي عينـــي ومهجتـــي وضميـــري	إن روحي ومــــا إليه فداهـا
إن عــــمــــري ضحيــــة لأراهـا	كوكبا ساطعا ببرج علاهـا
فهنائـــي موكــــل برضـــاهـا	وشفائي مسلـــــم بشقاهـا
إن قلبــــي في عشقهـا لا يبـالـي	تنطوي الأرض أم يخر سماها
قد قضى الله أن تكون كصوت	وقضى أن يرد روحـي صداها

فالشاعر يتغنى بالحرية ويجسدها في صورة الحبيبة التي تحب وتعشق ولا يجد عنها بديلا، فهي تحتل كامل كيانه وتملأ حياته وتمتلئ بها روحه، فهناه وراحته أو شقاؤه مرتبط بها، هذا النص بمعانيه السامية حول الحرية يرسخ في ذهن وروح التلميذ حبها وعشقها ويحس بقيمة هذه النعمة ويشعره بفضل الله عليه لأنه أعان ووفق شعبه لافتكاكها من المستعمر الغاشم مما يضخم في نفسه حب الوطن والاعتزاز به، ويزيد من تأجج الوطنية في حياته، فالشعر يكتنف التضخيم وكثافة الدلالة والإشارة الجميلة، فبنيته تشير وتلمح ولا تصرح وهذا ما يجعل التلميذ يمعن النظر ويدقق في دلالات القصيدة ويتفاعل مع معانيها ودلالاتها المختلفة وخاصة حين يربط رمضان حمود الحرية بالطبيعة متمثلا شكلها في الطيور المحلقة في السماء والتي تحمل رسالتها للشعوب بالسلام والأمن بلغتها البليغة الجميلة، حيث يقول الشاعر في نهاية النص: [(24)]

أيها الطائر المحلـــق فوقـي	هل أجد فيك حكمة وانتباها
أترى هل تكون مني رسولا	يحمل الســـر للحبيب وجاها
بلغيهــــا مقالة من صديـق	حين تأتـــي ديارهـــا وتـــراها

د- **الاعتزاز بثوابت الشخصية الوطنية:** حاول الكتاب المدرسي التركيز على الثوابت الوطنية، وتعريف التلميذ بها والتفاعل معها في عالم معاصر يتطلب فيه الحفاظ على الهوية الوطنية واحترام الخصوصية المميزة لأي شعب من الشعوب، فأدرج في كتاب السنة الثانية في محور الفنون تحت نشاط للمطالعة

والحفظ نصا شعريا جزائريا بعنوان شعب الجزائر للشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي يقول فيه : (25)

شعب الجــزائر مسلم	وإلى العـــــروبة ينتسب
مــن قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كـذب
أو رام إدمــاجـــا لـــه	رام المحال مـــن الطلب
يـــا نشء أنـــت رجاؤنا	وبك الصبــاح قد اقترب
خـذ للحيــاة سلاحـها	وخض الخطوب ولا تهب

فالشيخ يبين ملامح الشخصية الجزائرية وأصولها الضاربة في الإسلام وانتسابه للعروبة، والتزامه بهذا الطريق الذي يعد أصله ومنبته مهما تعرض لحملات التغريب والإدماج التي مارسها المستعمر قديما وتمارسها قوى خارجية حديثا، فالقصيدة تعرف التلميذ بمقومات شخصيته وتسعى لإقناعه بالحفاظ عليها والثبات عليها لأنها تمثل جوهر حب الوطن والوطنية، وتتمثل في الدين الإسلامي واللغة العربية والوطن الجزائر، كما تزرع القصيدة في نفس التلميذ مجموعة من القيم النبيلة التي يجب أن يتحلى بها شبابنا وهي العزم والمثابرة في الحياة وعدم الرضى بالذل والظلم، ومقارعة المستعمرين ودحرهم، حيث يقول: (26)

واقلع جذور الخائنيــن	فمنهم كل العطــب
واهزز نفوس الجامديـن	فربما حيي الخشــب

ويرسل الشيخ وصيته في آخر القصيدة للشباب الجزائري، التي يجب على التلميذ وعيها والتمسك بها والمثابرة على العمل بها وتظهر في قوله: (27)

هــذا لـــعـــهـدي بـه	حتى أوسد في التـرب
فإذا هلكت فصيحتي	تحيا الجزائر والعـرب

هـ- الافتخار بالجزائر أرضا وشعبا: شكل موضوع الاعتزاز والافتخار بالجزائر وطنا وأرضا موضوعا رئيسا للشعر الوطني الجزائري في الكتاب

المدرسي حيث ركز على تضخيم هذا الحب الموجود أصلا بالفطرة من خلال حب المكان الذي ولد فيه الإنسان وينتمي إليه بالطبيعة، فذهب الكتاب إلى انتقاء قصائد تتغنى بحب الجزائر وطنا، ولفت انتباه التلميذ إلى هذا الجانب حتى يهتم به من خلال« إدراكه لجماليات المكان وقيمته الروحية والمعنوية فينغمس في عشقه أكثر ويتقدس في نفسه فلا يطيق فراقه، ويبذل في حبه النفس والنفيس» (28).

ولعل القائمين على تأليف وإعداد الكتاب رصدوا مجموعة من القصائد التي اعتنت بهذا الجانب ومنها قصيدة بلادي احبك لمفدي زكرياء الموجهة لتلاميذ السنة الثالثة في نشاط المطالعة الحرة والمقتطفة من الإلياذة التي يقول فيها: (29)

بلادي أحبك، فوق الظنون ❖ وأشدو بحبك، في كل نـادي

عشقت لأجلك كل جميل ❖ وهمت لأجلك، في كـل وادي ...

ومن هام فيك، أحب الجمال ❖ وإن لامه الغشم، قال : بـلادي

فالقصيدة ترسخ حب الجزائر وتتغنى بحبها وجمالها وهيام الشاعر بها فراح يختار لها كل جميل ومفرح ومبهج لأجلها ، ويفاخر بعشقها كل مظاهر الطبيعة، واصفا تفرد أرضها بالاخضرار والخير الدائم، وهذا ما يعكسه نص مبارك جلواح "جزائر الغد" في الكتاب نفسه، التي يتغنى فيها بالجزائر وجمالها، ويتصور مستقبلها المزهر المحمي من طرف شبابها الأسود، المشمرين عن سواعدهم للبناء والتشييد، والمفكرين في تطورها ورقيها، ويدعو الله تعالى أن يحفظها دوما بلادا حرة ومتطورة حيث يقول: (30)

جزائر الغد ما أبهاك في نظـري	مـــن صــورة تسبـي عقلا للفتـى الأرب
كم تسفرين على ما في مخيلتي	سفور شمس الضحى من برقع السحب
وأنت في عالـــم دون اللحاق بـه	دنيــــا تشيب بني جيلي ولـم تشـب؟
تــــرى تسالمني الأيـام يا أملـي	حتى أراك كما أهـواك عـن كـثب؟

حتى أراك بأفق المجـد ساحبـة بيـن الـدراري ذيـول التيـه والعجب

وحول غابك أسد الله في فلك مـن الملائك تـتلو آيـة الكـتب

فالله يحييك في عـز وفي شـرف ومـن يحبـك في يمـن وفي طرب

كما أدرجت نصوص تشيد بالمدن الجزائرية تعرض تاريخها وقصة جهادها المشرف في الثورة التحريرية، مما يعرف التلميذ بجوانب مشرقة من تاريخ الجزائر ويلهمه حب الجزائر بمدنها وقراها ومداشرها لأنها تمثل قطعة منها وكل ركن فيها شهد الكفاح وقوافل من الشهداء الأبرار، فهذه النصوص الشعرية تعزز حب الوطن وتغرس في التلميذ الافتخار بالانتساب إليه، ومن هذه النصوص، قصيدة شرشال التاريخية لمفدي زكرياء المقتطفة من الإلياذة في كتاب السنة الثالثة تحت نشاط المطالعة الحرة التي يقول في أحد مقاطعها: (1 3)

أشرشال هلا تذكرت يوبـا ؟ ومن لقبوا عرشك القيصرية ؟

لمـاذا يلقـب يوبـا بشـان ؟ أما حقـق السبق في المدنية ؟

وباهى بشرشال جنة عـدن ؟ وزان حدائقهـا السندسيـة ؟

أما كـان أول من خط رسمـا لوجـة جزيرتنـا العربيـة ؟

أمـا شـاد يوبا بشرشال للعلـ ـم أول جـامعـة أثـريـه

وهـذا أبولـوس كان طبيـبا يدين لـه العلـم بالعبقريـة

إن القصيدة تلقن التلميذ بعدا وطنيا يتمثل في القيمة التاريخية لشرشال وبما تشتهر به، على مر العصور، كما تبين للتلميذ عراقتها وقدمها أصلها الحقيقي، كما تعرض أعلامها من حكام وجنود وعلماء شادوا أركانها وبنوا دورها، فيرتسم في ذهنه ووجدانه عراقتها ويعتز بانتمائه إليها.

وتواصل النصوص الشعرية الجزائرية الوطنية الافتخار والاعتزاز بالمدن التي تعد قطعة من الجزائر الأم، وذلك في نص للشاعر محمد العيد آل خليفة بعنوان تمقاد في كتاب السنة الرابعة تحت نشاط القراءة، حيث تشيد القصيدة بجمال المدينة وما تحتويه من آثار رومانية ضاربة في التاريخ تعكس مدى الحضارات

التي تعاقبت على الجزائر مما يظهر التنوع الحضاري والثراء الثقافي، وهذا يكسب التلميذ ثقافة تاريخية ويقوي في نفسه حب الجزائر والمفاخرة بتاريخها القديم الممتد عبر أحقاب تاريخية عميقة، مما يرسخ حب الوطن بشكل عام حيث يقول الشاعر : (32)

وقفت علــى تمقـــاد جائــل	وطفت بها مستــرشـدا بالدلائـل
عجبت لها من بلـــدة أثريــة	خلت منــذ أجيـــال طوال دوائـل
صفائحهـا منقوشة بلسانــها	على من يرى معروضة كالرسائل
تماثيلها تبدي لنا كل بـادن	قويم من الأجسام جعد الخصائل

وتحت نشاط المطالعة الموجهة في كتاب السنة الأولى أدرج نص شعري وطني جزائري بعنوان "صحراؤنا" يفتخر فيه الشاعر أبو القاسم خمار بجمال الصحراء الجزائرية مبينا خيراتها التي حباها الله بها ويفتخر بشساعتها وجمال ليلها وضوء نهارها فهي جنة غناء لأنها قطعت من الجزائر أم المعجزات، فهذه القصيدة مليئة بالقيم الوطنية التي من شأنها إكبار حب الجزائر وتمكين الاعتزاز بها في نفس التلميذ مما تجعله يشتاق إلى زيارة ربوعها والتمتع بخيراتها والارتواء من جمالها المسكون في كل أركانها وهذا هدف روحي ووجداني ومعرفي يسعى المشرع لتحقيقه والوصول إليه، حيث يقول الشاعر: (33)

(1)	(2)	(3)	(4)
وبصحرائـي الغنية	وتراتيل أصيـل	أيها السائـل عنـي	وطموحا و جمـال
نصب المجد خياما أبدية	في سمائي في بحاري	أسمر الجبهة شاعـر	أنا حققت مصائـر
أصبحت فيها رمالي ذهبا	في رحاب النور سائر	في كباري في صغاري	**وهتافي لم يزل ملء الحناجر:**
وسراب كان أضحى لهبا	الجزائر.. الجـزائر...	أنا في صحو نهـاري	الجزائر... الجزائر ...
وحكايات الأماني شهبا	أنـا بنـت النور	أنا في عمق انتصاري	أنـا بنـت النـور..
جنة حلـم جـميـل	أخت النــار	بيد أحمل شمسا من جلال	أخـت النـار...
وسنـاء ونخـيـل	أم المعجــزات	وبأخرى أبذر الدهر نضال	أم المعجـزات...

3- التشكيل الفني للنصوص الشعرية الجزائرية الوطنية في الكتاب المدرسي : لعل المتمعن في النصوص الشعرية السابقة يلاحظ اشتراكها في عدة مميزات فنية أهلتها ليختارها المعدون للكتاب، لكونها تتوفر على الموضوع الوطني الذي يتماشى مع الهدف الأساس للكتاب والسياسة العامة لوزارة التربية الوطنية، وهي إرساء وتعزيز الثوابت الوطنية، وغرس حب الجزائر في أبنائها من خلال النصوص الشعرية الداعمة لهذا المنحى، وليصل النص الشعري الجزائري لتحقيق المهمة، عليه أن يتدثر بسمات فنية معينة تساعده على الولوج إلى عالم التلميذ والتعايش مع نفسيته، وتتوافق مع عمره ونمط تفكيره ودرجة استيعابه للخطاب الموجه إليه، لذلك اتخذت النصوص المختارة حلة فنية مشتركة كشفت من خلالها جمالياتها الفنية وتقنياتها الأسلوبية وقوتها التعبيرية وتتمثل هذه السمات في :

1- أغلب القصائد أخذت من إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء حيث تمثلت في أربع قصائد (نوفمبر، بلادي أحبك، شرشال، يا سيل قف) وذلك بنسبة تقدر بـ 40 %، وهذا لشيوع نصوص الإلياذة بين الناس وطبيعة موضوعاتها التي تصب كلها في التغني بالجزائر وتاريخها الثوري وتعرض محطاتها عبر العصور، لذلك وجد فيها المؤلف للكتاب ضالته ومسعاه وحققت له هدفه وهو إرساء البعد الوطني في روح وكيان التلميذ، كم تعرف الإلياذة .

2- شغلت القصائد الوطنية الأخرى نسبا متقاربة توزعت بين الشعراء الجزائريين فمبارك جلواح بقصيدتين بنسبة 20 %، ولكل من محمد العيد آل خليفة و ورمضان حمود وأبي القاسم خمار وابن باديس قصيدة واحدة بنسبة 10%، لكل شاعر مختارا القصائد التي تخدم الموضوع الوطني والذي يتناسب مع الوحدة المدروسة، رغم أن للشعراء المذكرين سابقا دواوين في الشعر الوطني والاعتزاز والافتخار به وتشتمل على مختلف الجماليات اللغوية والأسلوبية لكنها لم تلق الاهتمام من قبل معدي الكتاب.

3- تشتمل القصائد الوطنية المختارة على صور شعرية بليغة المعنى بسيطة التركيب سهلة الإدراك قوية الدلالة من اجل إيصال الفكرة جلية واضحة للتلميذ، من خلال اعتماد الأشكال البلاغية المعروفة للصور (التشبيه والاستعارة والكناية) دون اللجوء إلى التعقيد أو الإكثار من الرموز المغلقة التي يصعب على التلميذ إدراكها وفهم كنهها مثل قصيدة صحراؤنا لأبي القاسم خمار وقصائد الإلياذة وجلواح.

4- اختارت القصائد الوطنية المختارة لغة سهلة في تراكيبها وصيغها بليغة في معانيها، موحية بتعابيرها، لا تستخدم الحوشي والغريب من الكلام بل توظف ألفاظا وعبارات قريبة من تناول ومحيط التلميذ(صحرائي، رمالي حكايات، النور، صغاري، نخيل، جميل..)، فهي اللغة التي يناقش بها النص ويحلل مضمونه ويعلق على محتواه ويعبر من خلال أفكاره، رغم اشتمال بعض القصائد على مصطلحات وأسماء تاريخية إلا أنها كانت ترفق بشرح لغوي في الكتاب، مما يسهل على التلميذ إدراك معنى البيت الشعري بسهولة مثل قصيد شرشال لمفدي فقد شرح اسم يوبا وأبليوس، أما باقي القصائد فقد كانت ميسورة اللغة تنساب طيعة في سهولة ويسر .

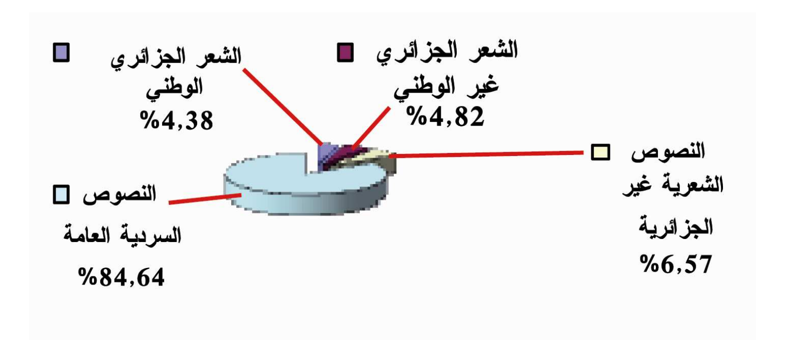
5- تدثرت القصائد الوطنية بإيقاع ممتع يتماشى مع الجو المفرح للأطفال وبموسيقى مؤثرة لافتة للانتباه تعكس الثقافة المحافظة والملكة الشعرية للشعراء الجزائريين الذين تربوا على أنغام الشعر العربي في مختلف عصوره وعلى توظيف تشكيل موسيقي داخلي يهز النفوس ويشعرها بحب الجزائر والافتخار بثورتها المباركة، من خلال الانسجام المحقق بين الأصوات والتوافق بين الحروف، كما عكست الموسيقى الخارجية ببحورها وأوزانها وتفعيلاتها مدى تفاعل التلاميذ مع أنغامها المطربة التي تحيي في نفوسهم الاعتزاز بالجزائر أما ووطنا وحبيبة، وتؤكد هذا الشعور قوافي وإيقاع القصائد الوطنية الممتلئة حبا وعشقا للجزائر.

4- الشعر الوطني الجزائري بين الحضور والغياب في الكتاب المدرسي :

لعل المتتبع للإصلاحات التي تقوم بها المنظومة التربوية في الجزائر يجدها تعتمد على الارتقاء بالعملية التعليمية واستثمارها في جميع المجالات، والاستفادة من التحصيل العلمي والتربوي للمتعلمين، بغية تنشئة جيل يتخذ من العلم والمعرفة سلاحا للفوز بالسباق الذي يشهده العلم المعاصر، ومن الحفاظ على الهوية الوطنية والخصوصية الاجتماعية وقاية من أشكال الاستلاب والاغتراب ومن الأصالة والمعاصرة وسيلة للتصدي لسلبيات العولمة، ومحاولة التجديد في المناهج التعليمية والتربوية في جميع المواد ونشاطاتها وفق ما يتماشى والتطور العلمي وما يعيشه المتعلم في حياته المعاصرة، ونظن أن النص الشعري الجزائري بشكل عام والوطني والثوري بشكل خاص كفيل بتحقيق هذه الأهداف، لما يكتنفه من صدق في التجربة الشعرية وما يعكسه من مبادئ وثوابت الشخصية الوطنية الجزائرية، وبما يزخر به من تقنيات وآليات فنية وجمالية تسوغ له الاتصال بالتلميذ والتأثير فيه أثناء هذه المرحلة، ونحن نرى مدى تفاعل التلاميذ مع الأناشيد الوطنية ونصوص الإلياذة ومختلف القصائد ذات الطابع الوطني للشعراء الجزائريين سواء من الشعر الفصيح أو الشعبي.

والملاحظ على النصوص المختارة للكتاب المدرسي الموجه للمرحلة المتوسطة أنها كانت متنوعة بين الشعرية والسردية، وذات تنوع بين الأدب الجزائري والأدب غير الجزائري، غير أننا نرصد ملاحظة مهمة وجوهرية على هذا الكتاب بسنواته الأربع نتيجة العملية الإحصائية، أنه أهمل كثيرا الأدب الجزائري بصفة عامة والشعر الجزائري بصفة خاصة ولا نعلم سبب ذلك، مع أن القائمين على هذا المؤلف أساتذة متخصصون في المجال التعليمي والبيداغوجي وعلى علم بالنتاج الأدبي الجزائري لكن رغم ذلك فالنصوص المختارة لم تعن بالشعر الجزائري الوطني على كثرتها في شعرنا الحديث والمعاصر، وعلى جمالياتها الأسلوبية والتعبيرية وشهرتها الفنية، ومدى حب التلميذ لها وانسجام صورها ولغتها وموسيقاها مع طباعه وسلوكه لأنها وليدة بيئته وتاريخه ووطنه، وسنحاول تأكيد ما ذهبنا إليه من خلال هذا الجدول الإحصائي وتمثيله بالدائرة النسبية:

	كتاب السنة الأولى		السنة الثانية ج1+ج2		كتاب السنة الثالثة		كتاب السنة الرابعة		المجموع	
	عدد النصوص	النسبة المئوية	عدد النصوص	النسبة المئوية	عدد النصوص	النسبة المئوية	عدد النصوص	النسبة المئوية	مجموع النصوص	النسبة المئوية
نصوص شعرية جزائرية وطنية	03	% 5.76	02	%02.5	04	%08.33	01	%02.08	10	%04.38
نصوص شعرية غير جزائرية وطنية	04	07.69 %	02	%02.5	03	%06.25	02	%04.16	11	%04.82
نصوص شعرية غير جزائرية عامة	04	07.69 %	05	%06.25	03	%06.25	03	%06.25	15	%06.57
نصوص سردية عامة	42	80.76 %	71	%88.75	38	%79.16	42	%87.50	193	%84.64
المجموع	52	%100	80	%100	48	%100	48	100	228	%100



نلحظ من خلال الجدول أن حضور النصوص الشعرية الجزائرية الوطنية كان قليلا جدا حيث يمثل 4.38 % من مجموع النصوص المقدمة للتلميذ والتي سنعتمد عليها في تنمية شخصيته الوطنية والاعتزاز بالجزائر وحبها وطنا وأرضا ينتمي إليها، وكانت النصوص الشعرية الجزائري غير الوطنية أيضا قليلة حيث مثلت نسبة 4.82 % وهي نسبة غير متفاوتة مع الوطنية، وبهذا يكون حضور الشعر الجزائري قليلا جدا في كتاب اللغة العربية للمرحلة المتوسطة وهذا يعتبر نقصا بالقياس إلى ما يزخر به شعرنا الحديث والمعاصر، في حين نجد حضور الشعر غير الجزائري أي المشرقي (شعراء مصريين ولبنانيين وسوريين) بنسبة أكبر حيث مثل نسبة 6.57 %، أما حضور النصوص السردية التي تنوعت بين المنسوبة لكتاب معروفين وبين المأخوذة من المجلات والانترنيت دون نسبتها إلى مؤلفيها، فقد أخذت حصة الأسد بنسبة تقدر بـ 84.64 % حيث مثلت الجزائرية نسبة 8.45 % والمشرقية 76.19 %، وبذلك يكون حضور الأدب الجزائري في الكتاب المدرسي للمرحلة المتوسطة محتشما، ولعل القائمين على التأليف لم يهتموا بهذا الجانب كثيرا، رغم أهميته فقد كان الأولى إدراج نصوص شعرية جزائرية (قديمة وحديثة ومعاصرة) وهي كثيرة كشعر الأمير عبد القادر محمد العيد آل خليفة والربيع بوشامة وشعراء جمعية العلماء المسلمين والشعر المعاصر بمختلف شعرائه الذين امتلكوا ناصية البيان وقصدوا جميل الموضوعات الوطنية، ونصوص سردية جزائرية وأخرى مشرقية منسوبة

لأصحابها حتى يتعرف التلميذ على الأدباء وسيرتهم وإبداعهم، ويمتلك ثقافة أدبية موثقة، فنحن لا نعارض جمالية النص بغض النظر عن مؤلفه، لكننا نسعى إلى أن يتعرف التلميذ في هذه المرحلة على الأدب الجزائري ليعتز به وينسج على منواله.

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، م 13، ص 451.

2- نفسه، ص 451.

3- نفسه، ص 451.

4- أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط 1، 1960 المجلد 5، ص 777 – 778.

5- السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: عبد الرحمان عميرة، عالم الكتب، لبنان بيروت، ط 01، 1987، ص 308.

6- مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، جمهورية مصر العربية، 1990، ص 674.

7- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة العربية، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج 6 ص 120.

8-عزيزة مريدن، القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي، الدر القومية للطباعة، مصر 1966، ص 64.

9- وهيب طنوسي، الوطن في الشعر العربي، منشورات جامعة حلب، سوريا، 1979 / 1980 ص 224.

10- محمد زغينة، شعر السجون والمعتقلات في الجزائر(1954- 1962)، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة باتنة، 1989، ص 52.

11- إميل ناصف، أروع ما قيل في الوطنيات، دار الجيل، بيروت، ط 01، 1992، ص 09.

12- نفسه، ص 09.

13- محمد حسين، أدب الأطفال ودوره في التربية، دار المنار، دمشق، ط1، 1987، ص 25.

14- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ص 230.

15- محمد زغينة، شعر السجون والمعتقلات في الجزائر، ص 69.

16- الشريف مريبعي وآخرون، كتاب اللغة العربية للسنة الأولى من التعلـيم المتوسـط، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، 2010، ص 202.

17- بدر الدين تريدي وآخرون، استكشاف اللغة العربية للسنة الثانية متوسـط، وزارة التربيـة الوطنية، الجزائر، 2005، ج1، ص 70.

18- الشريف مريبعي وآخرون، تنوير - اللغة العربية للسنة الثالثة من التعليم متوسط-، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، 2008، ص 82.

19- الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري الحديث، ديوان المطبوعـات الجامعية، الجزائر ص 114.

20- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص 284.

21- المرجع نفسه، ص 285.

22- محمد حسين، أدب الأطفال ودوره في التربية، ص 25.

23- الشريف مريبعي وآخرون، تنوير - اللغة العربية للسنة الثالثـة من التعلـيم متوسـط- ص 52.

24- المرجع نفسه، ص 52.

25- بدر الدين تريدي وآخرون، استكشاف اللغة العربية للسنة الثانية متوسط، ج2، ص 116.

26- المرجع نفسه، ص 116.

27- المرجع نفسه، ص 116.

28- محمد حسين، أدب الأطفال ودوره في التربية، ص 25.

29- الشريف مريبعي وآخرون، تنوير - اللغة العربية للسنة الثالثـة مـن التعليـم متوسـط- ص 127.

30- المرجع نفسه، ص 82.

31- المرجع نفسه، ص 36.

32- الشريف مريبعي وآخرون، كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعلـيم المتوسـط، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، 2009، ص 95.

33- الشريف مريبعي وآخرون، كتاب اللغة العربية للسنة الأولى من التعليم المتوسط، ص 249.